الشرق الأوسط الديمقراطي

فصلية فكرية تحليلية تعنى بشؤون الشرق الأوسط

العدد 63 - كانون الأول / ديسمبر 2023م

المحور الأول:

العلاقات الدولية في الشرق الأوسط

الصراع والتنافس، الأسباب والنتائج والتأثيرات المختلفة

- الصين ومشروع "الطريق والحزام" والتحول نحو العالمية
- القوى المفترسة ما بين القانون الدولي والاحتلال (دولة الاحتلال التركي نموذجا)
- دور الإعلام في تشكيل الرأي العام ومكافحة الإرهاب

المحور الثاني:

العالم والشرق الأوسط عبر حرب (المنظمات والمخيمات واللاجئين)

- تصاعد القوى والتيارات اليمينية في أوروبا وخطاب الكراهية تجاه اللاجئين
- التأثيرات المختلفة للمنظمات الدولية على المجتمع السوري ومناطق الصراع في الشرق الأوسط
- الهجرة, التهجير القسري، هجرة العقول (الهجرة غير الشرعية من الشرق للغرب)

المحور الثالث:

المناخ والسياسة

- الكون المتكامل
- البيئة من ريو دي جانيرو إلى دبي
- تحديات تغير المناخ والتغيرات البيئية

على دول الشرق وآثارها المختلفة والحلول الممكنة

في العدد أيضاً:

- أحد كايا حين تعضُّ البلاد أصابع أبنائها
- فلسفة القانون ومبادى الأخلاق (القوانين الطبيعية المجتمعية والوضعية في الشرق)
- الإرهاب أحد أهم المقومات الفكرية الأساسية لحكومة نتنياهو

الشرق الأوسط الديمقراطي

مجلة فصلية فكرية تحليلية تعنى بشؤون الشرق الأوسط

العدد ٦٣ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٣م

إدارة المجلة

مجلس الإدارة

الاشراف العام

زياد محمد

رئيس التحرير

صلاح الدين مسلم

هيئة التحرير

روشن مسلم

عواس علي

أحمد دالي

مصطفى شيخ مسلم

اسماعيل خالد محمد

الهيئة الاستشارية

السيد عبدالفتاح السيد

حسن ظاظا

جاسم الهويدي

ياسر شوحان

هزار شكر

الإخراج الفني

كُليستان كوسا

الآراء المنشورة تعبر عن رأي أصحابها وليس بالضرورة أن تعبر عن رأي المجلة

وسائل التواصل

يمكنكم متابعتنا والإدلاء بآرائكم ومقترحاتكم وإرسال مساهماتكم عبر وسائل التواصل التالية:

http://www.alawset.info

serqalawset@gmail.com

@AlawsetMagazine

@KovaraAlewset

@/alawsetmagazine

رقم الاعتماد
لدى نقابة الصحفيين العراقيين
١٤٨
رقم الإيداع
دار الكتب والوثائق ببغداد
٨٦٨ لسنة ٢٠٠٥

لدى وزارة الثقافة المصرية
دار الكتب والوثائق في القاهرة
رقم ٢٤٢١٧

مكتب القاهرة: 18 شارع ضريح سعد - القاهرة
ت: 27901104 / 01554349602

محتويات العدد

العدد: 63 ـ كانون الأول ـ 2023

كلـــمة العـــدد	رئيس التحرير	٣
العلاقات الدولية في الشرق الأوسط الصراعات والتنافس ، أسبابها وتأثيراتها المختلفة		
الصّين ومشروعها «الطريق والحزام».. وإسقاطاته السِّياسيّة والثَّقافيّة والتحوّل نحو العالميّة	جميل رشيد	٤ - ٢٥
جسور التواصل ، تصورات حول التعايش المجتمعي في منطقة الشرق الأوسط	رباب عبد الرحمن	٢٦ - ٣٢
اضطراب ما بعد الصدمة (اضطرابات الحروب) لمجتمعات شمال وشرق سوريا	صلاح الدين مسلم	٣٣ - ٥٧
الإعلام تأثيره على تشكيل الرأي العام في مكافحة الإرهاب	ممدوح الحسن	٥٨ - ٦٨
القوى المفترسة (دولة الاحتلال التركية نموذجاً) ما بين القانون الدولي والاحتلال	إسماعيل خالد	٦٩ - ٧٧
تحديات الأمن في الشرق الأوسط، الإرهاب، الصراعات الإقليمية	مصطفى شيخ مسلم	٧٨ - ٨٢
العالم والشرق الأوسط عبر حرب (المنظمات والمخيمات واللاجئين)		
تصاعد القوى والتيارات اليمينية في أوروبا وخطاب الكراهية تجاه اللاجئين	أحمد دالي	٨٣ - ٨٩
التأثيرات المختلفة للمنظمات الدولية	أحمد زردشت	٩٠ - ٩٨
الهجرة.. التهجير القسري، هجرة العقول الهجرة غير الشرعية من الشرق الأوسط للغرب	فيان أيوب	٩٩ - ١٠٢
المناخ والسياسة		
البيئة من ريو دي جانيرو إلى دبي	حميد المنصوري	١٠٣ - ١١٣
الكون المتكامل	عواس علي	١١٤ - ١٢٢
تحديات تغير المناخ والتغيرات البيئية	يوسف وهيب	١٢٣ - ١٢٩
مواضيع منوعة		
التدخل العسكري في السياسة	ولاء عبدالله أبوستيت	١٣٠ - ١٣٣
العمارة الطينية «القبة» انموذجاً	محمد عبد الله العزو	١٣٤ - ١٣٦
فلسفة القانون ومبادى الأخلاق القوانين الطبيعية المجتمعية والوضعية في الشرق	عبد الرحمن الحمادة	١٣٧ - ١٤٢
الإرهاب أحد أهم المقومات الفكريّة الأساسيّة لحكومة نتنياهو	أنمار الدروبي	١٤٣ - ١٤٥
دور السريان في تاريخ الرقة	علي السويحة	١٤٦ - ١٥١
أحمد كايا حين تعضُّ البلاد أصابع أبنائها ويعلو الصراخ فوق راية الوطن	نوزاد جعدان	١٥٢ - ١٦٠

كلمة العدد ٦٣

رئيس التحرير

ما زال الشرق الأوسط ملتقى العديد من الصراعات الفكريّة والسياسيّة، وموطن الخلاص والدمار، وهي الأم الرؤوم، وهي الأمّ المتهالكة الشاردة التي عقّها أبناؤها، وكلّما تأزّمت أمور العالم لجأت إلى الشرق، فها هي الدول تتصارع كي تثبت وجودها، أو تؤكّد على بقائها، أو سيطرتها فلا بدّ أن تعود إلى الشرق الأوسط، فهي قبلة العالم، وموطن الخبراء والعقول، وموطن الروحانيات كي تتطهّر القلوب من سيطرة العقل على البشر، إنّ الشرق مرتع الصراعات والتنافس.

وقد بدأت الأمم المتحدة إعلان الحرب على الإرهاب، بالطبع بقيادة الولايات المتحدة، ونشأت فكرة الهجوم بغرض الدفاع عن النفس ضدّ محور الشرّ، وقد بدأت الأحداث تتلاحق، حيث تمّ تفجير سيارة مفخخة في مرآب بناية مركز التجارة العالمية في نيويورك في عام 1993، وفي عام 1998 تمّ تفجير سفارتَي الولايات المتحدة في دار السلام عاصمة تانزانيا ونيروبي عاصمة كينيا، وبدأت الولايات المتحدة بقصف مواقع في السودان وباكستان، وفي عام 2000 تم تنفيذ إحدى العمليات الانتحارية على ناقلة بحرية في ميناء عدن، وصولاً إلى الانفجار الأهم في 11 أيلول على برجي التجارة العالميتين وعلى مقر البنتاغون، وقام الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة بوضع استراتيجية عالمية لمكافحة الإرهاب في 2006 تتفق فيها بلدان العالم على نهج استراتيجي موحد لمكافحة الإرهاب، وبدأ مسلسل مكافحة الإرهاب.

لذلك طرحنا في المحور الأوّل: محور العلاقات الدولية في الشرق الأوسط (الصراعات والتنافس، أسبابها وتأثيراتها المختلفة) ومنها عناوين متعددة منبثقة عنها وهي (اضطرابات الحروب) والصّين ومشروعها «الطريق والحزام».. وإسقاطاته السّياسيّة والثّقافيّة والتحوّل نحو العالميّة، وتحديات الأمن في الشرق الأوسط، الإرهاب، الصراعات الإقليمية ، والقوى المفترسة (دولة الاحتلال التركية نموذجاً) ما بين القانون الدولي والاحتلال، وجسور التواصل، تصورات حول التعايش المجتمعي في منطقة الشرق الأوسط، والإعلام تأثيره على تشكيل الرأي العام في مكافحة الإرهاب.

أمّا في المحور الثاني فكان بعنوان العالم والشرق الأوسط عبر حرب (المنظمات والمخيمات واللاجئين) ومنها مواد متفرّعة مثل: تصاعد القوى والتيارات اليمينية في أوروبا وخطاب الكراهية تجاه اللاجئين، والهجرة.. التهجير القسري، هجرة العقول، الهجرة غير الشرعية من الشرق الأوسط للغرب، والتأثيرات المختلفة للمنظمات الدولية.

أمّا في المحور الثالث: المناخ والسياسة، فعالجنا مواد مثل الكون المتكامل، والبيئة من ريو دي جانيرو إلى دبي، وتحديات تغير المناخ والتغيرات البيئية.

أمّا في المحور الرابع: محور المنوعات، وتطرّقنا إلى مواضيع مهمة مثل: التدخل العسكري في السياسة، الإرهاب أحد أهم المقومات الفكريّة الأساسيّة لحكومة نتنياهو، دور السريان في تاريخ الرقة، فلسفة القانون ومبادى الأخلاق، القوانين الطبيعية المجتمعية والوضعية في الشرق، العمارة الطينية «القبة» انموذجاً، وأحمد كايا حين تعضُّ البلاد أصابع أبنائها ويعلو الصراخ فوق راية الوطن.

الصّين ومشروعها «الطريق والحزام»..
إسقاطاته السّياسيّة والثّقافيّة والتحوّل نحو العالميّة

جميل رشيد

تمهيد:

يعتبر مشروع «الطريق والحزام» الذي طرحته الصّين، وتعمل عليه منذ سنوات، من أهم المشاريع الحيويّة والذي من شأنه أن يُغيّر مسار العلاقات الاقتصاديّة والسّياسيّة والعسكريّة والاجتماعيّة وحتّى الثّقافيّة، على كوكبنا، إن تكلّل بالنجاح. فهو إلى جانب تحقيق فائدة كبيرة للصّين الدّولة والشّعب؛ فإنّه بالمقابل سيضفي مزيداً من التقدُّم على المسارات التي يسلكها، ويلقي بظلاله على دول عديدة في آسيا وأوروبا وإفريقيا، وحتّى تصل امتداداته إلى القارة الأمريكيّة أيضاً، هذا فضلاً عن نقله للقيم الثّقافيّة والاجتماعيّة لمختلف المجتمعات، وتلاقحها، بالتالي خلق عالم آخر، رُبّما يختلف عمّا هو سائد في عالمنا اليوم.

رغم الآمال الكبيرة التي تحدو الصّين ودولاً عديدة مثل إيران وتركيّا، وكذلك روسيا وبعض دول الشّرق الأوسط؛ من إنجاز المشروع وتحويله إلى واقعٍ على الأرض؛ إلا أنّه توجد تحدّيات عديدة تواجه المشروع، منها ما هو متعلّقٌ بطبيعة الدّول المشاركة فيه، حيث اختلاف الثّقافات والبيئات الاجتماعيّة، وكذلك تباين أيديولوجيّات أنظمة الحكم في تلك الدّول؛ ما يساهم في زيادة تعقيدات إنجاز المشروع وتأخّره. وإذا ما أضفنا عامل الجغرافيا وتباين الأديان وحواملها السّياسيّة؛ فإنّها بحدّ ذاتها تعتبر عوامل كبح للمشروع أكثر من العوامل الموضوعيّة الأخرى، كالتمويل وشروط البناء ومحاولة استحواذ كُلّ طرف مشارك فيه بحصّة الأسد. إضافة إلى المحدّدات الجيوسياسيّة المتعلّقة بماهيّة التّحالفات والاصطفافات السّياسيّة والعسكريّة في العالم، وتوجُّهات كُلّ دولة. ففي النهاية لا يمكن الجمع بين كُلّ تلك المتناقضات والقفز فوقها نحو مشروع جامع، يَضُمُّ بين دُفَّتيه مختلف المذاهب والإيديولوجيّات السّياسيّة والدّينيّة والقوميّة، رغم محاولات الصّين الحثيثة إلى تجاوزها والالتقاء على فكرة محوريّة ومركزيّة الجانب الاقتصاديّ. ولكن مثلما تقول أبجديّات الأدبيّات السّياسيّة العالميّة: لا يمكن البَتَّة الفصل بين السّياسة والاقتصاد، فهما صنوان لا يمكن الفصل بينهما، فكلاهما يكمّلان بعضهما، فلا سياسة بدون اقتصاد، وكذلك لا اقتصاد دون سياسة ترسم لها مساراتها وأهدافها.

إلّا أنّ التحدّي الأكبر الذي يواجه المشروع المصيريّ والإستراتيجيّ الصّينيّ «الطريق والحزام»، إنّما يتمثّل في معارضة الدّول الغربيّة له، وفي مقدّمتها الولايات المتّحدة الأمريكيّة وأوروبا، فهي تعتبره بمثابة إلغاء لوجودها العسكريّ والسّياسيّ والاقتصاديّ، إلى جانب تغييب لقيمها الثّقافيّة والاجتماعيّة، فضلاً عن فرض نمط جديد في العلاقات الدّوليّة، واعتبار الصّين المركز وباقي دول العالم الأطراف المتأثّرة بها، وبكلمة أَدَقّ التّابعة لها، وهذا ما يعني دَقّ المسمار الأخير في نعش هيمنة الحضارة الرّأسماليّة بطابعها الغربيّ، ونسف جهودها في فرض نموذجها في ربط الدّول بها. فالولايات المتّحدة أعلنت، وحتّى ما قبل إعلان الصّين عن المشروع، أنّ التحدّي الأكبر الذي يواجه هيمنتها، إنّما يتمثّل في الصّين، وليس في روسيّا البوتينيّة. ويذهب واضعو الإستراتيجيّات للولايات المتّحدة الأمريكيّة إلى حَدِّ اليقين بأنّ حروبها المستقبليّة ستكون مع الصّين واستطالاتها في مختلف مناطق العالم، وليس مع روسيّا. فهؤلاء يرون في الصّين قطباً منافساً لهم أكثر من روسيّا، من خلال امتلاكها قوّة اقتصاديّة ضخمة، قادرة ليس على منافستها؛ بل تحييدها وإحلال البديل المتوافق مع تطلّعات بعض الدّول المعارضة للمنظومة الغربيّة خاصّةً الدّول القوميّة مثل سوريّا وتركيّا وذات التوجُّه الدّينيّ كإيران والسعوديّة وبعض دول الخليج العربيّ.

ملامح المشروع بدأت تتبلوَّر من خلال عِدَّة مشاريع اقتصاديّة عملاقة دشّنتها الصّين، في شَقِّ الطرقات السّريعة وبناء الجسور والأنفاق الضخمة البرّيّة والمائيّة عبر عِدَّة دول، ألغت معها الفواصل الجغرافيّة، لتنتقل عبرها السّلع الصّينيّة بسرعة قياسيّة وتصل إلى مختلف الأسواق في آسيا وأوروبا وإفريقيا. كما تتطلّع الصّين إلى إنجاز مشاريع في دول عديدة انضمّت إلى المشروع، وتوظيف رؤوس أموال ضخمة فيها، بدءاً من إنشاء خطوط للسكك الحديديّة وإنشاء موانئ حديثة توائم متطلّبات الطّاقة التّسويقيّة لديها، وحتّى بناء أسواق تجاريّة وإقامة مصانع برؤوس أموال صينيّة.

بالتّوازي مع القدرات الاقتصاديّة الهائلة التي تمتلكها الصّين؛ تسعى القيادة الصّينيّة إلى تطوير قدراتها العسكريّة أيضاً. فرغم أنّ الصّين لاتزال تستخدم أسلوب «القوّة النّاعمة» أي الاعتماد على قوّتها الاقتصاديّة في إنشاء مراكز ثقلها في العالم، إلا أنّه، ومن خلال تجارب التّاريخ المختلفة، ثَبُتَ أنّ القوّة الاقتصاديّة وحدها لن تكون كافية في أحيان كثيرة للحفاظ على صيرورة التطوّر؛ بل تجد الكيانات والدّول لزاماً عليها بناء قوّة عسكريّة، تكون كفيلة بحمايتها، وهو ما

دأبت الصّين عليه منذ عِدَّة سنوات، من خلال تطوير جيشها وعتاده، وبما يكفل لها قوَّة ردع كافية.

سنحاول في دراستنا هذه الغوص في ماهيّة المشروع الصّينيّ، تاريخيّاً وحاضراً، وتبيين نقاط القوَّة والضعف فيه، إلى جانب تفصيل أهمّ التحدّيات التي تواجهها، وخاصَّةً من جانب الولايات المتّحدة الأمريكيّة ودول الاتّحاد الأوروبيّ، وما هي السُّبل والطرق التي تتَّبعها في محاولة كبح جماح المشروع الصّينيّ؟! كذلك سندرس، ولو بشكل سريع، إسقاطات وتأثيرات مشروع «الطريق والحزام» على منطقة الشَّرق الأوسط، وهل يمكن له أن يفكّك عقدها المستعصية على الحل؟ ويبادر مع التمركز الاقتصاديّ الصّينيّ إلى حلحلة الأزمات السِّياسيّة والعسكريّة العاصفة بدولها، وفي مقدِّمتها سوريّا، لبنان، تركيّا وإيران.

طريق الحرير تاريخيّاً:

يعود تاريخ طريق الحرير إلى ما قبل الميلاد، وتنسب بعض المصادر التّاريخيّة فضل إقامته إلى الجنرال الصّينيّ «زانغ كيان»، ويقال بأنَّه «فتح الطريق الأولى بين الصّين والغرب في القرن الثّاني قبل الميلاد»، ومنها امتدَّت الطرق وتوسَّعت نحو بلاد فارس وسوريّا، ووصلت قلب أوروبا (روما).

فيما يعتقد آخرون أنَّ أصل التَّسمية قد «صاغها الجغرافيّ والرحّالة الألمانيّ «فرديناند فون ريشتهوفن»، في عام ١٨٧٧ ميلادي، والذي أطلق عليه اسم «Seidenstrasse" أي طريق الحرير باللُّغة الألمانيّة".

وحينها كان الحرير الصّينيّ السِّلعة الرَّئيسيّة والأساسية المطلوبة في تلك البلدان التي كان يسلكها التجّار المغادرون من الصّين، وكذلك بالنِّسبة للتُجّار القادمين إليها، وقد اكتسبت الطريق اسمها وشهرتها من الحرير الصّينيّ. أيضاً كان للورق والبارود، وهما اختراعان صينيّان، تأثيرٌ أكبر على الثَّقافة العامّة لدول العالم الواقعة على الطريق، أكثر من الحرير نفسه.

> **"التحدّي الأكبر الذي يواجه المشروع المصيري والإستراتيجيّ الصّينيّ "الطريق والحزام"، إنّما يتمثّل في معارضة الدّول الغربيّة له، وفي مقدِّمتها الولايات المتّحدة الأمريكيّة وأوروبا، فهي تعتبره بمثابة إلغاء لوجودها العسكري والسِّياسيّ والاقتصادي، إلى جانب تغييب لقيمها الثّقافية والاجتماعية، فضلاً عن فرض نمط جديد في العلاقات الدّولية، واعتبار الصّين المركز وباقي دول العالم الأطراف المتأثِّرة بها"**

فالورق كان مادة تستخدم لتوثيق الكتب والمعاهدات بين الدّول آنذاك، كما كان للبارود أثره الكبير في شكل الحروب وانتصار الطرف الذي يمتلكه، هذا إضافة إلى أنَّ البعض، وخاصَّةً العرب، يطلق عليه اسم طريق "التَّوابل"، حيث كانت التَّوابل "بهارات الشَّرق" تجذب شهيَّة التجّار الغربيّين والشَّرق أوسطيّين والأفارقة.

ووفق موسوعة World History للتّاريخ العالميّ، شملت السِّلع التي كان يَتُمُّ نقلها من الغرب إلى الشَّرق على ما يلي: «الخيول، السّروج، العنب، الكلاب والحيوانات، سواءً الغريبة أو المحلّيّة، فُراءُ وجلود الحيوانات، العسل، الفاكهة، الأواني الزّجاجيّة والفخّار، البطانيّات الصوفيّة والبُسط والسجّاد، المنسوجات، الذَّهب والفضَّة، الجِمال، العبيد، الأسلحة والدّروع".

في حين شملت البضائع من الشَّرق إلى الغرب ما يلي: «الحرير، الشّاي، الصباغات، الأحجار الكريمة، الصناعات الصّين (أطباق وأكواب ومزهريّات)، البورسلين، التَّوابل (مثل القرفة والزَّنجبيل)،

المشغولات البرونزيّة والذّهبيّة، المستحضرات الطبيّة، العطور، العاج، الأرزّ، الأوراق، والبارود".

وتطوَّرت التّجارة أكثر عبر الطريق، "ووسَّعت أسرة هان الصّينيّة (٢٠٧ ق.م حتّى ٢٠م) طريق الحرير واتّخذت من مدينتي أوزبكستان الحالية بمدينتيها الشّهيرتين "بخارى وسمرقند" مركزاً لطريق التّجارة العالميّ الأول". حيث "استفادت أوزبكستان وآسيا الوسطى بشكلٍ خاص من كونهما جارتين لعملاقتي آسيا آنذاك: الصّين والهند؛ إذ شكّلت هاتان الدّولتان ٩٠٪ من الاقتصاد العالميّ آنذاك، ولمدّة ١٨٠٠ عام"، بحسب موقع Silk Capital.

كما يؤكد موقع National Geographic؛ أنَّ التّجارة لعبت دوراً بارزاً ومحوريّاً في تطوير حضارات الصّين المتعاقبة، كما تطوَّرت معها اليابان وشبه القارة الهنديّة وبلاد فارس وأوروبا والقرن الإفريقيّ والجزيرة العربيّة، كما نقلت الصّين معها، وكذلك الشُّعوب الأخرى عبر هذه الطريق ثقافاتها المختلفة، إضافة إلى بنائها علاقات سياسيّة واقتصاديّة بين بعضها، ليحدث تلاقح شبه مفتوح بين تلك الثّقافات والأديان والفلسفات والتّقنيّات، وتنقل عبرها العلوم والمعارف، ولا ريب في حديث الرَّسول (ص) عندما حَثَّ على طلب العلم بقوله "اطلب العلم ولو في الصّين".

في جانب آخر؛ يؤكّدُ بعض الباحثين في تاريخ طريق الحرير أنَّه كان سبباً في نقل "وتفشّي الطاعون في آسيا وأوروبا بين أعوام ١٣٤٦ – ١٣٥٣" من خلال نقل المرض من مكان إلى آخر عبر الرّحلات التّجاريّة.

الدّولة العثمانيّة وطريق الحرير:

استمرَّ طريق الحرير بالعمل في التّجارة ونقل العلوم والمعارف عبر مختلف الدّول التي تَمُرُّ بها، وحصل تمازج كبير بين ثقافات شعوب تلك الدّول، ولم يعكر صفوها طيلة قرون عديدة، حيث بدأت التّجارة عبر شبكات طريق الحرير بشكل منتظم بداية من عام ١٣٠ ق.م، وظلَّ العمل مستمرّاً حتّى عام ١٤٥٣ عندما احتلَّ العثمانيّون «القسطنطينيّة» بقيادة «مُحمَّد الفاتح»، قطعوا الطريق ومنعوا مرور البضائع والسِّلع إلى الغرب، إلى أن أغلقوا الطريق بشكل نهائي.

كانت الهيمنة العثمانيّة على الطريق ترمي إلى ابتزاز التُجّار وفرض إتاوات على السِّلع والمنتجات، وشكّلت صدمة لدى الأوروبيّين الذين اعتادوا على البضائع القادمة من الشَّرق، وخاصَّةً الحرير والبارود والورق، ما دفعهم إلى التّفكير والبحث في طرق أخرى للوصول إلى الصّين، خاصَّةً بعد أن قرَّر السلطان العثماني «مُحمَّد الفاتح» فرض هيمنته الكاملة على منطقة البحر الأسود، وإغلاق كُلّ الممرّات البحريّة «مضيق الدَّردنيل» أمام السُّفن التّجاريّة الشَّرقيّة والغربيّة، على حَدٍّ سواء، واشترط العثمانيّون دفع التُجّار الأوروبيّين الضرائب والرُّسوم على بضائعهم مقابل السَّماح لهم بمرورها.

لم تنضمّ الدّولة العثمانيّة - المعتمدة على أسلوب النَّهب والسطو والغزوات - إلى الدّول المشاركة في طريق الحرير وتوسيعه؛ بل سعت دائماً إلى خلق المصاعب وعدم انسيابيّة الحركة التّجاريّة عبره، وتعاملت معها بأسلوب «قطّاع الطرق»، حسبما يذكر بعض المؤرّخين، وهذا ما أدّى إلى ولادة مخاوف لدى جميع الدّول، وخاصَّةً الدّول الأوروبيّة، حيث لجأت إلى البحث عن طرق أخرى (برّيّة كانت أم بحريّة) للوصول إلى الصّين وشبه القارة الهنديّة.

ابتزاز الدَّولة العثمانيّة لقوافل التُجّار عبر «طريق الحرير» استمرَّ عِدَّة عقود، فرضت فيها الضرائب والرُّسوم الباهظة على البضائع والسِّلع القادمة من الشَّرق وإليها، حيث أنَّه مع إغلاق طريق الحرير من قبل الدَّولة العثمانيّة؛ بدأ ما أطلق عليه العلماء «عصور الاستكشاف» الممتدَّة من عام ١٤٥٣ تاريخ احتلال «القسطنطينيّة/ إسطنبول الحاليّة»، وامتدَّ حتّى عام ١٦٦٠، «انطلق الأوروبيّون عبر البحار ورسموا طرقاً مائيّة جديدة لتحُلَّ محلَّ التِّجارة البرّيّة المعتادة» وخاصَّةً عبر

الأراضي التي تحتلُّها الإمبراطوريّة العثمانيّة، وتُوِجَّت تلك المرحلة باستكشاف القارَّة الأمريكيّة عام ١٤٩٢ من قبل «كريستوف كولومبوس». الاكتشافات الجغرافيّة الأوروبيّة تحوَّلت لاحقاً إلى استعمار شديد القسوة، خاصَّةً في أمريكا وإفريقيا، وبدأ عصر الاستعمار الأوروبيّ للعالم أجمع.

إلا أنَّ اكتشاف البرتغاليّ «فاسكو دي جاما» ممرّ «رأس الرَّجاء الصّالح» سنة ١٤٩٧م، الذي يختصر الطريق بين الشَّرق والغرب غيَّرَ معالِمَ «طريق الحرير». هذا الاكتشاف حرَّر التِّجارة بين الصّين والدّول الأوروبيّة ومختلف الدّول من هيمنة الدَّولة العثمانيّة وتحكُّمِها بطريق الحرير، رغم زيادة التَّكاليف التي ترتَّبت على نقل البضائع بين الشَّرق والغرب، إلا أنَّ التِّجارة عادت لتزدهر ثانية، حيث بدأت السُّفن التجّارية تصل بسلاسة إلى القارَّة الإفريقية أيضاً، واعتبر الممرّ البحريُّ المكتشف «رأس الرَّجاء الصالح» جزءاً مكمّلاً من طريق الحرير.

بداية إطلاق مشروع إعادة إحياء طريق الحرير:

طرح الرَّئيس الصّينيّ « شي جين بينغ" في قمَّة "طرق الحرير الجديدة"، في نهاية عام ٢٠١٣ والتي شارك فيها ممثّلون عن /١٥٠/ بلداً، مشروع "الحزام والطريق"، وهو مبادرة صينيّة على أنقاض طريق الحرير القديم، هدفه الرَّئيس ربط الصّين بالعالم، عبر استثمار مليارات الدّولارات في البُنية التَّحتيّة عبر المسارات القديمة لطريق الحرير، إضافة إلى توسعته، بما يمكنها من ربطها بالقارَّة الأوروبيّة وشتّى بقاع العالم. ويُعَدُّ أكبر مشروع بنية تحتيّة في تاريخ البشرية، ويشمل بناء مرافئ وطرقات وسككاً حديدية ومناطق صناعيّة وأسواق تجاريّة.

وفق ما خَطَّطت له الصّين؛ فإنَّ الطريق الجديدة، مشروع صينيّ عملاق تشارك فيه /١٢٣/ دولة، والهدف الرَّئيس منه "تسريع وصول المنتجات

"لم تنضم الدولة العثمانية المعتمدة على أسلوب النهب والسطو والغزوات إلى الدول المشاركة في طريق الحرير وتوسيعه؛ بل سعت دائماً إلى خلق المصاعب وعدم انسيابية الحركة التجارية عبره، وتعاملت معها بأسلوب "قطاع الطرق"، حسبما يذكر بعض المؤرخين، وهذا ما أدى إلى ولادة مخاوف لدى جميع الدول، وخاصة الدول الأوروبية، حيث لجأت إلى البحث عن طرق أخرى للوصول إلى الصين وشبه القارة الهندية"

الصّينيّة إلى الأسواق العالميّة، بما في ذلك آسيا، إفريقيا، أوروبا وأمريكا الجنوبيّة والوسطى".

ليس المشروع الصّينيّ وليد لحظته؛ بل كانت هناك محاولات صينيّة لإحياء طريق الحرير منذ بداية تسعينيّات القرن الماضي، عبر إنشاء ما عُرف بالجسر البرّيّ الأوروبيّ الآسيويّ الذي يصل بين الصّين وكزاخستان ومنغوليا وروسيّا، ويصل إلى ألمانيا عبر سكك حديديّة، وفق بعض المصادر.

تَمَّ إطلاق المشروع بشكل رسميّ في مارس/ آذار ٢٠١٥، تحت اسم "الرّؤية والتحرُّك"، على أن يغطّي /٦٦/ دولة في ثلاث قارات، هي آسيا، أوروبا وإفريقيا، ويهدف إلى بناء الحزام الاقتصاديّ لطريق الحرير، وطريق الحرير البحريّ في القرن الحادي والعشرين، أي أنَّ المشروع يتضمَّن فرعين رئيسيَين: البرّيّ يُسمّى "حزام طريق الحرير الاقتصاديّ"، البحريّ يُسمّى "طريق الحرير البحريّ".

وحسب المخطَّط والخريطة التي وضعتها الصّين؛ فإنَّ طريق الحرير البحريّ "يمتدُّ من السّاحل

”تكثر التحليلات والتفسيرات حول أهداف الصين البعيدة والقريبة من وراء هذا المشروع الذي سيغير نمط العلاقات الدولية، ويفرض نوعاً مميزاً على الاقتصاد والسياسة والفكر والعلاقات المجتمعية. إلا أن النقطة المركزية في التوجُّهات الصينية تتمحور حول الاستفادة الاقتصادية وتصريف ونقل بضائعها وسلعها المصنعة في بلادها إلى جميع أصقاع العالم. فالإنتاج الصناعيّ الصينيّ الفائض يعد أحد أهم الدوافع التي تقف خلف مبادرة (مشروع الطريق والحزام).“

الصّينيّ عبر سنغافورة والهند باتّجاه البحر المتوسّط“.

أما الفرع البرّيّ من المبادرة فيشمل ستّة ممرّات، هي:

١ – الجسر البرّيّ الأوراسي الجديد الذي يمتدُّ من غربيّ الصّين إلى روسيّا الغربيّة.

٢ – ممرّ الصّين – منغوليا – روسيّا الذي يمتدُّ من شمالي الصّين إلى الشّرق الرّوسيّ.

٣ – ممرّ الصّين – آسيا الوسطى – آسيا الغربيّة الذي يمتدُّ من غربيّ الصّين إلى تركيّا.

٤ – ممرّ الصّين – شبه جزيرة الهند الصّينيّة الذي يمتدُّ من جنوبيّ الصّين إلى سنغافورة.

٥ – ممرّ الصّين – باكستان الذي يمتدُّ من جنوب غربيّ الصّين إلى باكستان.

٦ – ممرّ بنغلاديش – الصّين – الهند – ميانمار الذي يمتدُّ من جنوبي الصّين إلى الهند.

تعتمد الصّين سياسة استثمار ثمانين مليار يورو في عِدَّة مشاريع متنوّعة، إضافة إلى تقديم قروض للعديد من الدّول بقيمة تتراوح ما بين ١٧٥ و٢٦٥ مليار يورو.

ووفق بعض المصادر الغربيّة؛ فإنَّ /١٢٦/ دولة و/٢٩/ منظَّمة دوليّة وقّعت اتّفاقات تعاون مع الصّين في إطار المشروع.

كما أقامت الصّين خطوط سكك حديديّة ضخمة تربطها بأوروبا، على أن تصل /٦٢/ مدينة صينيّة بـ/٥١/ مدينة أوروبيّة في /١٥/ دولة. كما من المقرّر أن تربط سكتا حديد أخريين الصّين بـ“لاووس وتايلاند“، إضافة إلى إقامة عدد من خطوط السكك الحديديّة في كينيا وأوغندا وتنزانيا ودول إفريقية أخرى.

وأنشأت الصّين ”نفق مرمرة“ الذي يتضمَّن سكّة حديد وطريق برّيّة تحت ”بحر مرمرة“، يربط الطرف الآسيويّ في إسطنبول بطرفها الأوروبيّ، كما تخطّط لإنشاء خطوط سكك حديد تمرُّ عبر عِدَّة بلدان وتصل إلى إسطنبول، وكذلك طرقاً برّيّة. وقد قدَّرت هيئة اقتصاديّة صينيّة، أنَّ البضائع الصّينيّة التي كانت تستغرق نحو شهرين للوصول إلى إسطنبول مع زيادة في التّكاليف؛ فإنَّها، وفي حال إنشاء تلك الطرق، فإنَّها لن تستغرقَ سوى اسبوعين للوصول إلى قلب أوروبا، وهذا اختصار للزَّمن وللتّكاليف أيضاً.

إلا أنَّ المشاريع الصّينيّة الأضخم شيَّدتها الصّين في باكستان، حيث تعتبر الأخيرة بوّابتها نحو الدّول الآسيويّة والأوروبيّة، فأنشأت مشاريع بنى تحتيّة عملاقة، شملت طرقاً وسككاً حديديّة ومحطّات إنتاج للطّاقة، تمكّنت من خلالها ربط السّاحل الجنوبيّ بمدينة ”كشغار“ الصّينيّة. إضافة إلى أنَّ هذا المشروع الذي يُسمّى ”الممرّ الاقتصاديّ الصّين – باكستان“، يتضمَّن تشييد طرق سريعة وسدوداً كهرمائيّة وتطوير مرفأ ”غوادر“ الباكستانيّ على بحر العرب.

وتهدف باكستان عبر المشروع الصّينيّ إلى تعزيز نموّها القوميّ، فيما ترمي الصّين من ورائه إلى "تأمين طرق أكثر سرعة وأماناً عبر الطريق البحريّ لوارداتها النّفطيّة من الشّرق الأوسط".

وتكثر التّحليلات والتّفسيرات حول أهداف الصّين البعيدة والقريبة من وراء هذا المشروع الذي سيغيّر نمط العلاقات الدّوليّة، ويفرض نوعاً مميّزاً على الاقتصاد والسّياسة والفكر والعلاقات المجتمعيّة. إلّا أنَّ النقطة المركزيّة في التوجُّهات الصّينيّة تتمحور حول الاستفادة الاقتصاديّة وتصريف ونقل بضائعها وسلعها المصنَّعة في بلادها إلى جميع أصقاع العالم. ووفق صحيفة "نيويورك تايمز"؛ فإنَّ "الإنتاج الصّناعيّ الصّينيّ الفائض يُعَدُّ أحد أهمّ الدّوافع التي تقف خلف مبادرة (مشروع الطريق والحزام). فعلى سبيل المثال، تُنتِجُ الصّين نحو /١,١/ مليار طنّ من الفولاذ سنويّاً، ولكنّها لا تستهلك داخليّاً إلا /٨٠٠/ مليون طنّ"، وبالتّالي فهي بحاجة إلى تصريف ما يزيد عبر التّصدير.

ورغم تهليل بعض الأطراف والدّول للمشروع الصّينيّ الجديد، حيث ترى فيه خلاصاً من هيمنة الدّول الغربيّة، وخاصَّةً الهيمنة الأمريكيّة والأوروبيّة، إلّا أنَّ البعض يوجّه سهام الانتقاد له أيضاً، ويرون فيه أنَّه "يعمل على تعزيز مواقع ونفوذ الشركات المتمركزة في الصّين بشكل أساسيّ، وينصّبُ في الوقت ذاته "أفخاخاً من الدّيون" للبلدان التي تستفيد من قروض تمنحها المصارف الصّينيّة، لكنَّ الصّين تؤكّدُ أنَّ المبادرة تشمل مجموعة مشاريع تخدم البيئة وقابلة للاستمرار ماليّاً دون فساد".

تركيَا وموقعها في طريق الحرير:

في مقالة له في موقع «حفريّات»، يقول الكاتب الأردنيّ «خالد بشير»: إنَّ تركيّا استفادت كثيراً من خطوط السكك الحديديّة التي جرى مدُّها عام ٢٠١٧، بدءاً من «باكو/ أذربيجان – تبليسي/ جورجيا – قارص/ شرق تركيّا، وصولاً إلى نفق «مرمرة» الذي يربط بين ضفَّتي إسطنبول الآسيويّة والأوروبيّة.

وتتطلَّع تركيّا لأن يكون لها موقع هام في مشروع طريق الحرير والحزام، ليس البرّيّ فقط، بل البحريّ أيضاً، وتأمل أن تكون أهمَّ شريك بحريّ للصّين في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسِّط، وتتقدَّم اليونان. فهي وضعت ميناء «إزمير» تحت تصرُّف الصّين، ليكون منافساً لميناء «بيرايوس» القريب من العاصمة اليونانيّة «أثينا»، خاصَّةً أنَّ الأول يقع قُبالة الثّاني وعلى مسافة ليست بالبعيدة. وتركيّا تتوخّى من خلالها التحكُّم بحركة الصادرات الصّينيّة إلى أوروبا، لتستخدمها ورقة ابتزاز ضُدَّ الدّول الأوروبيّة، إلا أنَّ الصّين لم تعر اهتماماً كبيراً بالأماني التُّركيّة، بل ركَّزت أكثر في اعتماد ميناء «بيرايوس» في إيصال بضائعها نحو الأسواق الأوروبيّة.

يدرك الأتراك صعوبة منافسة مكانة اليونان كأهمّ شريك تجاريّ بحريّ للصّين في المنطقة، إلا أنَّهم مع ذلك يعتقدون أنَّ تركيّا يمكن أن يكون لها موقع مهمٌّ في «طريق الحرير البحريّ»، وذلك من خلال موانئها المطلّة على كُلّ من البحر المتوسِّط وبحر إيجة وبحر مرمرة، وبحيث يكون دورها متكاملاً مع دور الموانئ اليونانيّة. ويعتقد القادة الأتراك أنَّ «مشروع طريق الحرير الجديد يحقّق مصلحة إستراتيجيّة تركيّة تتمثَّل في تعزيز صلاتها مع دول آسيا الوسطى».

كما تُراهن تركيّا على عدد من موانئها لأخذ مكانتها في طريق الحرير البحريّ، خاصَّةً ميناء «إزمير»، وترى أنَّه بإمكانه استقبال البضائع المُحَمَّلة بالحاويات وتفريغها وشحنها عبر شبكة سكة الحديد المتطوّرة باتّجاه أوروبا، وتزداد هذه القناعة أكثر لدى تركيّا وقاداتها بأنَّه بإمكان ميناء «إزمير» منافسة كُلٍّ من ميناء «بيرايوس» اليوناني و»قناة السّويس" المصريّة، ليغدو المعبر التجّاري الدّوليّ الأهمّ في مشروع "الطريق والحزام".

وتأمل تركيّا أن تُحَقّق استفادة إستراتيجيّة من وراء انضمامها إلى مشروع "الطريق والحزام"

”تفرض الصين هيمنتها العالمية من خلال استخدامها ·القوّة النّاعمة“ ما يجعل كل العوائق أمامها تسقط مع الزمن، هذا إلى جانب اتّباعها سيّاسة متوازنة إزاء العديد من القضايا العالمية. ففي جائحة كورونا، ورغم أنها الدّولة الأولى التي انتشرت فيها الجائحة وتكهنت العديد من الدّول الرأسماليّة الغربية على زعزعة اسّتقرارها ونموّها الاقتصادي؛ إلا أنها خرجت أقوّى مما سبق، عبر استنفار طاقاتها المادّية والبشريّة.“

بتعزيز تواصلها السّياسيّ والاقتصاديّ مع آسيا وإفريقيا، وهي ترمي إلى تحقيق مشروعها العثمانيّ الجديد بالتمدُّدِ في كُلّ الاتّجاهات، والوصول إلى جمهوريّات آسيا الوسطى، والتي تدّعي أنّها تشترك معها في الانتماء إلى ”العرق التُّركيّ“، وتحاول استغلال المشروع في تجاوز القيود والعقوبات التي تفرضها الدّول الأوروبيّة والولايات المتّحدة الأمريكيّة على الصّين، من خلال موقعها الجغرافيّ، بخلاف كُلٍّ من روسيّا وإيران.

غير أنَّ هناك قضايا سياسيّة عديدة تَحُدُّ من الاندفاعة التُّركيّة نحو الانضمام إلى المشروع الصّينيّ، وهي بمثابة شروط صينيّة لا يمكنها التّغاضي عنها، وخاصّةً مسألة ”الإيغور“، والتي ما برحت تركيّا تُهدِّدُ بها الصّين، فهي تَمَسُّ الأمن القوميّ الصّينيّ بالدّرجة الأولى. فلا تزال تركيّا تستخدم ”الإيغور“ كورقة ضُدَّ الصّين، خاصّةً بعدما استقبلت أعداداً كبيرة منهم على أراضيها، وسلّحتهم ودرّبتهم ونظّمتهم، ثُمَّ أقحمتهم لصالحها في الحرب السُّوريّة. وتبدي الصّين مقاربات حذرة من انضمام تركيّا إلى مشروعها، فهي تتطلّع إلى إقدام تركيّا سحب دعمها عن الإيغور أوّلاً، وهو لم يحصل حتّى الآن، وهي قضيّة معلّقة بين البلدين، وتعكّر محاولات التّقارب بينهما.

وحول التّنافس بين تركيّا واليونان على مكانتهما الإستراتيجيّة في مشروع ”الطريق والحزام“، يقول ”آلتاي أتلي“ الأكاديميّ التُّركيّ المختص بالاقتصاد السّياسيّ الدّوليّ والعلاقات الدّوليّة «لا يقتصر طريق الحرير البحريّ على الاقتصاد فحسب، بل يشمل أيضا الجانب الجيوسياسيّ، ولا يمكن لتركيّا أن تهرُبَ من هذا الواقع“.

ويثير ”أتلي“ سؤالين هامَّين حول مكانة تركيّا ومستقبلها في المنطقة والعالم في حال انضمامها بقوَّة إلى المبادرة الصّينيّة، ”الأوّل، حيث أنَّ الصّين تزيد وتيرة تعاونها مع اليونان، بينما ما تزال تركيّا على هامش طريق الحرير البحريّ، فماذا سيكون موقف الصّين في حالة حدوث نزاع بين تركيّا واليونان في بحر إيجة؟. والسّؤال الثّاني، إذا استثمرت الصّين في الموانئ التُّركيّة، وحصلت على مقابل كبير قد يصل إلى المشاركة في السَّيطرة على المرافق، فهل يمكن للصين أن تحوّل هذه الموانئ للاستخدام المزدوج، أي أنَّ تكون للتّجارة والاستخدام العسكريّ؟ وماذا يعني ذلك لعلاقات تركيّا مع الصّين من جهة، وعلاقتها بحلفائها الغربيّين من جهة أخرى؟». وهذه الازدواجيّة التي تعيشها تركيّا ستنعكس دون شَكٍّ على دورها المستقبليّ في المنطقة والعالم، حيث يسري ذلك على علاقاتها وتعاملها مع روسيّا والمشروع الأوراسيّ أيضاً. إلا أنَّ الثابت في توجُّهات وبنية التَّفكير لدى النُّخب السّياسيّة التُّركيّة وخاصَّةً الحاكمة منها، أنَّه لا يمكنها الخروج من تحت العباءة الغربيّة وبالذّات الأمريكيّة، فهناك عوامل اقتصاديّة وسياسيّة وثقافيّة واجتماعيّة، تتجاوز رغبويّة النِّظام السّياسيّ التُّركيّ، وتُقيّد طموحاته في الارتماء بالحضن الصّينيّ.

إيران وطموحاتها حيال المشروع الصّينيّ:

لا شَكَّ أنَّ إيران هي الأخرى تنظر بعين متفائلة إلى المشروع الصّينيّ، وتأمل من وراء انضمامها إليه أن تعزِّزَ من مكانتها الإقليميّة وتحقيق مشروعها القوميّ – المذهبيّ في منطقة الشَّرق الأوسط، من خلال استغلال الحاجة الصّينيّة إلى نفطها وغازها، حيث أنَّها تستورد ما نسبته ٧٠٪ من احتياجاتها النَّفطيّة والغازيّة من إيران، إضافة إلى موقعها الجيوسياسيّ وتحكُّمها بمضيق هرمز وكذلك إطلالتها على الخليج العربيّ/ الفارسيّ.

وفي مقالة للدّكتور «أحمد يوسف» بعنوان «طريق الحرير والشَّرق الأوسط في ظِلِّ التّناقضات العالميّة» نشر في موقع «صور» عام ٢٠١٨، يتحدَّث فيها عن دور إيران في مشروع «طريق الحرير والحزام»، أو ما أطلق عليه اسم "طريق واحد حزام واحد"، ويقول "يُشكِّلُ الموقع الجغرافيّ لكُلٍّ من إيران وتركيّا نقطة ارتكاز أساسيّة في هذه المبادرة، لذلك لم تكن الصّين بحاجة إلى بذل أيَّة جهود لإقناع إيران بها، بل إنَّ إيران ترى فيها حلمها الذي بات قريباً من الواقع بحكم القوَّة الصّينيّة، حيث أنَّها ستحقّق مجموعة من الأهداف في حال انخراطها في مشروع هذه المبادرة، فهي ستكون قادرة على تخفيف الآثار السّلبيّة للعقوبات المفروضة عليها أمريكيّاً، عبر بناء منظومة علاقات متشابكة مع الدّول الآسيويّة، وفي مقدّمتها جمهوريّة الصّين الشَّعبيّة التي تستحوذ على ٢٧٪ من إجمالي صادرات إيران".

ويعتقد الدّكتور "أحمد" أنَّ لإيران مصلحة إستراتيجيّة هامَّة من وراء الصّين، ويضيف "لقد تمَّ ترجمة الموقف الإيرانيّ من مشروع المبادرة، من خلال سعي حكوماتها إلى إقناع الصّينيّين بتوقيع اتّفاقيّة تعاون تجاريّ مشترك، لتحويل إيران إلى مركز ترانزيت للبضائع الصّينيّة، ريثما يَتُمُّ تفعيل طريق الحرير ونجاحها في ذلك. وتمكَّنت إيران من توقيع مجموعة من اتّفاقيّات التّعاون الاقتصاديّ تزيد قيمتها على ٤٠ مليار دولار مع الصّين. وبذلك تكون هذه المبادرة بمثابة الحلم الذي بات قريباً من التحقّق والذي ستبذل إيران كُلّ جهودها لتحقيقه".

ويتجلّى الطموح الإيرانيّ أكثر من خلال منافستها مع تركيّا، فهي تسعى لأن تكون نقطة ارتكاز أساسيّة في المشروع الصّينيّ بدلاً من تركيّا، ترسِّخ عبره تواجدها الاقتصاديّ والعسكريّ والمذهبيّ في عدد من دول منطقة الشَّرق الأوسط، خاصَّةً في العراق، سوريّا، لبنان واليمن، إضافة إلى محاولة الإفلات من العقوبات التي تفرضها عليها الولايات المتّحدة والدّول الأوروبيّة.

دول الشَّرق الأوسط ومشروع «الطريق والحزام»:

بالتّوازي مع محاولات الصّين مَدَّ أذرعها الاقتصاديّة، وفي كُلّ الاتجاهات، فإنَّ إحدى متطلَّبات هذا الدَّور العالميّ يُحَتِّمُ عليها الخروج عن صمتها، وإبداء مواقف سياسيّة حيال العديد من القضايا التي تَعُجُّ بها منطقة الشَّرق الأوسط، ويفرض عليها لعب دور سياسيّ في العديد من الأزمات التي تتعرَّض لها المنطقة، ولم يعد الوقوف بعيداً يفي بضرورات تنفيذ مشروعها الاقتصاديّ الإستراتيجيّ. وعلى ضوء هذه الرّؤية؛ تحرَّكت الصّين في السَّنوات الأخيرة على السّاحة السِّياسيّة والدبلوماسية وحتّى العسكريّة نوعاً ما، من خلال عضويَّتها في الهيئات والمُنظَّمات الدّوليّة، إضافة إلى تقديمها الدَّعم السِّياسيّ والاقتصاديّ والعسكريّ لبعض الدّول مثل سوريّا. ويعتبر أحد الباحثين «أنَّ الغرب سيطر على العالم من خلال الهيمنة السِّياسيّة، ثُمَّ تحكَّمَ باقتصاده، أمّا الصّين فإنَّها تعمل بالطريقة المعكوسة، فهي تُحاول أن تُسيطر على العالم بأدقّ تفاصيله الاقتصاديّة أوَّلاً، لتتحكَّمَ به بعد ذلك سياسيّاً».

تحتَلُّ منطقة الشَّرق الأوسط مكانةً هامَّة ضمن المشروع الصّينيّ «الطريق والحزام»، نظراً لموقعه

الجغرافيّ الذي يُشكّلُ حلقة الوصل بين القارّات الثّلاث، آسيا، أوروبا وإفريقيا، إضافة إلى وجود الممرّات المائيّة الإستراتيجيّة والحيويّة، مثل قناة السويس ومضيق باب المندب ومضيق جبل طارق.

وتُوضّحُ دراسة لـ» المركز الكُرديّ للدّراسات»، أهميّة منطقة الشّرق الأوسط في المشروع الصّينيّ، ويقول «أصبحت منطقة الشّرق الأوسط وشمال أفريقيا ذات أهميّة متزايدة بالنّسبة للصّين خلال العَقدَين الماضيين. يعود هذا الاهتمام في المقام الأوّل إلى حاجة الصّين إلى ضمان أمان إمداداتها بالطّاقة. ولكن مع توسُّع مبادرة الحزام والطريق، زادت الأهميّة الإستراتيجيّة أيضاً للطرق البرّيّة والبحريّة التي تربط شرق آسيا وأوراسيا بأوروبا عبر مناطق مثل الخليج والبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسّط. وهذه الحاجة إلى حماية المصالح الاقتصاديّة قادت إلى توسيع التواجد الصّينيّ في المنطقة، وشملت هذه التوسُّعات المجالات السّياسيّة والثّقافيّة، بالإضافة إلى تواجد محدود في المجال العسكريّ». وتخلُصُ الدّراسة إلى القول بأنّ الشّرق الأوسط يشكّلُ مورداً هامّاً وإستراتيجيّاً للطّاقة على الصّعيد العالميّ، لغناها بالنّفط والغاز، وهذا ما يجعل شهيّة كُلّ القوى تنفتح عليه.

وحول مستقبل التّواجد الأمريكيّ في الشّرق الأوسط، تقول الدّراسة "تشكّل مبادرة الحزام والطريق تحدّياً جدّيّاً لموقف الولايات المتّحدة في الشّرق الأوسط وسياستها الخارجيّة بشكلٍ عام، حيث تعتبر الصّين منافِسة اقتصاديّة وسياسيّة متنامية للولايات المتّحدة في المنطقة، ويمكن أن تؤدّي تلك التّنافسيّة إلى تقويض نفوذ الولايات المتّحدة وتغيير ديناميّات السُّلطة في الشّرق الأوسط. وتمثّل مبادرة "الحزام والطريق" إستراتيجيّةً مُهمّة للصّين لتحقيق تأثير أكبر في النّظام الدّوليّ وزيادة تواجدها الجيوسياسيّ. ويمكن رؤية هذه الإستراتيجيّة كجزءٍ من تحوّلٍ أوسع في التّوازنات العالميّة لصالح الصّين".

استخدام الصّين "القوّة النّاعمة" في فرض هيمنتها العالميّة؛ إنّما تنبع من قوّة اقتصادها بالدّرجة الأولى، وكذلك تَمتَدُّ جذورها إلى الثّقافة الصّينيّة المستمدّة من التّعاليم الكونفوشيوسيّة، وهو ما يجعل كُلّ العوائق أمامها تسقط مع الزّمن، هذا إلى جانب اتّباعها سياسة متوازنة إزاء العديد من القضايا العالميّة. ففي جائحة كورونا، ورغم أنّها الدّولة الأولى التي انتشرت فيها الجائحة وتكهّنت العديد من الدّول الرّأسماليّة الغربيّة على زعزعة استقرارها ونموّها الاقتصاديّ؛ إلا أنّها خرجت أقوى ممّا سبق، عبر استنفار طاقاتها الماديّة والبشريّة. إنّ بناء مشفى ضخم خاص بـ"كورونا" يستطيع استقبال عشرات آلاف المرضى، وخلال فترة قياسيّة، عشرة أيّام فقط، إنّما يعتبر إنجازاً تاريخيّاً للصّين، لا يُجاريه ولا واحدة من الدّول الغربيّة، صاحبة الاقتصادات القويّة، حيث عانت العديد من الدّول من الجائحة وقدّمت لها الصّين المساعدات، مثل إيطاليا التي فتكت بها الجائحة.

بدأ الدّور العسكريّ للصّين يتبلور شيئاً فشيئاً، حيث زجّت بعدد من جنودها في الحرب السّوريّة إلى جانب الحكومة السّوريّة، في محاولة للقضاء على جماعة "الإيغور/ الصّينيّون من أصل تركيّ"، وتمركز جنودها في منطقة "جبل الزّاوية" التي تتخذ منها جماعة "الإيغور" منطلقاً لها في شَنّ الهجمات على قوّات حكومة دمشق. كما زوّدت الصّين قوّات الحكومة السّوريّة بالأسلحة، ولو على نطاق ضيّق. فيما شاركت روسيّا في استخدام حَقّ النّقض (الفيتو) مرّات عديدة في مجلس الأمن الدّوليّ، في عدم تمرير قرارات ضُدّ سوريّا.

إلا أنّ المقاربة الصّينيّة من دول الشّرق الأوسط تتمحور بالدّرجة الأولى حول بناء علاقات اقتصاديّة متطوّرة معها. حتى أنّ أحد المسؤولين الأمريكيّين علّق على تَمَدُّد الصّين في الشّرق الأوسط بالقول "إنّ الولايات المتّحدة تحارب عسكريّاً وتتحمّل تكاليف عمليّاتها؛ والصّين تحصد النتائج عبر إقامة مشاريع اقتصاديّة واستثمارات محلّها".

توجّهت الصّين نحو دول الخليج لإقامة أفضل

العلاقات الاقتصاديّة معها، وبناء مشاريع استثماريّة، وبالتّالي ربطها بمشروعها "الطريق والحزام".

لقد تمكّنت الصّين من توقيع عِدَّة اتّفاقيّات استثماريّة مع السُّعودية، التي تعتبر الشَّريك الأكبر لها في المنطقة، وبموجبها أصبحت السُّعوديّة جزءاً أساسيّاً من المشروع الصّينيّ. كما دخلت مع مصر في شراكات استثماريّة، احتلَّت موقع قدم لها على قناة السّويس الإستراتيجيّ عالميّاً. كما أقامت علاقات اقتصاديّة قويّة مع دول الخليج الأخرى، وخاصَّةً الإمارات العربيّة المتّحدة.

وحسب موقع "ناشيونال إنترست"؛ فإنَّ "موقع السُّعودية الجيوسياسيّ يلعب دوراً في تمكين الصّين من الوصول إلى أوروبا وإفريقيا عبر إيران والإمارات العربيّة المتّحدة ومصر والجزائر".

لم يقتصر التعاون الصّينيّ مع السُّعوديّة على الجانب الاقتصاديّ فقط؛ بل وصل إلى حَدِّ التَّعاون العسكريّ أيضاً، حيث ساعدت السُّعوديّة في برنامجها للصَّواريخ البالستيّة وتصنيع الطائرات المسلَّحة دون طيّار، فيما "سعت الصّين إلى بناء قاعِدَّة عسكريّة في "أبو ظبي"، إلا أنَّ الولايات المتّحدة عطَّلت المشروع".

وتتطلَّع الصّين إلى استثمار ميناء طرابلس في لبنان، عبر تطويره وتحديث بنيته التَّحتيّة، وزيادة قدرته على استقبال البواخر الصّينيّة المُحَمَّلة بالبضائع والسِّلع المصنَّعة في أراضيها، لإعادة توجيهها إلى أوروبا ومعظم دول الشَّرق الأوسط وإفريقيا. فالصّين تحاول إيجاد موطئ قدم لها في لبنان عبر هذا الميناء، وكذلك تكوين بنية مصرفيّة قويّة تابعة لها، عبر تمويل البنك المركزيّ اللُّبنانيّ وبعض المصارف الخاصَّة. ويرى بعض المحلّلين والخبراء الاقتصاديّين اللُّبنانيّين أنَّ التَّعاون مع الصّين ومنحها امتيازات واستثمارات في لبنان، هي الطريق الوحيدة لإنقاذ البلاد من أزمتها الاقتصاديّة والماليّة الضيّقة، حيث أنَّ الدّول الغربيّة، وفي مقدِّمتها فرنسا والولايات

> **"تسود قناعة كبيرة لدى الحكومة السورية ومعظم الخبراء الاقتصاديين، أنّ الصين وحدها قادرة على إعادةً إعمار سوريا بعد انتهاء الحرب، والدول الغربية لن تشارك في إعادة الإعمار إلّى بشروط مجحفة، أولها شروط سياسية، تتضمن انسحاب إيران وروسيا منها، وهو لن يتحقق تحت أيٍّ ظرف كان، على الأقل في المدى المنظور، فيما أبواب سوريا، وبما فيها حلفائها، روسيا وإيران، مشرعةٌ أمام الشركات الصّينية"**

المتّحدة لم تقدم حتّى الآن على أيّ خطوة من شأنها ولو تخفيف الأزمة الاقتصاديّة في لبنان.

كما أنَّ سوريّا التي تعيش حرب أهليّة طاحنة منذ ثلاثة عشرة عامّاً، هي الأخرى بحاجة ماسَّة إلى إعادة إعمار ما خلَّفتها الحرب من خراب ودمار طال جميع البُنى التَّحتيّة والمنشآت الحيويّة الهامَّة، مثل الكهرباء والماء والغاز والمرافق الخدميّة، وكذلك الطرقات والسكك الحديديّة والمطارات والموانئ.

تسود قناعة كبيرة لدى الحكومة السُّوريّة ومعظم الخبراء الاقتصاديّين، أنَّ الصّين وحدها قادرة على إعادة إعمار سوريّا بعد انتهاء الحرب، والدّول الغربيّة لن تشارك في إعادة الإعمار إلى بشروط مجحفة، أوَّلُها شروط سياسيّة، تتضمَّن انسحاب إيران وروسيّا منها، وهو لن يتحقَّق تحت أيٍّ ظرف كان، على الأقلِّ في المدى المنظور، فيما أبواب سوريّا، وبما فيها حلفائها، روسيّا وإيران، مشرعةٌ أمام الشَّركات الصّينيّة. كما أنَّ سوريّا تقع ضمن اهتمامات الصّين الأولى

لإنجاز مشروعها "الطريق والحزام". وتعتبرها دولة أساسيّة في تثبيت مشروعها في الشّرق الأوسط. وزيارة الرّئيس السّوريّ للصّين خلال الفترة الماضية، ورغم أنّها لم تسفر عن نتائج ملموسة؛ إلا أنّها تُعَدُّ تمهيداً أمام الصّين للولوج أكثر في السّوق السّوريّة، والتحضير للبدء في إعادة إعمارها فور انتهاء الحرب فيها.

تُدرِكُ الصّين جيّداً أنّ روسيّا وإيران المنخرطتان في مشروع "الطريق والحزام"، لن تعارضا استئثارها بإعادة إعمار سوريّا، لما لفائدة للدّولتين، حيث شاركت الصّين روسيّا في الدّفاع عن الحكومة السّوريّة في المحافل الدّوليّة، خاصّةً في مجلس الأمن الدّوليّ، ولن تتوانى عن الاستفراد بالسّاحة السّوريّة في مجال إعادة الإعمار، نظراً لامتلاكها القُدُرات الاقتصاديّة الهائلة في تمويل المشاريع الضخمة، وكذلك التكنولوجيا المتطوّرة في البناء والتّواصل والمعدّات الحديثة لتسريع عمليّات البناء وتطوير شبكات طرقاتها البرّيّة والحديديّة وكذلك الموانئ. ورغم أنّ الحكومة السّوريّة وضعت كُلّاً من ميناءي اللّاذقيّة وطرطوس تحت تصرُّف روسيّا وإيران، إلا أنّهما لم تتمكّنا حتّى الآن من إحداث أيّ تغيير أو تحديث فيهما، إضافة إلى عدم تمكّنها الإفلات من العقوبات الاقتصاديّة التي فرضتها الولايات المتّحدة ودول الاتّحاد الأوروبيّ على سوريّا، فيما تتمتّع الصّين بقدرة كبيرة على مواجهة العقوبات الأمريكيّة، وإيجاد ثغرات فيه، ومقايضتها بقضايا أخرى في العالم.

ويَعتقِدُ البعض أنّ الولايات المتّحدة قد حرصت على تقويض أيّ جهود تساهم في إعادة إعمار سوريّا، واشترطت إجراء تغيير سياسيّ في سوريّا، وتنفيذ بنود القرار الدّوليّ /٢٢٥٤/، والبدء بالمرحلة الانتقاليّة، وهدّدت بعض الدّول بعقوباتها إن تجرّأت على المشاركة في إعادة الإعمار، ومنها الدّول الخليجيّة التي أعادت تطبيع علاقاتها مع الحكومة السّوريّة، إلا أنّ الصّين ومن خلال تداخل علاقاتها الاقتصاديّة والسّياسيّة مع الدّول الخليجيّة، قادرة على دفعها للإفلات من التّهديدات والعقوبات الأمريكيّة، ومشاركتها في إعادة إعمار سوريّا، ولن تتمكّن الولايات المتّحدة صَدَّها عن ذلك.

إنّ الصّين، ومن خلال اعتمادها أسلوب استخدام «القوّة الناعمة»؛ وعدم تورّطها في النّزاعات والصّراعات السّياسيّة والدّينيّة والعرقيّة الدّائرة في الشّرق الأوسط، استطاعت أن تضعَ ركائزَ اقتصاديّة كبيرة لها في عدد كبير من دول الشّرق الأوسط، وتنافس فيها الدّول الغربيّة، حيث أنّ الكلفة المنخفضة لإقامة مشاريع البُنية التّحتيّة في تلك الدّول، وانسيابيّة استثماراتها وسلاسة التّعامل مع الهيئات والبنى الاقتصاديّة والماليّة؛ جعل منها قوّة مفضّلة لدى تلك الدّول، فهي لا تضع شروطاً قاسية وتكبّل قُدُرات البلاد، بل تترك لها حُرّيّة الحركة، وتنأى بنفسها عن التدخُّل في شؤونها الدّاخليّة على غرار الدّول الغربيّة، وخاصّةً الولايات المتّحدة.

ويرى الخبير الاقتصاديّ الدّكتور "مُحمّد سليم وهبة"، (أستاذ محاضر في الجامعة اللّبنانيّة)، أنّ الصّين تسعى إلى بناء جسور التّواصل مع دول الشّرق الأوسط ودعمها لبناء اقتصادات قويّة، تحرّرُها من الهيمنة الغربيّة، ويقول "الصّين تُريد أن تقول للعالم من خلال إعادة إحياء طريق الحرير، إنّ أثمان العزلة أكبر بألف مَرّةٍ من متاعب التكيّف، وأنّها تريد أن تتبادل مع العالم أجمع المصالح والخُبرات، أي التّعليم وفرص العمل وتحرير الطاقات والانخراط في صناعة العالم الجديد". وينظر إلى زيارة الرّئيس الصّينيّ "شي جين بينغ" في عام ٢٠١٦ لكُلٍّ من السّعوديّة وإيران ومصر، محاولة لضمّها إلى مشروعها "الطريق والحزام"، كما يشير إلى دور الصّين السّياسيّ إلى جانب الاقتصاديّ في أزمات المنطقة، وهو ما أكّدَ عليه الرّئيس الصّينيّ خلال خطابه في مقرّ الجامعة العربية، عندما قال "إنّ التبادلات بين الصّين ومنطقة الشّرق الأوسط تجاوزت حواجز المكان والزّمان، ولاستمراريّة هذه العلاقات الوطيدة بين الجانبين؛ تُشارك الصّين بشكل أكثر إيجابيّة في شؤون منطقة الشّرق الأوسط، وهي تأمل في أن يؤدّي ذلك إلى جعل أصدقائها القدامى أكثر قُرباً منها، وإلى تعزيز الثّقة مع أصدقائها الجُدَد".

ونظراً للبعد الإستراتيجيّ طويل الأمد، واعتماداً على المشاريع الضخمة في البُنية التّحتيّة، وكذلك التطوّر التّقنيّ الصّينيّ في مجال الاتّصالات والإنتاج الرّقميّ؛ والقُدُرات الماليّة الهائلة لديها؛ حيث تشير بعض التّقديرات إلى امتلاك الصّين رصيداً مالياً يقدر بـ/١٦٠٠/ مليار دولار أمريكيّ من احتياطيّ العُمُلات الأجنبيّة، وإنتاجها الصّناعيّ يشكّلُ ثُلث التّصنيع على مستوى العالم، وهي أكبر مصدّر للسّلع في العالم، فإنَّ عدداً من دول منطقة الشّرق الأوسط تتطلّع إلى بناء اقتصاداتها وفق أسس تنمويّة جديدة، كما ترى في المشروع الصّينيّ فرصة للتحرّر من الهيمنة الغربيّة وخاصّةً الأمريكيّة.

هذه الإمكانات الاقتصاديّة الهائلة للصّين؛ تؤهّلها لأن تكون المحور المقبل المسيطر سياسيّاً على مقدّرات العالم أيضاً. ونظراً لعوامل القوّة هذه التي تمتلكها الصّين، وسيطرتها على محاور الطرق الرّئيسيّة المؤدّية إلى المنطقة الأوراسيّة وخاصّةً روسيّا والمحيط الهنديّ، وصولاً إلى البحر الأبيض المتوسّط، وتفرّعات هذه الطرق البرّيّة والبحريّة التي غدت مثل شبكة العنكبوت؛ يغدو معها تقطيع أواصرها من الصعوبة بمكان، إن لم يكن مستحيلاً، "ليتحوَّل شكل الصراعات وقواعدها ويُوائم التغيّرات على صعيد تنازع السُّلطات في نظامٍ عالميٍّ جديد، مع ما يوافق النظريّات التّجريبيّة الجديدة في نجاحها وفشلها، ولتدفع دائماً الدّول الضعيفة كما كان الواقع فاتورة التغيير". وهذا الواقع سينعكس دون شَكٍّ على دول الشّرق الأوسط، ومن المتوقّع أن تزداد أهميّتها في خارطة الصراعات الدّوليّة. ويذهب بعض الخبراء السّياسيّين والاقتصاديّين إلى حَدِّ الاعتقاد أنَّ ما تشهده منطقة الشّرق الأوسط من حروب وصراعات إنّما هي في جوهرها صراع على مصادر الطّاقة (النّفط والغاز)، وكيفيّة مَدِّ خطوط نقلها وإيصالها إلى الدّول الغربيّة.

ويشير الدّكتور وهبة إلى أنَّ "ثلثي أكبر الموانئ في العالم تحظى بتمويل صينيّ، وأنَّ الصراع حول مشروع الصّين بإحداث طريق الحرير بصورة جديدة، يتطابق مع مفهوم العولمة الذي رسمته الرّأسماليّة". لكنّه يشدّدُ على أنَّ الصّين لا يمكنها التخلّي عن النّمط الذي وضعته "مُنظّمة التّجارة الدّوليّة". ويوضّحُ أكثر بأنَّ مشروع الطريق والحزام "يُضيف اعتبارات التّعاون الاقتصاديّ والتّجاريّ والثّقافيّ والسّياحيّ والاتّصال والتّواصل الإقليميّ والدّوليّ والماليّ، وهذه المكوّنات هي الأساس للسّيطرة على العالم. ومن الطبيعيّ أن تُصبِحَ هذه الطريق المحاولة النّمطيّة لبسط النّفوذ الاقتصاديّ الصّينيّ عبر تطوير التّجارة لتعزيز السّيطرة السّياسيّة".

نحو عالم جديد تقودُه الصّين:

يرى العديد من الخبراء الإستراتيجيّين أنَّ الصّين، ومن خلال انطلاقتها الاقتصاديّة القويّة، والمشروع العالميّ الذي تسير فيه، أصبحت القوّة العظمى والندّيّة مع الولايات المتّحدة، ومن هنا تأتي أهميّة المشروع الصّينيّ. ويعتقد هؤلاء أنَّه كلما سارت الصّين قُدُماً في مشروعها، كلما تغيّرت القواعد التي تُنظّم النّظام الاقتصاديّ العالميّ في الوقت الرّاهن، بحيث تمكّن الصّين من صياغة مفهومها الخاص للعلاقات الدّوليّة، لتتحوَّلَ هي إلى مركز ونقطة جذب واستقطاب مؤثّرٍ، وباقي الدّول أطرافاً متأثّرَةً بها.

«يعتبر بعض المحلّلين الغربيّين أنَّ مشروع «الحزام والطريق» شبيه بخطة مارشال الأمريكيّة (المشروع الأمريكيّ الاقتصاديّ لدعم أوروبا بعد الحرب العالميّة الثّانية، أو ما يُعرف بقُبلة الحياة لأوروبا)، ومع ذلك فهي تختلف اختلافاً جوهريّاً عنه»، من حيث كون المشروع يعتمد على القروض، وليس على المساعدات أو الاستثمار الأجنبيّ، وفق هؤلاء المحلّلين. إلا أنَّ المشروعين يشتركان في نقطة واحدة، وهي تحقيق الأهداف الجيوستراتيجيّة بالهيمنة الاقتصاديّة والسّياسيّة وحتّى العسكريّة للدّولتين على العالم في النّهاية؛ فمثلما كانت الولايات المتّحدة هي الرّائدة في القرن العشرين؛ فإنَّه من المتوقّع – وهذا ما تؤكّدُ عليه كُلُّ المؤشّرات – أن تصبح الصّين الرّائدة في القرن الواحد والعشرين.

"تشير بعض التقديرات إلى امتلاك الصين رصيداً مالياً يقدر بـ/١٦٠٠/ مليار دولار أمريكيّ من احتياطيّ العملات الأجنبية، وإنتاجها الصناعيّ يشكل ثلث التصنيع على مستوى العالم، وهي أكبر مصدر للسلع في العالم، فإن عدداً من دول منطقة الشرق الأوسط تتطلع إلى بناء اقتصاداتها وفق أسس تنموية جديدة، كما ترى في المشروع الصينيّ فرصة للتحرر من الهيمنة الغربية وخاصةً الأمريكية"

المؤكّد أنَّ الصّين، ومن خلال مبادرة «الطريق والحزام»، إنّما ترسم خريطة جديدة للنّظام الاقتصاديّ والسّياسيّ العالميّ، ومن المتوقّع وفق كُلِّ المعطيات أن تلعبَ الصّين أدواراً سياسيّة وعسكريّة ملحوظة في الشؤون الدّوليّة خلال الفترة القادمة، ليتواءم هذا الدّور مع تطلُّعاتها الاقتصاديّة، وبالتّالي تصبح قوّة هيمنة عالميّة.

لا أحد يشُكُّ بقدرة الصّين للتحوُّل إلى قوّة عظمى، وتحديد مصير العديد من القضايا العالميّة الشّائكة، حيث تعوّل بعض الدّول المتخمة بالأزمات الاقتصاديّة والسّياسيّة والمجتمعية على صعود الدّور الصّينيّ، حتّى أنّها تربط مصيرَها بها، وتأمل أن تتحرَّر من أزماتها من خلال ربط نفسها بالمشروع الصّينيّ، والانخراط فيه بكُلِّ إمكانيّاتها وقُدُراتها، وتفتح أبوابها لها على مصراعيها، مثل سوريّا المنهكة في الحرب الأهليّة، وكذلك لبنان ومصر ودول أخرى إفريقيّة.

فالصّين التي عوّدت العالم على استخدام قوّتها النّاعمة في التّعامل مع الصراعات الدّوليّة، من المتوقّع أن تسيرَ في ذات النّهج الذي اتّخذته القيادة الشّيوعيّة الصّينيّة، رغم أنّها تفاضل بين مصالحها الاقتصاديّة وقضايا الشُّعوب، حيث يصفها المفكّر والفيلسوف "عبد الله أوجلان" بأنَّ "الصّين دولة اشتراكيّة، ولكنَّها تزاوجت مع الرَّأسماليّة". ويجب ألا يغيب عن الأذهان أنَّ الصّين تنتهج أسلوباً رأسماليّاً صرفاً في علاقاتها الخارجيّة، في حين عزّزت في الدّاخل رأسماليَّةَ الدَّولة، وبطرق ملتوية، تمكّنت من خلالها الحفاظ على مركزيّتها المتشدِّدة، وتطلق الحُرّيّات الاقتصاديّة والخصخصة وتشجيع المستثمرين في الدّاخل والخارج.

والخطر الذي يكتنف المشروع الصّينيّ يتمثَّل بالدَّرجة الأولى في أنَّ معظم رؤوس الأموال المستثمرَة في الصّين هي أجنبيّة، حيث يشير المفكّر "أوجلان" في مجلَّده الخامس من مرافعته لمحكمة حقوق الإنسان الأوروبيّة بأنَّ كتلة ماليّة تُقدَّر بـ/٦٠٠/ ترليون دولار من رأسمال عائلة "روتشيلد" اليهوديّة قد تحوَّلت خلال سبعينات القرن الماضي إلى الصّين وخاصَّةً إلى "هونغ كونغ". في حين أشارت بعض المراكز البحثيّة الأمريكيّة الإستراتيجيّة المتخصّصة في العلاقات الاقتصاديّة بعدها، أنَّه حان الوقت ليدقَّ جرس الإنذار ويعود هذا الرَّأسمال الضخم، في حركة عكسيّة، إلى موطنه الأصلي، أي إلى الولايات المتّحدة، خصوصاً بعد عودة "هونغ كونغ" إلى السِّيادة الصّينيّة في الأوَّل من يوليو/ تمّوز ١٩٩٧، لينتهي بذلك رسميّاً الاستعمار البريطانيّ عليها والذي دام لـ/١٥٦/ عامّاً.

الأوراسيّة وطريق الحرير:

بعد انهيار الاتّحاد السّوفيّيتي نهاية عام ١٩٩١؛ وتفكّك دوله، انفردت الولايات المتّحدة الأمريكيّة بقيادة العالم، حتّى الاتّحاد الأوروبيّ الذي حقَّقَ انطلاقة قويّة في بداية تسعينات القرن الماضي، من خلال توحيد عملته بـ»اليورو» وإزالة الكثير من العقبات التي كانت تعترض سبيل وحدته الاقتصاديّة وحتّى العسكريّة، بدا ضعيفاً أمام الولايات المتّحدة، ولم يتمكّن أن يجاريها في فرض

هيمنته العالميّة.

ولكن كما علَّمتنا دروس التّاريخ: فإنَّ العالم لم يشهد قطباً أحاديّاً، بل على الدوام كانت هناك أقطاب متعدِّدة، ومنذ عهد الإمبراطوريّات وحتى في ظِلِّ الدّول الإقطاعيّة والقوميّة أيضاً.

ما كان صحيحاً بالأمس، صحيح اليوم أيضاً، لجهة المحاولات التي تسعى إليها عدد من الدّول إلى تشكيل أقطاب وقيادة العالم. فبعد تفكّك الاتّحاد السّوفيّيتي والمرحلة «اليلتسينيّة» التي وُصِفَت بأنَّها أضعف وأسوأ المراحل التي مَرَّت بها روسيّا، جاء الرَّئيس الحالي «فلاديمير بوتين»، على رأس مشروع طموح، يُعيدُ لروسيّا مكانتها العالميّة، عبر «المشروع الأوراسيّ» الذي طرحه فيلسوفها «الإكسندر دوغين».

ويَعتقِدُ بعض الخبراء والمتابعين للشَّأن الرّوسيّ، أنَّ روسيّا خطت بعض الخطوات الهامَّة لتنفيذ مشروعها، وتمكَّنت من إعادة الاعتبار لمكانتها الدّوليّة، بعد أن افتقدتها إثر انهيار الاتّحاد السّوفيّيتي، أو أنَّها تسعى إلى إعادة إحياء شكل الاتّحاد السُّوفيّيتي، ولكن بأسلوب رأسماليّ بحت وجديد.

المنافسة الرّوسيّة للغرب، وخاصَّةً للولايات المتّحدة، تفجَّرت من خلال الحرب الرّوسيّة في أوكرانيا. إلا أنَّ ما يثير مخاوف وقلق الدّول الغربيّة أكثر هو انضمام روسيّا إلى المشروع الصّينيّ «الطريق والحزام»، وهو ما بدأت ملامحه تظهر من خلال المشاريع الاقتصاديّة المشتركة بين الدّولتين، رغم المقاربة الحذرة للصّين من الوقوف مع روسيّا في حربها بأوكرانيا، على عكس ما كانت ترغب وتتمنّاه روسيّا.

الصّين تعتبر روسيّا إلى جانب باكستان ركناً أساسيّاً في مشروعها. والاقتصاد الصّينيّ إذ ما تلاحم مع الصِّناعة العسكريّة الرّوسيّة المتطوِّرة؛ فإنَّها تُشكِّلُ تحدّيّاً جدّيّاً ووجوديّاً للدُّول الغربيّة، على الأقلّ هذا ما تعتقد به كبرى دوائر القرار السِّياسيّ والعسكريّ الإستراتيجيّة في الغرب. وفي حال الوصول إلى توافقات إستراتيجيّة بين الصّين وروسيّا في إطار هذه الرّؤية؛ فإنَّهما، ودون منازع، ستنافسان الولايات المتّحدة على قيادة العالَم، والتحوُّل إلى قطب يُهدِّد مصالحها في العالم أجمع، ومن هنا تأتي الخشية الأمريكيّة من المشروع الصّينيّ.

إنَّ المشروع الأوراسيّ يواجه صعوبات كبيرة في تحويله إلى واقع على الأرض، لجهة ضعف الإمكانات الاقتصاديّة لروسيّا، فيما الصلف والرُّعونة الرّوسيّة في التَّعامل مع قضايا الشُّعوب والدّول، يجعلها دولة غير مرغوب بها، وهو ما يدفعها إلى الاندماج مع المشروع الصّينيّ، حيث شارك الرَّئيس الرّوسيّ بوتين ورئيس وزراء باكستان عمران خان إلى جانب /٣٥/ رئيساً في القمَّة التي دعت لها الصّين لافتتاح مشروع «الطريق والحزام».

تتطلَّع روسيّا من خلال مشاركتها في المشروع إلى لعب دور عسكريّ أوسع من الاقتصاديّ، فهي بحاجة إلى تعزيز نفوذها العسكريّ في مختلف المناطق الحيويّة بالعالم، كما أنَّها تُعَدُّ الضّامنة لحماية الطرق البرّيّة والممرّات البحريّة وتجاوز تحكُّم الدّول الغربيّة بها، اعتماداً على قوَّتها وترسانتها العسكريّة الضخمة. والصّين أيضاً تنظر إلى مشاركة روسيّا من زاوية الإمكانات الاقتصاديّة الهائلة لدى روسيّا كالغاز والنَّفط والحديد، إضافة إلى إمكانيّة استخدامها لموانئها البحريّة الهامَّة، كنقطة انطلاق لها نحو العمق الأوروبيّ. فحسب الخبراء الاقتصاديّين؛ فإنَّ «ربط منطقة أوراسيا سيسمح بربط سوق يغطّي نحو ٦٥ ٪ من السُكّان في العالم و٧٥ ٪ من موارد الطّاقة و٤٠ ٪ من النّاتج القوميّ المحلّيّ في العالم». وبناء على هذه الإحصائيّات، رُبَّما إذا ما أُنجز هذا المشروع؛ فإنَّ الصّين وروسيّا ستتحوَّلان إلى قوَّة لا يمكن منافستهما عالميّاً، وخاصَّةً على الصَّعيد الاقتصاديّ.

فروسيّا تأمل إلى «تبادل المعرفة والعلوم المختلفة والقطّاعات النّاشئة، مثل تكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا الحيويّة وتكنولوجيا الطّاقة الجديدة وغيرها» مع الصّين، وأيضاً إلى

«تعزيز الشّراكة الاستثماريّة لتعزيز التّعاون في القطّاعات الماليّة المختلفة»، خاصّةً بعد العقوبات الاقتصاديّة المتعدّدة التي فرضتها عليها الولايات المتّحدة وأوروبا عليها بعد حربها على أوكرانيا.

ونشرت وكالة الأنباء الرّوسيّة «RT" في عام ٢٠٢١، بأنَّ "بنك التّنمية الأوراسيّ» أعرب عن استعداده لتمويل مشروع طريق «المريديان السّريع" المعروف باسم "طريق الحرير الرّوسيّ»، والذي يُعَدُّ جزءاً من مشروع لبناء طريق نقل دوليّ بين أوروبا وغرب الصّين. وأوضحت الوكالة أنَّ "المريديان السّريع" هو "طريق نقل سريع يَمتَدُّ لمسافة حوالي ٢٠٠٠ كيلومتر من حدود كازاخستان عبر الأراضي الرّوسيّة إلى بيلاروسيا، وهو جزء من مشروع لبناء طريق نقل دوليّ بين أوروبا وغرب الصّين، والمقطع الرّوسيّ يُسمّى المريديان".

والرّئيس الرّوسيّ بوتين يركّزُ على الشّراكة الأوروآسيويّة، ويعتبر أنَّ مشروع "الطريق والحزام" الصّينيّ «سيحقّقُ الازدهار والاستقرار في المنطقة الأوروآسيويّة".

وحسب بوتين؛ فإنَّ "توحيد إمكانيّات ومقوّمات التّكامل مثل: الاتّحاد الاقتصاديّ الأوروآسيويّ، وحزام واحد طريق واحد، ومُنظّمة شنغهاي للتّعاون، ورابطة الآسيان، يمكن وضع الأسس الرّئيسة لشراكة أوروآسيويّة كبرى". هذه التكتّلات الاقتصاديّة الكبرى، تزاحم "صندوق النّقد الدّوليّ" و"البنك الدّوليّ" وجميع المُنظّمات والهيئات الماليّة والاقتصاديّة التي تهيمن عليها الولايات المتّحدة والاتّحاد الأوروبيّ وتتحكّم باقتصادات وسياسات معظم دول العالم. ويرى بوتين أنَّ "أوراسيا الكبرى" ليست توافقاً جيوسياسيّاً مجرّداً فحسب؛ بل هي مشروع حضاريّ فعليّ يتطلّع إلى المستقبل، ويتكامل مع المشروع الصّينيّ.

وخلال الحرب الرّوسيّة في أوكرانيا؛ ورغم الاندفاعة الصّينيّة القويّة نحو إقامة علاقات إستراتيجيّة طويلة المدى مع روسيّا والاعتماد عليها في تنفيذ مشروعها؛ إلا أنّها أبدت مقاربة حذرة من الوقوف مع روسيّا بمواجهة الدّول الغربيّة في الحرب، وعلى رأسها الولايات المتّحدة، فخيّبت الآمال الرّوسيّة في تلقّيها دعماً اقتصاديّاً يمكّنها من مواجهة العقوبات التي فُرِضَت عليها من قبل الدّول الغربيّة، ويكاد يكون التّعاون الرّوسيّ – الصّينيّ يأخذ الطابع البروتوكوليّ أكثر منه خطوات عمليّة على الأرض. فالبراغماتيّة الصّينيّة تَحُدُّها من الانخراط في المشاريع الرّوسيّة التي تأخذ التّصعيد العسكريّ أساساً لها في ميادين عديدة، وهو أسلوب غير محبّذ لدى بكّين، التي تميل إلى ممارسة سياسة مرنة تمسك العصا من المنتصف، ولا تذهب بعيداً نحو التوتّر والمواجهة؛ بل هي تعتمد على قوّة نفوذها الاقتصاديّ لإيجاد مرتكزات لها في مختلف مناطق العالم. والتّناقض بين روسيّا والصّين في هذا التوجُّه، تستغلُّه الدّول الغربيّة التي تعمل جاهدة على إحداث الشّروخ بين الدّولتين. فالغرب يُدرِكُ أنَّ تكامل القوّة العسكريّة الرّوسيّة مع القوّة الاقتصاديّة للصّين؛ يجعل منهما القوّة الأبرز عالميّاً، ما يُهدِّدُ مكانتها وهيمنتها على العالم. وقد حذَّرَ الخبير الإستراتيجيّ الأمريكيّ، ووزير خارجيّتها السّابق "هنري كيسنجر" في عام ٢٠١٨، وخلال مقابلة مع صحيفة فرنسيّة، من مغبّةِ توحُّدِ قوّة روسيّا العسكريّة مع قوّة الصّين الاقتصاديّة، ودعا إلى العمل على إبعاد روسيّا عن الصّين، والتّحالف مع روسيّا في مواجهة الصّين، واعتبرها الطريقة الأنجع لكبح جماح التَمدُّدِ الصّينيّ والسّيطرة عليه.

المعارضة الغربيّة لمشروع «الطريق والحزام»:

يزداد قلق الدّول الغربيّة إزاء المشروع الصّينيّ، خاصّةً مع تنامي النُّفوذ الاقتصاديّ الصّينيّ في مختلف دول العالم. ولا شَكَّ أنّها – أي الدّول الغربيّة – ترى في المشروع الصّينيّ «الطريق والحزام» تهديداً كبيراً لمصالحها الحيويّة والإستراتيجيّة في العالم، وهو تهديد يتأتّى من المخاوف الجيوسياسيّة الدّوليّة، خاصّةً لدى الولايات المتّحدة الأمريكيّة، التي تجد من المبادرة محاولة

صينيّة للسَّيطرة الاقتصاديّة والسِّياسيّة، ومن ثَمَّ العسكريّة على العالم.

فإن كانت بعض الدّول الغربيّة قد دعمت المبادرة الصّينيّة في بداية إطلاقها، مثل إيطاليا، بريطانيا واليونان؛ فإنَّها سرعان ما تراجعت بعض منها عن قرارها، رغم إدراكها بحاجتها إلى الدَّعم الصّينيّ في تسوية الأزمات الاقتصاديّة التي تعصف ببلدانها، خاصَّةً إيطاليا واليونان، ويبدو أنَّ هذا التَّراجع والانزياح جاء بفعل ضغوط مارستها كُلٌّ من الولايات المتّحدة وألمانيا وفرنسا، صاحبة الاقتصادات الأقوى عالميّاً.

فالمعارضة الغربيّة للمشروع الصّينيّ تنبع من قناعة الدّول الغربيّة أنَّ الصّين لديها القدرة على تحويل مشروعها إلى واقع، مقابل عجز غربيّ عن صدها ومواجهتها بالطرق والوسائل الاقتصاديّة. فرغم أنَّ الولايات المتّحدة فرضت عقوبات متنوِّعة على الصّين؛ إلا أنَّها لم تثنِها عن المُضيّ قُدُماً في تنفيذ مشروعها. ويرى العديد من الخبراء أنَّ الولايات المتّحدة، ورغم محاولاتها المستميتة في إيقاف تنفيذ المشروع، إلا أنَّها بقيت دون جدوى، «لسبب رئيسيّ، هو أنَّ معظم دول العالم لم تقتنع بطروحات أمريكا وتبريراتها من أنَّ هذا الطريق سيعزّز من الهيمنة الاقتصاديّة للصّين على أسواق الدّول التي يَمُرُّ بها، ويجعل من اقتصادها رهينة بيد الحكومة الصّينيّة ونظامها الشّيوعيّ، الذي تصفه أمريكا بالنِّظام المستبدّ والدّيكتاتوريّ والمُنتهِك لحقوق الإنسان وغيرها من الادّعاءات التَّحريضية ضُدَّ الصّين وتجربتها في الاشتراكيّة ذات الخصائص الصّينيّة».

ولجأت الولايات المتّحدة إلى دعم تايوان عسكريّاً واقتصاديّاً ضُدَّ الصّين، في مسعى لإضعاف الأخيرة، وهو ما أثار غضب الصّين، التي لا تزال تعتبر تايوان جزءاً من أراضيها. كذلك نشرت الولايات المتّحدة أساطيلها البحريّة في المحيطين الهادي والهندي لقطعها وتتحكَّم من خلالها بالطرق والممرّات المائيّة، بهدف عرقلة تدفُّق ووصول البضائع والسِّلع الصّينيّة إلى أوروبا وإفريقيا والشَّرق الأوسط.

”لجأت الولايات المتّحدة إلى دعم تايوان عسكريّاً واقتصاديّاً ضُدَّ الصّين، في مسعى لإضعاف الأخيرة، وهو ما أثار غضب الصّين، التي لا تزال تعتبر تايوان جزءاً من أراضيها. كذلك نشرت الولايات المتّحدة أساطيلها البحريّة في المحيطين الهادي والهندي لقطعها وتتحكّم من خلالها بالطرق والممرّات المائيّة، بهدف عرقلة تدفّق ووصول البضائع والسِّلع الصّينيّة إلى أوروبا وإفريقيا والشّرق الأوسط“

ونظراً لأنَّ الولايات المتّحدة تُهيمنُ بشكل كبير على النَّقل البحريّ بين دول العالم المختلفة، وتمتلك أكبر وأقوى الأساطيل البحريّة في العالم، ولها قدرة التحكّم بالممرّات المائيّة حسب المتطلَّبات الإستراتيجيّة الأمريكيّة، إضافة إلى فرضها العقوبات الاقتصاديّة على بعض الدّول ، من خلال فرض حصار بحريّ عليها، والتحكُّم بنقل السّلع والسَّيطرة على حركة ناقلات النَّفط في عُرضِ البحار والمحيطات؛ فإنَّ أهميّة الاعتماد على الطرق البرّيّة ستزداد باضطراد مع توسُّع المشروع الصّينيّ وسيكون لها الأولويّة، فيما الطرق البحريّة ستغدو مع مرور الزَّمن ثانويّة، رغم المحاولات الصّينيّة لكسر العقوبات والحصار الذي تفرضه الولايات المتّحدة عليها وعلى عدد من الدّول المشاركة في المشروع. فهناك اتّجاه لدى القيادة الصّينيّة لتقليل الاعتماد على النَّقل البحريّ للتّجارة بين الدّول، وهذا بدوره سيؤدّي إلى فقدان أمريكا للميّزة الإستراتيجيّة منذ بدايات القرن الماضي من خلال السَّيطرة على البحار والمحيطات، أي أنَّ الصراع بين قوى البرِّ والبحرِ،

ووفق نظريّة «ماهان»، الذي أكّدَ انتصار قوى البحرّ على البرّ، يبدو أنَّ التطوّرات تسير لصالح قوى البرّ، حيث يفقد التفوّق الأمريكيّ في هذا المجال أهميّته وفق النظريّة الصّينيّة.

كذلك آليّة العقوبات الأمريكيّة ستغدو غير مجدية، مع تطوّر شبكة الطرق البرّيّة بما فيها السكك الحديديّة بين الدّول. وجميع الدّول إن تعرَّضت لعقوبات أمريكيّة؛ ستكون قادرة على تلبية متطلّبات نقل البضائع بين بعضها، دون الاكتراث للعقوبات الأمريكيّة. كما أنَّ التطوّر التكنولوجيّ وتبادل الخُبرات بين تلك الدّول والصّين؛ سيمنح الأخيرة دوراً مؤثّراً في السّياسة الدّوليّة وفي الملفّات السّاخنة في العالم، وخاصَّةً في الشَّرق الأوسط . فالسّياسة الدِّبلوماسيّة الصّينيّة سجَّلت حضوراً لافتاً في الآونة الأخيرة، خاصَّةً في ملفِّ المصالحة بين السُّعودية وإيران، وتمكَّنت الصّين من جمع الدَّولتين والبدء بترتيب عودة العلاقات الدِّبلوماسيّة بينهما، وهذا الحدث سيُلقي بظلاله على مجمل التطوّرات في الشَّرق الأوسط. ففيما فشلت الولايات المتّحدة الأمريكيّة في تطبيع العلاقات بين السُّعوديّة وإسرائيل؛ فإنَّ الصّين نجحت في عقد مصالحة بين السُّعوديّة وإيران، رغم الصراع المذهبيّ الكبير والخلافات التّاريخيّة بينهما. الدَّور الصّينيّ هذا إنمّا جاء بفضل قوَّة النُّفوذ الاقتصاديّ الذي تتمتّع بها الصّين.

وتسعى الولايات المتّحدة إلى عرقلة المشروع الصّينيّ بكُلِّ الوسائل الممكنة، وتستخدم قوَّتها العسكريّة والاقتصاديّة والسِّياسيّة لإجهاض كُلِّ الجهود الصّينيّة في إتمام المشروع. وقد اقترح كُلٌّ من «إيثان كابشتاين وجاكوب شابيرو» خطَّةً أطلقوا عليها اسم «إستراتيجيّة الجودو» اليابانيّة، وتمَّ نشرها في دوريّة «فورين بوليسي». **وهي تتضمَّن ثلاث أسس رئيسية:**

١ – **الحركة**: الاستفادة من الحجم الأصغر للعمل بسرعة وتحييد مزايا المنافس الأكبر حجماً.

٢ –**التَّوازن**: استيعاب ومكافحة تحرُّكات المنافسين.

٣ – **الرَّافعة الماليَة**: عبر استخدام نقاط قوَّة المنافسين ضُدَّهم.

ويرى الخبيران في الشّؤون الإستراتيجيّة الأمريكيّة «كابشتاين وشابيرو» أنَّ «النَّجاح في مواجهة العملاق الصّيني، يجب أن يتكوَّن من ثلاثة عناصر أساسية:

أوَّلاً: الاستفادة من انتهاكات الصّين لمعايير الإقراض الدّوليّة ضُدَّها.

ثانياً: تسليط الضوء على الفساد الذي تنطوي عليه خطَّة طريق الحرير الجديد.

ثالثاً: التوظيف المبتكر لموارد المؤسَّسة الأمريكيّة الجديدة لتحرير الدّول الواقعة في براثن بكّين الماليّة.

والبند الثاني يركّزُ على حالات الفساد التي تعتري عمليّات بناء المشروع، وكشف مواطِنِ ضعفها، مثل مشاريع الطرق والسكك الحديديّة والموانئ، وعدم مطابقتها للمواصفات العالميّة المتَّبعة، إضافة لمحاولة إلحاق تُهَمِ الإضرار وخلخلة النِّظام البيئيّ بها عبر التغييرات التي تُحدثها تلك المشاريع، ومساهمة الصّين في نسبة كبيرة من الانبعاثات الغازيّة السّامَّة التي تُشكِّلُ خطراً كبيراً على البيئة والغلاف الجوّيّ واتّساع ثقب الأوزون.

تمكَّنت الدِّبلوماسيّة الأمريكيّة من ثَني بعض الدّول الأوروبيّة للانسحاب من المشروع الصّينيّ، حيث أدَّت الضغوط الأمريكيّة والأوروبيّة على إيطاليا للإعلان عن انسحابها من المشروع. وردَّ مدير برنامج الصّين في مركز "ستيمسون" البحثيّ في واشنطن، على الانسحاب الإيطالي بالقول "بالنِّسبة للصّينيّين، هذه إهانة كبيرة أن تصرِّحُ إيطاليا علناً عن نيَّتها الانسحاب من مبادرة الحزام والطريق".

في ٢٦ يونيو/ تمّوز الماضي، اجتمع قادة مجموعة السَّبع بقلعة "إلماو" الألمانيّة، وبعد ساعات من النِّقاشات، خلصوا إلى إعلان المواجهة ضُدَّ مشاريع التوسُّع الاقتصاديّ الصّينيّ في العالم،

وعلى رأسها مبادرة "الحزام والطريق" التي تنظر إليها أوروبا بعين الحذر.

في هذا الصدد، وحسب بيان للبيت الأبيض، قرَّرت المجموعة "جمع /٦٠٠/ مليار دولار بحلول ٢٠٢٧، للاستثمارات في البُنية التَّحتيّة العالميّة"، ستوفِّرُ منها واشنطن "خلال السَّنوات الخمس المقبلة /٢٠٠/ مليار دولار عبر مِنَحٍ وموارِدَ من الحكومة الاتّحاديّة وجمع استثمارات من القطّاع الخاص".

هذه الأموال التي ستستثمر في إنشاء بنية تحتيّة مستدامة "تُحسّن حياة النّاس في كُلِّ أنحاء العالم وتعزِّزُ سلاسل توريداتنا وتنوعّها، وتخلق فرصاً جديدة للعاملين والشَّركات الأمريكيّة وتدعم أمننا القومي"، حسب البيان. فيما ستوفِّرُ هذه الشَّراكة أيضاً هيكلاً لدول مجموعة السَّبع لتوحيد مواردها لتمويل الاقتصادات النّاشئة من أجل إيقاف التوسُّع الاقتصاديّ الصّينيّ داخلها.

من جانب الاتّحاد الأوروبيّ، قالت رئيسة مفوضيّته "أورسولا فون دير لاين"، بأنَّ أوروبا بدورها ستقدِّم نحو /٣٠٠/ مليار يورو على مدى السَّنوات الخمس المقبلة، لتمويل البُنية التَّحتيّة في الدّول النّامية لمواجهة "طريق الحرير الجديدة". وهو ما جرى الكشف عنه في برنامج "البوّابة العالميّة" للاتّحاد، والذي يُعدِّد /٧٠/ مشروعاً لهذا الغرض.

وجاء الانسحاب الأمريكيّ من أفغانستان عام ٢٠٢١، بهدف تحويل الأخيرة إلى حائطِ الصَدِّ أمام المشروع الصّينيّ، وفق رأي بعض المراقبين، من خلال سيطرة حكومة دينيّة متطرِّفة بزعامة حركة "طالبان" على أفغانستان والصراعات التي خلقتها مع إيران، ما يُهدِّدُ أمن المنطقة بالكامل، وبالتّالي يعرقل مساعي الصّين في تنفيذ مشروعها.

لم تتوقّف محاولات الولايات المتّحدة في السَّيطرة على قلب آسيا الوسطى في إطار حربها مع الصّين؛ بهدف إفشال مبادرة "الحزام والطريق" الذي تحلم بكّين في تحقيقه منذ مئات السنين، فقد اعتمدت على دعم الانفصاليّين "الإيغور" في منطقة "شينجيانغ" غربي الصّين بغرض تقسيمها تحت اسم "تركستان الشَّرقيّة"، وأوعزت لتركيّا أيضاً بدعم المُسلَّحين "الإيغور" وتسليحهم، حتّى أنَّها – أي الولايات المتّحدة – أزالت اسم "الحزب الإسلاميّ التركستانيّ» من قائمة الإرهاب الدّوليّة.

كما أنَّ واشنطن تواصل دعم استقلال مقاطعة "بلوشستان" جنوب غرب باكستان وجنوب شرق إيران، بهدف زعزعة المصالح الصّينيّة في المنطقة والإخلال بأمنها واستقرارها، ما يقوِّض المساعي الصّينيّة في المُضيِّ قُدُماً بتنفيذ مشروعها "الطريق والحزام".

دعم النُخب الأمريكيّة للمشروع الصّينيّ:

ظهرت بعض النُّخب الأمريكيّة أبدت إعجابها بالانطلاقة الصّينيّة، فيما وصفها البعض أنَّها معجبة بـ"الدِّكتاتورية الصّينيّة". وقد استطاعت الصّين شراء بعض تلك النُّخب. وتطرَّق الكاتب الأمريكيّ "بيتر شوايزر" في كتابه "أياد حمراء: كيف ساهم ثراء النُّخبة الأمريكيّة في الفوز الصّينيّ؟".

ويحدِّد الكاتب من وجهة نظره، أربعة عوامل ساعدت فيها النُّخب الأمريكيّة الصّين في تعزيز موقعها العالميّ، وهي:

١– محاولة الشّيوعيّين استغلالَ التقدُّم الرَّأسماليّ لصالحهم: ويقارن "شوايزر" بين وضع الصّين ومقولة لينين الشَّهيرة: "سيبيع لنا الرَّأسماليّون الحبل لنعلِّقهم به". كما قال أيضاً: "سيقدِّمُ الرَّأسماليّون الاعتمادات التي ستفيدنا في دعم الحزب الشّيوعيّ في بلادهم، ومن خلال إمدادنا بالمواد والمُعدّات التِّقنيّة التي نفتقر إليها، سنُعِيدُ صناعتنا العسكريّة اللازمة لهجماتنا المستقبليّة ضُدَّ موردّينا". وفي اعتقاده أنَّ الرَّأسماليّة تَمُدُّ الحبال لبكّين، سواء في "وول ستريت أو في وادي السيليكون أو في واشنطن".

٢– الفصل بين الحزب الشّيوعيّ والشَّعب

”ساهمت النخبة الأمريكية في تعزيز القدُرات العسكريّة والإستراتيجية لبكّين، وهو ما عزّز من موقعها في منافسة الولاياتّ المتحدة. وبعد أن ساعدت في تفوق الصّين اقتصادياً، فإنها انتقلت إلى مساعدتها لتتفوق تكنولوجياً أيضاً، خاصةً بعدّ أن تحررتّ الصّين من القيود التي وضعتّها منظمة التجارة العالمية، ومقابل ذلك تضخمت ثرواتّ النخبة الأمريكية، فيما أصبحت الصُّين أكثر عدوانٍ وقمعاً.“

الصّينيّ: ويؤكّدُ الكاتب بأنَّ الصّين محكومة من قبل "النّظام الدّكتاتوري للحزب الشّيوعي الصّينيّ"، وأنَّ "النُّخب الأمريكيّة فضّلت التّعاون معه". مؤكّداً أنَّ التّهديد الذي تواجهه الولايات المتّحدة لا يأتي من الشّعب الصّينيّ، بل من "بكّين السّياسيّة".

٣- فشل "تحرُّر الصّين" بعد اندماجها في التّجارة العالميّة: حسب رأي الكاتب أنَّ "النُّخبة الأمريكيّة ساهمت في تعزيز القدرات العسكريّة والإستراتيجيّة لبكّين، وهو ما عزّز من موقعها في منافسة الولايات المتّحدة". وبرأيه أنَّ النُّخبة الأمريكيّة، وبعد أن ساعدت في تفوّق الصّين اقتصاديّاً، فإنّها انتقلت إلى مساعدتها لتتفوّق تكنولوجيّاً أيضاً، خاصّةً بعد أن تحرَّرت الصّين من القيود التي وضعتها مُنظّمة التّجارة العالميّة، وأنّه مقابل ذلك تضخّمت ثروات النُّخبة الأمريكيّة، فيما أصبحت الصّين أكثر عدواناً وقمعاً، وفق رأي الكاتب.

٤- تراجُع جدوى الاستثمار الأمريكيّ في الشّركات الصّينيّة: يتساءل الكاتب عن جدوى الاستثمار في الشّركات الصّينيّة، مؤكّداً أنّه قبل خمسة وعشرين عاماً مضت، ساد اعتقاد لدى النُّخبة الأمريكيّة بأنَّ بإمكانها تعزيز صداقة بين الجانبين، من خلال إقامة علاقات اقتصاديّة مشتركة، ولكن انتفت الحاجة الصّينيّة إلى مثل هذه العلاقات في ظِلِّ التطوّر المذهل للاقتصاد الصّينيّ.

ويخلص الكاتب إلى نتيجة مفادها أنَّ الصّين تشكّلُ تهديداً كبيراً للأمن القوميّ الأمريكيّ، من خلال النُّخب الأمريكيّة بالذّات وتعاملها مع الصّين، وذلك وفق المحدّدات التّالية التي وضعها الكاتب:

١- تمكُّن بكين من شراء النُّخبة الأمريكيّة السّاعية للثراء الماديّ: ويشير الكاتب إلى أنَّ بكّين تمكّنت من إغواء النُّخب الأمريكيّة والأجنبيّة بشكل عام لصالحها، عبر عقد عِدَّة صفقات معها، لتتمكن من خلالها إقامة علاقات وثيقة ذات مزايا ومنفعة تجاريّة وسياسيّة لصالحها، خاصّةً مع تلك النُّخب التي تسيطر على دوائر القرار السّياسيّ والاقتصاديّ في الولايات المتّحدة، حتّى تحوَّلت تلك النُّخب إلى دُعاةٍ للصين داخل الولايات المتّحدة، والابتعاد عن توجيه الانتقادات لها.

٢- إعجاب بعض النُّخب الأمريكيّة بالدّكتاتورية الصّينيّة.

٣- انخراط النُّخب الموالية لبكّين في المؤسّسات الأمريكيّة.

٤- تقديم المساعدات الاقتصاديّة والدّعائية للحزب الشّيوعيّ.

البوّابة العالميّة لعرقلة المشروع الصّينيّ:

أطلق الاتّحاد الأوروبيّ مشروع «البوابة العالميّة» في أواخر عام ٢٠٢١، معلنة أنّه يهدف إلى «زيادة الاستثمارات التي تعزّز القيم الدّيمقراطيّة والحوكمة والشّفافيّة والشّراكات المتساوية، كما البُنى التّحتيّة الخضراء والنّظيفة والآمنة

والتي تحفّزُ استثمارات القطّاع الخاص»، ولكنَّه في جوهره يهدف إلى نسف المشروع الصّينيّ «الطريق والحزام».

وكشفت وثيقة نشرها الاتّحاد، عن «ماهيّة المشاريع التي تتضمَّنها البوّابة، والتي يصل عددها إلى /٧٠/ مشروعاً»، وأوضح موقع «بوليتيكو» الأمريكيّ، نقلاً عن مسؤول كبير في بروكسل، قوله «الآن علينا العمل»، في إشارة إلى المرور من مرحلة التّخطيط إلى التّنفيذ».

ويخطّطُ الاتّحاد الأوروبيّ مساعِدَّة عدد من الدّول الإفريقيّة عبر إقامة مشاريع الطّاقة، وخاصَّةً في جنوب إفريقيا، ومشروع إنتاج الهيدروجين الأخضر في ناميبيا.

ووفق الموقع الأمريكيّ؛ فإنَّ الاتّحاد الأوروبيّ ينوي إقامة عدد من المشاريع في الفناء الخلفيّ للصّين، مثل التحوُّل الطاقيّ مع إندونيسيا، ومشروع الاتّصال الرَّقميّ في الفلبّين.

هذا إضافة إلى الحصار المزمع أن يفرضه الاتّحاد الأوروبيّ حول الصّين؛ فإنَّه بذات السويّة يخطّطُ لفرضه على الدّول التي تدور في الفلك الرّوسيّ أيضاً، والتي كانت أغلبها ضمن الاتّحاد السّوفيّيتي السّابق مثل كازاخستان وطاجيكستان، وإيقاف مشروع الهيدروجين الأخضر في كازاخستان، ومشروعين في منغوليا ومحطَّةً للطّاقة الكهرومائيّة في طاجيكستان.

مخاوف دوليّة من المشروع:

انتقد محلّلون ومراقبون دوليّون مشروع مبادرة طريق الحرير الجديد، ووجَّهوا التُّهم إليه بأنَّه يفتقر إلى «الشَّفافيّة»، حيث أنَّ الصّين تستأثر بكُلِّ تفاصيل المشروع، فهي من تُخطّطُ وتُصمِّمُ وتُحلِّلُ، وأيضاً هي المُشغِّلُ الرَّئيسيّ والمستفيد الأكبر منه، فيما مساهمة الدّول الأخرى ضئيلة وقد تكون معدمة بالنِّسبة لبعض الدّول، بل قسم منها يلعب دور التّابع والمنفِّذ فقط، دون أن يكون لها مشاركة في اتّخاذ القرارات فيه.

فيما تراود البعض هواجس بأنَّ يزيد مشروع «الطريق والحزام» من حِدَّةِ الصِّراعات السِّياسيّة والعسكريّة في العالم، وبالتّالي يؤثّر على حالة الاستقرار السِّياسيّ في بعض المناطق الملتهبة أصلاً مثل الشَّرق الأوسط. ويرون أنَّه يتوجَّب على الصّين أخذ هذه المخاوف بعين الاعتبار، لأنَّها بالنهاية ستؤثّرُ على عمل المشروع وحتّى على بنائه وخاصَّةً في المناطق التي يَمُرُّ منها الطريق، مثال أفغانستان، التي لم تشهد استقراراً منذ عِدَّة عقود، حتّى أطلق البعض عليها اسم «مقبرة الإمبراطوريّات»، وآخرها كانت شبه هزيمة للولايات المتّحدة منها.

التَّأثير الثَّقافيّ لمشروع «الطريق والحزام»:

مثلما حمل طريق الحرير قديماً القيم الثَّقافيّة للشُّعوب والمجتمعات معه؛ كذلك اليوم يلعب مشروع «الطريق والحزام» دوراً كبيراً في نقل مختلف العلوم والثَّقافات للشُّعوب المُشارِكة في المشروع. فكما كان لاكتشاف الورق من قبل الصّينيّين أثره الكبير في تنشيط حركة التَّدوين والترجمة ونقل مختلف علوم الفلسفة والطبِّ والهندسة وأفكار الفلاسفة والمفكّرين الصّينيّين، إلى جانب العلوم الدّينيّة، وخاصَّةً تعاليم وطقوس الدِّيانة الكونفوشيوسيّة والبوذيّة، ومن ثُمَّ الإسلاميّة، وذلك خلال مسيرة طريق الحرير التي بدأت قبل الميلاد. فالصّين، الآن، وبامتلاكها للتكنولوجيا الرَّقميّة المتطوِّرة، والقدرة على ترجمة مختلف العلوم والمعارف إلى معظم اللُّغات؛ فإنَّها بذلك تساهم في تبادل المعلومات والعلوم ونشر الثَّقافات المُتعدِّدة، وتؤسِّسُ لمرحلة تبادل ذاك النِّتاج الإنسانيّ، إلى جانب تمتين أواصر التَّواصل الثَّقافيّ بين الشُّعوب، بغضِّ النَّظر عن أصولها العرقيّة والدّينيّة.

إنَّ تَعَدُّد الثَّقافات في الدّول الواقعة على طول طريق الحرير والحزام؛ يعتبر غنى للمشروع، ويكمِّلُ الجانب الاقتصاديّ والسِّياسيّ، تلك الدّول التي تَضُمُّ ثقافات عريقة مثل الصّينيّة والفارسيّة والعربيّة والهنديّة والكُرديّة وغيرها من ثقافات شُعوب المناطق التي يَمُرُّ بها الطريق. فالمشروع

سيؤسّس ثقافة جديدة مميّزة عن الثّقافة الغربيّة، وستلقي بظلالها على مختلف شعوب العالم. فمثلما نقلت الثّورة الفرنسيّة آدابها وتعاليم مفكّري الغرب وفلاسفتها في الحقوق والفلسفة والعلوم التّجريبيّة إلى مختلف دول العالم التي استعمرتها، كذلك سيساهم المشروع الصّينيّ في نشر ثقافات الشّعوب المنضوية ضمنه، ولكن بصورة تختلف عن أسلوب الغرب، الذي استثمرَ ثقافته لصالح تكريس استعماره للشّعوب.

فطريق الحرير والتّوابل القديم، سيغدو بوّابة حديثة ومتطوّرة لتلاقح الثّقافات من جديد، ولتتعرَّفَ شُعوب الدّول التي يَمُرُّ منها طريق الحرير الجديد على عادات بعضهم، وتتجاوز في بُعدها المعرفيّ والإنسانيّ الجوانب الاقتصاديّة والسّياسيّة والعسكريّة.

الخاتمة:

تتزايد أهميّة المشروع الصّينيّ «الطريق والحزام» يوماً بعد يوم، طرداً مع السَّير بخطوات سريعة في تنفيذه، ليصبح واقعاً مفروضاً على الرّاغبين به والمناوئين له. وتتشكّل معه نواة قطبيّة عالميّة جديدة، سمتها الأساسيّة الابتعاد عن أسلوب العسكرة في الاستحواذ على مناطق النُّفوذ والوصول إلى الأسواق في العالم، وبالتّالي فرض السَّيطرة الاقتصاديّة، إضافة إلى تأمين مصادر الطّاقة بطرق سلسة دون اللّجوء إلى الأدوات والأساليب العسكريّة والحروب. فالمشروع الصّينيّ العملاق يؤسّس لسابقة جديدة في العلاقات الدّوليّة، تتمحور حول استخدام القوّة الاقتصاديّة والتّنمية وجعلها الأساس.

لا شَكَّ أنَّ دول الحداثة الرَّأسماليّة لن تَقِفَ مكتوفَة الأيدي إزاء المحاولات الصّينيّة لفرض هيمنتها الاقتصاديّة على العالم، وستلجأ إلى مختلف الأساليب والطرق لعرقلة المشروع الصّينيّ، بما فيها الحرب، فهي تُدرِكُ جيّداً أنَّها ستفقد هيمنتها العالميّة، وستتحوَّل إلى دول تدور في الفلك الصّينيّ.

كما أنَّ الشَّرق الأوسط الذي يعيش وسط صراعات قوميّة ودينيّة وإثنيّة مُتعدِّدة، يُعَدُّ عنصراً خاملاً لا تأثير يذكر له، ولا يُتوقّع أن يُغيّرَ شيئاً في معادلات التّوازن والقوّة العالميّة القائمة. فدائماً كان المُتلقّي ولم يرتقِ إلى مستوى المركز والفعل، فيما بعض دوله تعيش انقساماً بين استمرار الولاء للغرب، أو الانخراط في المشروع الصّينيّ.

المراجع:

1 – موسوعة World History للتّاريخ العالميّ.

2 – موقع Silk Capital.

3 – موقع National Geographic.

4 – صحيفة "نيويورك تايمز".

5 – دراسة للكاتب الأردنيّ "خالد بشير" في موقع "حفريات".

6 – دراسة للأكاديميّ التُّركيّ المختصّ بالاقتصاد السّياسيّ الدّوليّ والعلاقات الدّوليّة "آلتاي أتلي".

7 – دراسة للدّكتور "أحمد يوسف" بعنوان "طريق الحرير والشَّرق الأوسط في ظِلّ التّناقضات العالميّة» نشر في موقع «صور» عام 2018.

8 – دراسة لـ" المركز الكُرديّ للدّراسات" عن أهميّة الشَّرق الأوسط في مشروع "الطريق والحزام" الصّينيّ.

9 – دراسة لموقع "ناشيونال إنترست" حول موقع السُّعوديّة في مشروع الصّين "الطريق والحزام".

10 – محاضرة للدّكتور "مُحمَّد سليم وهبة" الأستاذ المحاضر في الجامعة اللّبنانيّة عن المشروع الصّينيّ.

11 – المفّكر "عبد الله أوجلان" – المرافعة الخامسة المقدَّمة لمحكمة حقوق الإنسان الأوروبيّة.

12 – تقرير لوكالة الأنباء الرّوسيّة "RT" في عام 2021 عن طريق المرديان أو "طريق الحرير الرّوسيّ".

13 – خطّة "إيثان كابشتاين وجاكوب شابيرو" التي أطلقوا عليها اسم "إستراتيجيّة الجودو" اليابانيّة، وتَمَّ نشرها في دوريّة "فورين بوليسي".

14 – الكاتب الأمريكيّ "بيتر شوايزر" وكتابه "أياد حمراء: كيف ساهم ثراء النُّخبة الأمريكيّة في الفوز الصّينيّ؟".

15 – تقرير موقع "بوليتيكو" الأمريكيّ عن المعارضة الغربيّة لمشروع الصّين "الطريق والحزام".

جسور التواصل...

تصورات حول التعايش المجتمعي في منطقة الشرق الأوسط وأثره على التنمية الاجتماعية

د. رباب عبد الرحمن / مصر

أولاً: النظريات المفسّرة لنشأة مفهوم الدولة والمجتمع

ثانياً: سوسيولوجيا المجتمعات وإشكاليات التعايش في الشرق الأوسط

ثالثاً: المتطلبات الاجتماعية والثقافية للتعايش المجتمعي في الشرق الأوسط

رابعاً: الخطاب الإعلامي وخطاب الكراهية وانعكاساته على التماسك المجتمعي

مقدمة

تُطرح كثيراً مواضيع تتعلق بالأمن المجتمعي وقضايا التعايش السلمي بين الشعوب والمجتمعات, وتعتبر هذه المواضيع من الأمور

المهمة بسبب انتشار النزاعات وتزايد حدّة الصراعات والحروب والخلافات, والتي تأخذ أكثر من بُعد مرة باسم الدين أو الجنس ومرة باسم العرق أو اللغة وما شابه ذلك. إذ يعد البحث في مجال التعايش السلمي بين المجتمعات والتسامح, من الحاجات الأساسية والضرورية لتواجد الأفراد في المجتمعات. ويستلزم تحقيق التعايش السلمي في المجتمع الواحد المتعدد القوميات والمذاهب والطوائف والأديان (كما هو الحال في دول الشرق الأوسط) إلى الانفتاح لقيم وعادات المجتمع على التنوع والتعدد. كما يستلزم الأمر ضرورة الإيمان بالمساواة بين جميع القوميات والطوائف والمذاهب. ولابد من وجود إرادة التعايش السلمي بين المكونات المختلفة. ومن دون أن يفرض مكون نفسه على المكونات الأخرى.

يشهد العالم تحولات جذرية في الخطاب الثقافي والديني وفي أنماط التفكير. وقد نتج ذلك عن مجموعة تحولات سياسية شهدها العالم عموماً ومنطقة الشرق الأوسط على وجه الخصوص .

وانعكس خطاب العولمة الثقافية والسياسية والاقتصادية بشكل حاد على تفاصيل الحياة العامة في المجتمعات الشرق أوسطية وأثرت على ثقافات تلك المجتمعات, ومنها فقدان الفهم العميق للمشهد الدولي. وقصور في العمق النظري للسياسات والأفكار. وفقدان الانضباط الفكري. ومقاومة التكيف مع المستجدات الثقافية وكذلك الخطاب الديني والثوابت العقائدية والروحية والوجدانية, والخصوصيات المتمثلة بالأقليات والمكونات داخل تلك المجتمعات.

أولاً- النظريات المفسّرة لنشأة مفهوم الدولة والمجتمع

ظهرت مجموعة من النظريات التي فسرت نشأة الدولة. وقد اختلفت باختلاف الأسباب والدوافع لذلك النشوء. ففكرة الدولة تعود إلى الكتابات القديمة لأفلاطون الذي أوضح أن الدولة تكونت بوصفها ضرورة لتعاون الأفراد للحصول على احتياجاتهم لعدم قدرة الفرد على سد حاجاته بنفسه. أما أرسطو فيرى أن الدولة تكونت نتيجة للميل الغريزي للإنسان نحو الجنس الآخر الذي دفعه نحو تكوين الأسرة, ومن تجمّع عدد من الأسر تكونت القرى لتتمكن من إشباع الحاجات المادية, ومن ثم تكونت الدولة بوصفها وحدة سياسية. وقد اتفق ابن خلدون مع أفلاطون وأوضح أن الإنسان اجتماعي بالطبع. وقدرته الفردية قاصرة, مما دفعه ذلك إلى الاستعانة بأبناء جنسه لسد احتياجاته وتوفير الحماية لنفسه.

١- النظرية الدينية:

يعتقد أصحاب هذه النظرية أن الدولة تعود إلى الإله في نشأتها, وأن الإنسان ليس عاملاً أساسياً. وما على الأفراد إلا الخضوع للدولة والسلطة, وقد مرت هذه النظرية بتطورات متعددة في المدنيات القديمة (مصر. ميزوبوتاميا. فارس. الهند. الصين وغيرها).

الملاحظ من هذه النظرية هي طريقة توظيف الحكام هذه النظرية لسلطانهم المطلق, فاستعملوها بوصفها سنداً لسلطاتهم وحكمهم.

٢- نظرية القوة:

ترى هذه النظرية أن الدولة نشأت من خلال سيطرة الأقوياء من خلال المجموعات الحاكمة التي اعتمدت القوة في الوصول إلى الضعفاء, مستغلة خوف وقلق الأفراد من الحروب وحاجتهم للأمن والاستقرار, وهي وسيلة في بناء الدولة وقوتها, مستشهدين بسيطرة القبائل القوية على القبائل الضعيفة في الماضي كدليل

موضـــح لعنصـــر القوة في نشـــأة الدولة، والقوة بالنسبة لـ «ميكافيللي وهيجل ونيتشة» خاصية طبيعية من خصائص الدولة وفضيلة وجب التمسك بها والانطلاق من خلالها.

٣ـ النظرية الطبيعية:

أســـــاس هـــذه النظرية مبني على طبيعة الإنســـــان باعتباره يعيش ضمن بيئة مكونة من أفراد ضمن المجتمع, وحيث أن الإنســـان لا يستطيع أن يعيش منعزلاً؛ دفعته طبيعته هذه إلى الحياة الجماعية المنظمة، فتطورت حياة الإنســـــان من الأســـرة إلى القبيلة فالقرية ومن ثم المدينة, فهو تســـلســـل طبيعي ينســـجم مع التطور الطبيعي للمجتمعات، وتعاون الأفراد من خلال تفاعلاتهم الاجتماعية المختلفة, والتطور الإنســـاني جعلهم يرغبون في أن يكون لهم قيادة أو ســـلطة، ومن ثم دولة ذات ســـيادة وســـلطة لا يستطيعون أن يعيشوا خارج نطاقها.

٤ـ نظرية العقد الاجتماعي:

يعتقد أصحاب هذه النظرية أن نشوء الدولة يرجع في أساسه إلى إقامة عقد بين الجماعة, فوّضوا موجبه الأمر إلى شخص تنازلوا له عن حقوقهم (كما يذهب هوبز) أو جزء من حقوقهم (كما اعتقد لوك) حتى يستطيعوا العيش في أمن وسلام والحدّ من أنانية الأفراد.

بدأ هوبز تحليله بتصـــور عن الطبيعية البشـــرية ذاهباً أنه تتملكه غريزة واحدة هي غريزة المحافظة على حياته، لذا يندفع بكل الوســـائل من خداع واســـتعمال أساليب القوة, ومن هنا فالحياة حالة حرب مســـتمرة بين الأفراد، فكل منهم يســـعى إلى تحقيق مصـــالحه على حســـاب الآخرين, مما يؤدي إلى

"تطرح كثيراً مواضيع تتعلق بالأمن المجتمعي وقضايا التعايش السلمي بين الشعوب والمجتمعات، وتعتبر هذه المواضيع من الأمور المهمة بسبب انتشار النزاعات وتزايد حدّة الصراعات والحروب والخلافات، والتي تأخذ أكثر من بُعد مرة باسم الدين أو الجنس ومرة باسم العرق أو اللغة وما شابه ذلك، إذ يعد البحث في مجال التعايش السلمي بين المجتمعات والتسامح، من الحاجات الأساسية والضرورية لتواجد الأفراد في المجتمعات"

الفوضـــى والصـــراع الذي لا يمكن أن ينتهي إلا بوجود قوة تضـــبط ســـلوك الناس، وهذه القوة هي مطلقة، وهكذا تكونت أو ظهرت الدولة ـ التي يجب أن يخضـــع لها الأفراد ـ إلى الوجود نتيجة لعقـد اجتمـاعي، إذ تؤمّن الدولة للأفراد الأمن في الداخـل والســـــلام في الخـارج، لـذلـك يجـب على هـذه الـدولـة أن تتميز بـالقوة المطلقـة حتى تستطيع أن تؤدي مهامها جيداً, لذلك أسـماها هوبز (لوياثان) الوحش الكاســـــر المخيف، فالفرد الإنســـــاني هو آلة طبيعية تتحكم فيها الحرية, و(لوياثان) هو الدولة الحديثة التي تقيمها الآلات الطبيعية أي مجموعة من القوى البشـــرية (آلة اصطناعية ضـــخمة ذات رأس مهمتها المحافظة على المنفعة الأولى لجميع الأفراد).

٥ـ النظرية الماركسية:

إن الدولة عند ماركس هي النتيجة الطبيعية

للصراع الطبقي بين الأقوياء والضعفاء, فقد هيمنت في البداية طبقة بفضل وضعها الاقتصادي, ولكي تضمن استمرار سيطرتها على الطبقة الأخرى فقد أصبحت قوة لا تقهر. الدولة تظهر في الزمن والحالة التي لا توفيق فيها بين الطبقات, فكما يقول «أنجلز» إنها ولدت من ضرورة لجم التناقضات بين الطبقات ومن النزاع بين الطبقات. فهي دولة الطبقة الأكثر قوة, والطبقة الأكثر هيمنة اقتصادياً, وبالتالي تكتسب وسائل الطبقة المهيمنة . أي إن الدولة جاءت كانعكاس مؤسسي جديد لقمع واستغلال الطبقة المضطهدة نتيجة وضع اجتماعي تاريخي صنعه انقسام الطبقات وصراعها من خلال تسيّد الطبقة الأكثر قوة لجهاز الدولة.

ثانياً- سوسيولوجيا المجتمعات وإشكاليات التعايش في الشرق الأوسط

عرّفت الأنظمة السياسية حديثاً الدولة من الجانب السياسي على أنها "**مجتمع منظم تعيش على أقاليم معينة وتخضع لسيطرة هيئة حاكمة ذات سيادة وتتمتع بشخصية تميزها عن المجتمعات الأخرى, وترتبط بين أفراد الدولة رابطة سياسية قانونية من حيث أنها تفرض عليهم الولاء لها والخضوع لقوانينها**".

ينظر للدولة من الجانب السوسيولوجي من خلال التأكيد على أنها مشروع سياسي من حيث وظائفها وعلاقتها بالمجتمع, حيث عرفها (ماكس فيبر) "**بأنها ذات طابع مؤسساتي تخضع الأفراد لقوانينها, وتحتوي على أشكال الفعل التي تحدث في نطاق سيادتها, أي التركيز على الوسائل التي تستعملها الدولة**".

إن مشروع التعايش في الشرق الأوسط يحتاج إلى بيان جملة الإشكاليات التي تعترض عمله, ويقع في مقدمتها بناء ذاكرة للتعايش. ومن ثم الخلاص من خطاب الكراهية, وهو مجموعة من الإشكاليات التي يتوجب حلها قبل الشروع في بناء تعايش جديد في منطقة الشرق الأوسط

بناء ذاكرة جديدة للتعايش

إن بناء ذاكرة جماعية للتعايش في مراحل سبقتها التغيرات الكبيرة التي أصابت المجتمعات نتيجة الغزو الثقافي الغربي, وكذلك الصراعات المحلية والعقائدية والأثنية والقومية والدينية وغيرها. فإن هذه النقطة تشكل واحدة من أبرز الصعوبات التي تواجه بناء تعايش جديد في معظم دول ومجتمعات الشرق الأوسط.

ويمثل الموروث التاريخي أبرز عوامل بناء ذاكرة التعايش, بيد أن الحاضر مازال يمسك ببعض ما مرت به المنطقة من تلك التغيرات المذكورة سابقاً. ويصعب تبعاً لذلك بناء ذاكرة تعايش مع التزام كل مكون ببناء ذاكرته الخاصة بعيداً عن مجال الفضاء العام, الذي يسمح بتداول الحقائق وعرضها على الأفراد, وكما يقول (ميشيل فوكو) «**لا شيء أصعب من نظام سياسي لا يكترث بالحقيقة. ولكن لا شيء أخطر من نظام سياسي يحتكر الحقيقة**".

وتصبح المسألة أكثر تعقيداً على التعايش إن تم احتكار فعل التذكر وبناء ذاكرة من جهة واحدة تجعل باقي الجهات تتهمها بالانحياز من قبل مكونات, أو محاولة إلغاء ذاكرة الآخرين أو منعهم من التذكر. إذ إن بناء ذاكرة واللجوء إلى الماضي والاحتكام إليه من أجل حسم النزاعات: لا يمكن أن يبني أرضية لذاكرة مشتركة, لأن لكل حدث خاصيته غير القابلة للتكرار. والتذكر ما هو إلا نقل للماضي من طابعه الحدثي المتفرّد والذي يمر سريعاً, إلى طابعه المتمثل ذهنياً. أي الماضي كذاكرة أو صورة تومض.

وما إن يغادر الماضي أرضية الحدث ويدخل دائرة

الصورة والتمثل الذهني حتى يغير جلده. ويصبح خاضعاً لعمل المخيلة, وعندئذ فقط يصبح التاريخ قابلاً للنسخ والتكرار وحتى التلفيق والاختلاف والفبركة بصور متعددة وإلى ما نهاية, ويترتب على ما سبق ذكره ضرورة عملية بناء ذاكرة تستوعب الهويات الثقافية المتعددة في معظم مجتمعات الشرق الأوسط, والأمر يحتاج إلى عملية غربلة للأحداث, وإلا سيلعب دوراً في تهديد التعايش بطرائق جديدة تفقد على أثرها المجتمعات مزيداً من أبنائها.

ثالثاً- المتطلبات الاجتماعية والثقافية للتعايش المجتمعي في الشرق الأوسط

التعايش السلمي المشترك حاجة ماسة لمجتمعات التنوع والتعدد بجميع أشكاله وأصنافه. ومعظم دول الشرق الأوسط تمثل أبرز مناطق التنوع الديني والإثني والمذهبي واللغوي والقومي. لذا تبرز الحاجة إلى التعايش الذي يمثل صمّام أمان للأطياف المتنوعة. وفي استعراض بسيط فإن مجتمعات الشرق الأوسط تحتوي على تنوع ديني ومذهبي. تنوع عرقي ولغوي, ويترتب على هذا التنوع ضرورة التعايش ولو في حدوده النسبية. ألا وهي ضرورة تحقيق مبدأ التوازن الاجتماعي وجعل الاجتماع البشري مقبولاً, وهذا يعني أن المبادئ الاجتماعية تبقى العنصر الوحيد الذي يحدد نمط الحياة المشتركة, إذ أن التعايش الاجتماعي يحدّ من تطرّف الصراعات العرقية ويكسر من شوكة التعصب القبلي, ويزيل الحواجز النفسية بين طبقات المجتمع وينمّي الشعور بالإخوّة الإنسانية.

رابعاً- الخطاب الإعلامي وخطاب الكراهية وانعكاساته على التماسك المجتمعي

تعزى حالات الانهيار المجتمعي وتفكك المواطنة والثوابت والقيم وعدم التوافق الإثني في كثير من الأحيان, إلى ما تقدمه وسائل الإعلام حين

"عرفت الأنظمة السياسية حديثاً الدولة من الجانب السياسي على أنها "مجتمع منظم تعيش على أقاليم معينة وتخضع لسيطرة هيئة حاكمة ذات سيادة وتتمتع بشخصية تميزها عن المجتمعات الأخرى، وترتبط بين أفراد الدولة رابطة سياسية قانونية من حيث أنها تفرض عليهم الولاء لها والخضوع لقوانينها" ينظر للدولة من الجانب السوسيولوجي من خلال التأكيد على أنها مشروع سياسي من حيث وظائفها وعلاقتها بالمجتمع"

ترسم صورة خيالية لواقع غير موجود, أو واقع افتراضي عبر الخطاب الإعلامي. وتقدم نموذجاً خيالياً لا يمكن الوصول إليه في الواقع. لأن الفكرة المعروضة أحياناً غير حقيقية أو تعرض بشكل متناقض. مع نقص المفاهيم المتضمنة فيها, أو تقدمها بشكل مشوّه أو مبتور.

خطاب الكراهية: يعمل خطاب الكراهية على منع تأسيس تعايش جديد لأنه يعمل بمفردات ومفاعيل وهي : (**التحريض، الانتقاص، التحقير من فرد أو مجموعة من أفراد تجاه مجموعة أخرى تحمل عرقاً أو ديناً أو مذهباً أو نوعاً اجتماعياً أو رأياً سياسياً أو طبقة اجتماعية أو فئة اجتماعية**). وتلك المفردات تعطي مخزوناً كبيراً من الحقد والضغينة واستباحة الدماء .

ويعمل نتيجة لذلك على إثارة بوادر الانقسام المجتمعي ويؤسس لحالة القطيعة الأهلية بين أفراد المجتمع الواحد, ويعمل خطاب الكراهية على تجهيل الأنا والذات من أجل استمرار رفضه

> **يسعى خطاب الكراهية إلى رفض الآخر ويدافع عن العنف الذي يمارسه ضد الآخر ويرفض دفاع الآخر عن نفسه، لأن خطاب الكراهية ذو طاقة انفعالية سلبية تلغي مكانة العقل وقدرته على التحكم منطقياً في الأحداث التي تجري، فأية معالجة لبناء الاستقرار في مجتمعات الشرق الأوسط وبناء تجربة للعيش المشترك لا يمكن أن تحصل إلا بمحاولة حصر هذا الخطاب وتجفيف منابعه**

للآخر وعدم انفتاحه الفكري، إذ ينتهج سبل إسباغ المؤامرة على كل وارد وحديث، ليس لشيء بل لفرض استمرارية هيمنته على المجتمع وسيادة الطائفية والقطعية والوثوقية، بما يجعلها سمة لروحها العميقة، لذا فإن خطاب الكراهية والاستفزاز والاحتقار للآخر، ما كان له أن يتصاعد نجمه لولا القابلية الذهنية في استحضار المقدسات والاحتماء بها عند تناول أقرب القضايا الفكرية المعاصرة .

وإن إشاعة هذا الخطاب أضحى يهدد الوحدة الوطنية في الدول وتضربها في العمق، وفي هذا الصدد فإن خطاب الكراهية يسعى إلى رفض الآخر ويسقط كل السلبيات على المختلف، ويدّعي لنفسه كل الإيجابيات، وهو يدافع عن العنف الذي يمارسه ضد الآخر ويرفض دفاع الآخر عن نفسه، لأن خطاب الكراهية ذو طاقة انفعالية سلبية تلغي مكانة العقل وقدرته على التحكم منطقياً في الأحداث التي تجري في البيئة القريبة أو البعيدة، لذا فإن أية معالجة لبناء الاستقرار في مجتمعات الشرق الأوسط وبناء تجربة للعيش المشترك، لا يمكن أن تحصل إلا بمحاولة حصر هذا الخطاب وتجفيف منابعه، والعمل على تجريم مفرداته والوسائل التي يستثمرها سواء أكانت منصات التواصل الاجتماعي أم الوسائل المرئية أو المسموعة أو المكتوبة، لأنها تعدّ أبرز القنوات التي تجري عبر أحاديث وتحريض أبناء المجتمع ضد بعضهم، وبما يعمل على إثارة الانقسام المجتمعي في الشرق الأوسط .

من هنا فإن خطاب الكراهية أضحى يؤثر على بناء التعايش في المجتمعات، وهو يستثمر أية فرصة حتى يتمكن من بث سمومه وتهديد حياة السكان من جديد بوسائل من شأنها أن تفكك أواصر التلاحم المجتمعي، وإثارة نوازع الفرقة والتصادم بين أبناء البلد الواحد، لتبقى بذلك المشكلة الإعلامية والسياسية والاجتماعية متجذّرة وواضحة في بعض وسائل الإعلام، مرتهنة لبعض الأطراف ضمن الصراعات السياسية في الداخل، فهي ليست انعكاساً لها، بل إن لها امتدادات إقليمية وأخرى دولية، تؤثر من خلال التمويل وتوجيه الرأي والحث على العنف لتحقيق مكاسب ذاتية، وجميع ذلك بحجة الديمقراطية والتحرر للخطاب وتحديث مضمونه ومواكبته العصر ومعالجته مشاكل الواقع، وغيرها من الحجج التي تبدو في ظاهرها الحق ولكن في حقيقتها الباطل، وجميع ذلك يحتاج إلى معالجة جادة تبتعد عن التدليس في المفاهيم.

ليس التجديد هو التحييد للقيم والمواطنة والإنسانية، وليس الخطاب الإعلامي هو تلميع سياسي أو حزبي أو طائفي أو لمكون أو قومية على حسابات أخرى، وعليه يقتضي توافق الإعلاميين في دول الشرق الأوسط على وضع مبادئ أساسية لتنظيم البث الفضائي، والعمل على ترسيخ فكرة أن الوطن للجميع، وأن الإعلام ناقل لهموم الأمة

ومتطلباتها دون إقصـــــاء لأحد, وذلك بمنع بث ما يؤدي إلى تأجيج الصـــراعات والحروب الداخلية, أو تفتيت الوحدة الوطنية للدول, أو إثارة النزعات المذهبية والطائفية, وعدم تســـــــييس الدين والتديّن, والعمل على أن تكون وسائل الإعلام الدينية متاحة للجميع, دون اختزالها ســياســياً لتكون بذلك الإعلام الســياســي, والذي يتغلب على رغبات رجل الســياسة الذي يعمل بفن الممكن, وهو ما يتقاطع مع الأسس التي يســـــتند عليها الإعلام الديني من دعوة ونشـــــر الأخلاق والقيم والابعاد عن الإقصاء وإثارة النعرات والتكتلات الطائفية والقومية .

الخاتمة

يتطلب بناء تجربةٍ للعيش المشترك في مجتمعات الشرق الأوسط, التذكير بأن هذه المجتمعات عاشت في حالة من الوئام والتسامح وقدرة على استيعاب المختلفين دينياً ومذهبياً ولغوياً واجتماعياً, ويمكن الاستفادة من التجارب التي مرت على تلك المجتمعات وعملت على زيادة التلاحم المجتمعي فيها بعد المحن التي تعرضت لها, لهدف أساسي يتمثل ببناء تجربة تعايش سلمي ومتوازن فيها تعمل على ضمان حقوق جميع السكان والمكونات, وبما يعزز من الاستقرار بمختلف أشكاله فيها .

إن بناء التعايش يتوجب توفير متطلباته وإدراك جملة الإشكاليات التي تعترضه, لذلك لا يمكن أن ندرك مزايا العيش المشترك والتسامح إلا بعد مرحلة من النزاعات الأهلية التي عملت على تشتيت السكان والمجتمعات وتهديد وجودهم, ولا يمكن أن تتم إلا عبر ترسيخ قيم التعايش المشترك وإشاعة التسامح وتعزيز أواصر التواصل الإنساني,

وذلك يتضح من جملة النتائج التي توصل إليها بحثنا هذا عبر:

- إن توفير متطلبات التعايش يساعد على إدامته واستمراريته مترابطاً, فلا يمكن الاستغناء عن واحدة منها ولا يمكن البناء على واحدة منها .

- التعايش يعمل وفق هذه المتطلبات, وتعزيزها والاستفادة من تجارب التعايش في مناطق العالم التي مرت بالحروب والصراعات الأهلية يعد ضرورة لا مناصّ منها, لاسيما أن مناطق كثيرة في العالم مرت بتجارب الحرب الأهلية وسيطرة للجماعات الإرهابية عليها وتدميرها.

- هناك جملة من الصعوبات الإشكالية التي تعترض إيجاد أرضية للتعايش, ويقع في مقدمتها التهجير بما يؤثر على التوازن في التركيبة السكانية, ويعمل على زيادة الشقاق المجتمعي.

- إن خطاب الكراهية المبني على ذاكرة تكتنز موروثاً يحمل الحقد بين جنباته, يشكل إرهاقاً جديداً لبناء تعايش في مجتمعات الشرق الأوسط.

المراجع والمصادر :

-1 الوحدة الوطنية ومشكلة الأقليات في أفريقيا ، عبد السلام إبراهيم بغدادي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، لبنان بيروت 1993م

-2 إشكالية الدولة والأمة في العراق قراءات في المرجعيات التاريخية والثقافية ، وسام مجيد جابر البكري ، الجامعة المستنصرية ، 2019م

-3 علم الاجتماع السـياسـي ,عبد الله محمد عبد الرحمن , دار النهضـة العربية ,بيروت ، 2001 م

-4 المجتمع والدولة في الوطن العربي , غسان سلامة وأخرون، مركز دراسات الوحدة العربية , 2 بيروت ,1996م

-5 مسارات فلسلفية ، ميشيل فوكو ، ترجمة محمد سبيال ، دار الحوار ، دمشق ، 2004م

-6 علي آل طالب ، نبذ الكراهية من الوعي إلى القانون في التعايش السلمي وفهم الآخر ، بغداد 2006 م.

اضطرابات الحروب لمجتمعات شمال وشرق سوريا أثناء داعش وما بعدها

صلاح الدين مسلم

الفصل الأول منهجية البحث

1- مقدمة

كانت المجتمعات البدائيّة تفسّر نوبات المرض العقلي إلى القوة الخارقة للطبيعة، لكن يعود تاريخ تفسير سيطرة التفسيرات المقدّمة للسلوك الشاذ إلى الحضارات القديمة، فقد أرجع أبقراط إلى مَنشئها المخّي، أي اعتبرها مرضاً في المخّ، واعتقد الفيلسوفان؛ أفلاطون وأرسطو أنّ الأشخاص ذوي الاضطرابات العقليّة مرضى وليسوا مصابين بمسّ شيطاني. المطيري، معصومة سهيل (2005).

لكن في العصور الوسطى سادت فيها النزعة الدينيّة على كلّ جوانب الحياة في أوروبا، وعاد الناس لتفسير نوبات المرض العقلي في ضوء القوة الخارقة للطبيعة

مرّة أخرى. فالأشخاص الذين أصيبوا باضطرابات عقليّة إنّما هم يعاقبون على ما ارتكبوه من إثم أو ذنب أو أصابهم مسّ من الشيطان. ومنهم من أعاد الأمر إلى النجوم والكواكب. إلى أن وصل الأمر إلى معالجة الاضطرابات بطريقة أخلاقيّة وإنسانيّة وعلميّة.

من هنا خرج علم الصحة النفسية ليحدد السلوك الشاذ من السلوك السوي. ومن بين الاضطرابات النفسية التي تعكس السلوك الشاذ غير السوي: العصاب الصدمي TRAUMATIC NEUROSIS أو اضطراب ما بعد الصدمة. فالإنسان يتعرّض لمواقف ومنبّهات مختلفة القوّة. إلّا أنّه عادة يكون في مقدوره السيطرة عليها والاستجابة لها تحقّق له الكسب أو تبعده عن الإضرار بشخصه. لكن هناك بعض الأشخاص الذين يتعرّضون لمواقف أو منبّهات بالغة الشدّة أو الخطورة بحيث لا يمكنهم السيطرة عليها. أو يجدون أنفسهم عاجزين عن منع ضررها عليهم كما يحدث في مواقف الانفجارات والحوادث وغارات الحروب. وتسمّى مثل هذه المواقف بالصدمات. وينتج عن هذه المواقف أمراض نفسية تسمى بالعصاب الصدمي أو عصاب الصدمة ومن أمثلتها عصاب الحرب WAR NEUROSIS. "المطيري. معصومة سهيل (٢٠٠٥)".

2- مشكلة البحث:

يعدّ العصاب الصدمي من الأمراض أو الاضطرابات العصابية والتي تتميّز بضعف تأثيرها نسبياً على شخصيّة المريض. بحيث لا تهدّد نجاحه وتوفيقه سواء في عمله أو علاقاته الاجتماعيّة إلا بقدر بسيط نسبياً. ولهذا فإنّ المرضى العصابيين عادة لا يحتاجون إلى الرعاية والحجز داخل مستشفيات إلّا نادراً. وذلك لقلّة خطورتهم على أنفسهم أو على المجتمع.

تكمن مشكلة البحث في أنّ المريض العصابي وخاصّة مرضى العصاب الصدمي لا نكاد نكتشف مرضهم النفسي إلّا إذا حدّثونا وخاصة في البيئة الشرقيّة التي لا يعترف أفراد المجتمع بأمراضهم بسهولة.

3- أهمية البحث

إن انتشار الاكتئاب بشدّة في سوريا عامة. وفي المناطق التي خضعت لتنظيم داعش كبير جدّاً. وهذا ما جعل لدراسة هذه الظاهرة أهميّة كبرى. فالحروب وعدم الاستقرار تؤدي إلى عدم الاستقرار. وتنبثق أهمّية البحث في النقاط التالية:

- تحديد حالات (ما بعد الصدمة) وإلى أيّة حالة تصل فيه المجتمعات ما بعد الحروب والكوارث.
- الفرق بين (ما بعد الصدمة) الطبيعية كالزلازل. والكوارث الطبيعية. وبين الحروب من صنع البشر.
- توصيف حالة المجتمعات ما بعد الحرب.
- تعزيز طرق الاستجابة لحالات التوعية. وتوصيات الحلول لمراكز القرار.

4- أهداف البحث

- البحث والتمحيص في المشكلات التي خلّفتها الحروب. وآثارها السلبية على الفرد والمجتمع. والبحث في الطرق العلاجية.
- تحديد الطرق الوقائية لئلا تتفاقم الحالات المستعصية ولا تتحول إلى ظاهرة.
- تحديد الفرق بين الماضي والحاضر. أي ما قبل الحرب وما بعدها. من الناحية الاجتماعية والنفسية والاقتصاديّة.

5- أسئلة البحث

- ما هو افتراض ما بعد الصدمة؟
- ما هو توصيف حالة ما بعد الصدمة في الحالة السورية؟
- ما هو افتراض ما بعد الصدمة (اضطرابات

الحروب) لمجتمعات شمال وشرق سوريا بين أعوام ٢٠١٧ حتى ٢٠٢٠؟

- ما الذي تغيّر في الحرب السورية؟ من النواحي السياسية والاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعية والنفسية؟
- إلى أيّ حدّ تستطيع الحروب أن تغيّر من نفسية المجتمعات؟

6- حدود البحث البشرية الزمانية المكانية العلمية

- الحدود البشرية والمكانية: المجتمعات في شمال وشرق سوريا
- الحدود الزمانية: ما بين أعوام ٢٠١٧ حتى ٢٠٢٠
- الحدود العلمية: تطبيق متغيّر افتراض ما بعد الصدمة على متغيّر الحرب.

7- منهج البحث:

اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي، إذ يفيد المنهج الوصفي في رصد ظاهرة البحث كما توجد الواقع، ويهتم بوصفها وصفاً عامّاً، من خلال التعبير العام لكافّة الشرائح العمريّة، والمستويات عامّة، دون وصفها كمّيّاً. وتمثلت إجراءات البحث بالاطلاع على الأبحاث السابقة في تحليل افتراض ما بعد الصدمة، وتحليل الواقع من خلال معايشة الباحث لهذه الأحداث، وتواجده في هذه المنطقة.

ولتحقيق أهداف البحث استخدم الباحث قليلاً من المنهج التجريبي، من خلال لقاءاته ببعض العائلات المتضررة من داعش، وبحكم عمله الإغاثي في تلك المرحلة للعائلات المتضررة من داعش.

وتمثلت إجراءات البحث ب:

- اللقاءات الصوتية المسجلة للعوائل الرقّية المتضررة من داعش.

"يعدّ العصاب الصدمي من الأمراض أو الاضطرابات العصابية التي تعدّ من الأمراض النفسية، والتي تتميز بضعف تأثيرها نسبياً على شخصية المريض، بحيث لا تهدد نجاحه وتوفيقه سواء في عمله أو علاقاته الاجتماعية إلا بقدر بسيط نسبياً، ولهذا فإنّ المرضى العصابيين عادة لا يحتاجون إلى الرعاية والحجز داخل مستشفيات إلّا نادراً، وذلك لقلّة خطورتهم على أنفسهم أو على المجتمع."

- الاطلاع على مصادر تحلّل افتراض ما بعد الصدمة، والحدث الصدمي.
- ملاحظات الباحث المباشرة من خلال عمله الإغاثي.

8- مصطلحات البحث:

اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة: حدّدت منظمة الصحّة العالميّة اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة في التصنيف الدولي العاشر بأنّه استجابة مرجأة أو ممتدّة لحدث أو موقف ضاغط (مستمر لفترة قصيرة أو طويلة)، ويتّصف بأنّه ذو طبيعة مهدّدة أو فاجعة، ويحتمل أن يتسبّب في حدوث ضيق أو أسى شديدين غالباً لدى لدى فرد يتعرّض له مثل: الموت العنيف لأشخاص آخرين، أو أن يكون الفرد، ضحيّة للتعذيب أو الإرهاب أو الاغتصاب، أو غير ذلك من الجرائم

الحدث الصدمي: Traumatic- Event. الأحداث الصدمية أحداث خطيرة ومربكة

ومفاجئة، وتتسم بقوتها الشديدة أو المتطرفة، وتسبب الخوف والقلق والانسحاب والتجنب. والأحداث الصدمية كذلك ذات شدة مرتفعة، وغير متوقعة، وغير متكررة، وتختلف في دوامها من حادة إلى مزمنة. ويمكن أن تؤثر في شخص بمفرده كحادث سيارة أو جريمة من جرائم العنف، وقد تؤثر في المجتمع كله كما هو الحال في الزلزال أو الإعصار. «مجلة ابتسامة ٢٣:١٥ ٢٠٢٣/٣/١٨"

داعش: اختصار لتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام

-9 **مجتمع البحث**:

- العائلات المتضررة من داعش في الرقة.
- العائلات المتضرّرة من قصف التحالف على كوباني

-10**دراسات سابقة**:

- لقد عالجت دراسة ديناميات اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى أطفال غزة للدكتور محمد أحمد محمود خطاب (٢٠١٤) التي أجريت على عينة مكوّنة من (٤) أطفال في المدى العمري من سن ٩ إلى ١٢ سنة، وقد اختار هؤلاء الأطفال من (جمعيّة فلسطين لرعاية ضحايا الصدمات النفسية في قطاع غزة) من مشروع تعزيز صمود الأسر الفلسطينيّة، ومشروع الدعم النفسي والاجتماعي لأطفال محافظة غزة – ساند
- وقد استخدم الطريقة النفسية التحليلية الفرويديّة في دراسته، ورأت هذه الدراسة أنّ هؤلاء الأطفال لا يشعرون بالأمن والحماية والاستقرار والطمأنينة، وأنّهم قلقون ومحبطون، وهذا يؤدّي إلى العدوان، فهم بحاجة إلى وجود أب قوي، لذلك هم عدوانيون تجاه والدهم الذي لا يشبع احتياجاته، فالأنا لدى الطفل يتميّز بالضعف، وقد اعتمد الدكتور خطاب على المقابلة الإكلينيكيّة من خلال اختبار التات، واختبار رسم الأسرة المتحركة في تحليل شخصياتهم الاكتئابيّة، وقد أشارت نتائج دراسته إلى وجود صعوبة لدى الأطفال في التمييز بين الخيال والواقع، ونقص القدرة على الإدراك السليم لمتطلّبات الواقع في ظلّ تخيّلات اضطراب ما بعد الصدمة منعنف وقتل وضعف الذات والحاجة الملحّة والشديدة للانتقام والثأر، وضعف القدرة على اختبار الواقع.
- بينما هدفت دراسة الدكتور محمد أحمد محمود خطاب بعنوان (ديناميات اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدة فتاة فلسطينية مراهقة) (٢٠١٥) إلقاء الضوء على ظاهرة اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى فتاة فلسطينية مراهقة من وجهة النظر التحليلية النفسية للوصول إلى العلة الحقيقية التي تكمن وراء انتشارها وبشكل متزائد على عينة واحدة مكونة من حالة واحدة فقط وهي فتاة فلسطينية تبلغ من العمر وهي تعاني من اضطاب ضغوط ما بعد الصدمة نتيجة تعرّضها هي وأبيها لقذيفة دبّابة إسرائيليّة في فترة الحرب التي شنّتها إسرائيل على قطّاع غزّة، والتي مّيت بعملية (الجرف الصامد). وقد اعتمد على دراسات تؤكّد أن الإناث وخاصّة في فترة المراهقة هنّ الأكثر تعرّضاً، وتأثّراً باضطرابات ضغوط ما بعد الصدمة.
- وقد أثبتت الدراسة أيضاً الآثار السلبية البادية على العينة «مروة» وهي النكوص والقلق والحرمان من الحب والحنان واضطرابات النوم والأرق والاستيقاظ فزعاً والكوابيس إضافة إليالإحساس بالعزلة، وعدم الاهتمام بالعالم الخارجيّ، وضغف الحكم، إضافة إلى الإنكار والكبت، والاكتئاب وفقدان تقدير الذات.
- أمّا دراسة الدكتور عادل محمد العدل ٢٠٢٠ بعنوان (ضغوط ما بعد الصدمة وعلاقتها بقلق المستقبل لدى طلاب الجامعة بعد

جائحة كورونا كوفيد١٩) حيث استخدم المنهج الوصفي وبلغت العينة الاستطلاعية ٦٨ طالباً بكلّيّة التربيّة بجامعة الزقازيق جميع المستويات الدراسيّة متوسطأعمارهم ٢٠,٥ عاماً، وبلغت العينة النهائيّة ٤١٢ طالباً بكلّيّة التربيّة جامعة الزقازيق، وقد توصل إلى أنّ الأزمات والأحداث المؤلمة التي يمرّ بها العالم من حجر وحظر وتغيير نظام تعليم وبطالة بعض الفئات والأزمات الاقتصادية والمشكلات الصحّية والوفيات بين مختلف الشرائح الاجتماعية أدّت إلى كثير من مشاعر الخوف والقلق والاضطرابات النفسية الأخرى، وأنّ هناك كثيراً من الشباب يعانون من مشاعر الخوف والقلق والاضطرابات النفسية الأخرى، وأنّ هناك كثيراً من الشباب يعانون من الصدمات النفسية ويحملون معهم ذكريات لا تنسى، وهي تتمثّل بالإحباط لعام والاكتئاب والخوف وخاصة اضطراب الضغوط والكرب المصاحب والتالي للصدمات النفسية.

- أمّا دراسة الباحث محمد سمير محمد أو عيشة ٢٠١٧ التي قدمها لنيل درجة الماجستير في (الصحة النفسية المجتمعيّة) بالجامعة الإسلاميّة بغزّة بعنوان (نمو ما بعد الصدمة وعلاقته بأعرض الاضطراب النفسي لدى مرضى السرطان) التي قدّمها الباحث بطريقة وصفية تحليلية، وقد اختار الحالات بالطريقة العشوائيّة القصديّة من مجتمع الدراسة، من خلال توزيع الاستبانة على أفراد العيّنة، وقد اتفّقت هذه الدراسة مع دراسات أخرى في أن نتائج هذه الدراسة قد أظهرت نمو ما بعد الصدمة، فقد أظهرت أنّ العديد من المصابين طوّروا نمو ما بعد الصدمة، وتعزو الدراسة إلى أنّ المصائب في بعض الأحيان قد تؤثّر بشكل إيجابي على بعض الشخصيات، فقد لاحظ أنّ هؤلاء المرضى يكثرون من الحمد والشكر لله على ما بتلاهم، وأرجع ذلك إلى الوازع الديني، وقوّة الإيمانلها دور كبير في التخفيف عن كاهل هؤلاء المرضى، وأنّ هذا ابتلاء من الله عزّ وجل، وسوف يؤجر عليه.

"كانت حروب الدولة القومية وبالاً على أوروبا والعالم بأسره، فلم يسلم الشرق الأوسط من هذه الحرب الدموية ولا الصين ولا اليابان، فقد دمرت هيروشيما ونكازاكي وحلبجة عن بكرة أبيها، وكانت الحرب العالمية الأولى والثانية مسرح الدماء، لم يحصل هذا الشيء في التاريخ قط، أن يكون عدد القتلى ٥٠ مليون نسمة، الذي تخطى عدد قتلى الأوبئة عبر التاريخ"

تعقيب على هذه الدراسات

- لقد استطاعت هذه الدراسات السابقة توصيف حالات ما بعد الصدمة إلى حدّ كبير، وذكر الأعراض السلبية للمرضى المصابين بافتراض ما بعد الصدمة، وقدّمت الآثار السلبية لهذا العرض، وأنواع العرض وأنواع القلق والاكتئاب، وبالمقابل الآار الإيجابيّة لنمو ما بعد الصدمة، وكانت هذه الدراسات عيّنة بحثيّة لأبحاث كثيرة تناولت لأعراض كثيرة لمتغيّر ما بعد الصدمة، ولم أتناول أبحاث للآثار السلبيى للحرب، لكنّها أيضاً تنصبّ في خانة القلق والاكتئاب وغيرها من الآثار السلبية.

- لكنّ هذه الدراسات تناولت الجانب النفسي فحسب، ولم تعكس الجانب الاجتماعيّ، والتغيّر في السلوك العام، بطريقة تحليليّة، فهي حالات فرديّة قد تعكس هذه العينات الطابع العام، لكنّ التحليل الاجتماعيّ

> **بدأ تدخل الولايات المتحدة بأمور الشرق الأوسط مع نهاية الحرب الباردة، ومن خلال هذه الحرب وانتصار قيم الليبرالية الديمقراطية الغربية، صار الانتصار على الأيديولوجيا، وعلى الأفكار الأيديولوجية عبر التاريخ الإنساني، وأن الديمقراطية المعاصرة بديل حضاري للأنظمة الديكتاتورية في العالم، وفكرة الصراع التاريخي المتكرر بين طبقتي السادة والعبيد لانهاية واقعية لها سوى في الديمقراطيات الغربية واقتصاد السوق الحر**

الجمعيّ مرتبط بالتحليل النفسي الفرديّ.

- وقد استفدت من هذه الدراسات في جمع تعريف لما بعد الصدمة ومصطلحات البحث، والآثار السلبية والإيجابيّة من عرض ما بعد الصدمة، وتنفرد هذه الدراسة عن الدراسات السابقة التي اضطلع عليها الباحث في أنّ الباحص يريد أن يتنال الموضوع بطريقة نفسية اجتماعيّة، وأن الحرب التي حصلت شارك فيها أقارب المرضى ومجتمعه، وليس عدوّاً خارجيّاً أو مستعمراً كالحالة الفلسطينيّة، فداعش خليط ما بين متشدّدين أجانب ومتشدّدين محلّيين، والمشكلة الكبرى في أنّ هذا التنظيم يعتمد خطابه على الذاكرة الاجتماعيّة.

القسم النظري

أوّلاً: الحرب

وبال الحرب تاريخياً:

لقد كانت حروب الدولة القومية وبالاً على أوروبا والعالم بأسره، فلم يسلم الشرق الأوسط من هذه الحرب الدموية ولا الصين ولا اليابان، فقد دمرت هيروشيما ونكازاكي وحلبجة عن بكرة أبيها، وكانت الحرب العالمية الأولى والثانية مسرح الدماء، لم يحصل هذا الشيء في التاريخ قط، أن يكون عدد القتلى ٥٠ مليون نسمة، لم تستطع الأوبئة أن تفعل هذا الفعل الشنيع وهذا الإرهاب الوحشيّ، فمن يقف وراء هذا الإرهاب؟ هل إذا أعدمنا تشاوشيسكي وصدام حسين والقذّافي... تنتهي المسألة؟ هل إذا اختفى هتلر تنتهي القصّة؟ فها قد حوكم حسني مبارك، فهل انتهى الإرهاب في مصر؟ لقد مات الفراعنة والنماردة قبل آلاف السنين لكنّ نظام الفراعنة مازال يسري بل بات أكثر توحّشًا من ذي قبل.

لقد كانت الحرب الباردة على أشدّها ما بين الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفيتي، وكانت الحروب طاحنة ما بين المعسكرين (السوفيتي والأميركي) فالشيوعيّون إرهابيّون في نظر الرأسماليين، والرأسماليون إرهابيون في نظر الشيوعيين، والشيوعيون والرأسماليون إرهابيون ملحدون في نظر الإسلامويين، والإسلامويون يفجّرون أنفسهم، والمعسكران يدعمان الإسلامويين (الشيعة والسنّة على السواء).

الصراع العالميّ:

إنّ الصراع دائمًا ما بين قطبين: كلاهما يدّعي أنّ الطرف المقابل إرهابي، وكلاهما ينتهج نفس المنهج (منهج السلطة والشهوة والمال) وقد تطوّر هذا الصراع إلى أن وصل إلى حالات معقّدة فوضوية في القرن الواحد والعشرين، مع انهيار برجَي التجارة العالميتين، «ففي أواخر التسعينيات عندما أعلن أسامة بن لادن الحرب على الولايات المتحدة الأميركية بتفجير سفارتيها في تنزانيا وكينيا، قام سلاح الجوّ الأمريكي بقصف صاروخيّ لأحد معسكراته في أفغانستان، وكأنّه عبارة عن دولة بحدّ ذاته. لنفكرّ في الأمر مليًّا: في يوم واحد، في سنة ١٩٩٨، أطلقت الولايات المتحدة ٧٥ صاروخًا، على شخص واحد! وتلك كانت أوّل حرب

في التاريخ تقع بين دولة عظمى وشخص. أمّا أحداث ١١ أيلول فلم تكن سوى المعركة الثانية في تلك الحرب.» فريدمان، توماس (٢٠٠٦).

لقد بدأت الأمم المتحدة إعلان الحرب على الإرهاب، بالطبع بقيادة الولايات المتحدة، ونشأت فكرة الهجوم بغرض الدفاع عن النفس ضدّ محور الشرّ، وقد بدأت الأحداث تتلاحق، حيث تمّ تفجير سيارة مفخخة في مرآب بناية مركز التجارة العالمية في نيويورك في عام ١٩٩٣، وفي عام ١٩٩٨ تمّ تفجير سفارتَي الولايات المتحدة في دار السلام عاصمة تانزانيا ونيروبي عاصمة كينيا، وبدأت الولايات المتحدة بقصف مواقع في السودان وباكستان، وفي عام ٢٠٠٠ تم تنفيذ إحدى العمليات الانتحارية على ناقلة بحرية في ميناء عدن، وصولاً إلى الانفجار الأهم في ١١ أيلول على برجي التجارة العالميتين وعلى مقر البنتاغون، وقام الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة بوضع استراتيجية عالمية لمكافحة الإرهاب في ٢٠٠٦ تتفق فيها بلدان العالم على نهج استراتيجي موحد لمكافحة الإرهاب، وبدأ مسلسل مكافحة الإرهاب، فلماذا يا ترى بدأت هذه المكافحة الآن؟ هل فقد المجتمع الغربيّ غايته في الوجود؟ هل أصبحت الصين خطرًا كبيرًا على الولايات المتحدة؟ وبالتالي يجب التدخّل في الشرق الأوسط، هل أصبحت الدول الغربية الكلاسيكية (فرنسا – بريطانيا...) هرمة لا تستطيع أن تقود المرحلة القادمة؟ لنعد إلى علاقة الغرب بالشرق الأوسط والولايات المتّحدة على رأسها.

بدأ تدخّل الولايات المتّحدة بأمور الشرق الأوسط مع نهاية الحرب الباردة، فمن خلال هذه الحرب وانتصار قيم الليبرالية الديمقراطيّة الغربيّة، صار الانتصار على الأيديولوجيا، وعلى الأفكار الأيديولوجيّة عبر التاريخ الإنساني، وأضحت الديمقراطية المعاصرة بديلاً حضاريّاً للأنظمة الديكتاتورية في العالم، وفكرة الصراع التاريخي المتكرر بين طبقتَي السادة والعبيد لا نهاية واقعية لها سوى في الديمقراطيات الغربية واقتصاد السوق الحر، وأنّ الاشتراكية الراديكالية أو الشيوعية لا يمكنها لأسباب عدة أن تتنافس مع الديمقراطية الحديثة، وبالتالي فإنّ المستقبل سيكون للرأسمالية أو الاشتراكية الديمقراطية.

الترويج للحرب:

العجيب في الأمر أنّ هذه الأفكار التي طرحها كلٌّ من هنتغتون وفوكوياما قد انتشرت بسرعة البرق، وارتفع أجر محاضرات فوكوياما إلى أسعار خيالية، وباتت كتب هنتغتون وفوكوياما، تباع منها ملايين النسخ، لطالما تمهّد الطريق أمام إمبراطوريّة الشركات، فالترويج سيكون في أعلى مستوياته، مع العلم أنّ الواقع بات عكس هذه الأطروحات تمامًا، ففكرة نهاية الأيديولوجيات هي نظرية فكرية أيديولوجيا وهي نظام أيديولوجي متكامل، لا يختلف عن الأيديولوجيات السابقة في نفي كلّ أيديولوجيّة سواها، واحتكار الحقيقة، إذ يستحيل تكديس رأس المال وجني الربح من دون أزمة. أي لا يمكن الاصطياد إلّا في الماء العكر، إلّا إذا تضاربت الأوراق، وكانت هناك حاجة مجتمعيّة للتعلّق بهذا النظام، فهو المخلّص من كلّ الأزمات، وإلّا فالحرب ستكون على الأبواب، والمثال السوريّ أقرب إلى هذا الفكرة.

لا يمكن أن نفسّر الرأسماليّة إلّا على أنّها نظام سياسيّ أيديولوجيّ، وإن كانت تحارب الأيديولوجيّات، ففكرة نهاية الأيديولوجيات هي بحدّ ذاتها أيديولوجيّة لا محالة. فكلّ هذه الأزمات في العالم هي من صنيعة الاحتكارات المالية، فالكرة الأرضية مهدّدة، من خلال التلوّث البيئي، والتلوث الالكتروني، والقنابل النووية، والفوضى، ووصول رؤساء غير طبيعيين إلى سدّة الحكم، والفارق الفظيع ما بين طبقتَي التجّار والفقراء، والهوّة تزداد يومًا بعد يوم.

يروّج الإعلام الغربيّ أنّ الحرب العالميّة الثالثة لم تبدأ، ويربطون بدءها باستخدام الأسلحة النووية، لكنّ الحرب العالميّة الثالثة بدأت بانهيار بُرجَي التجارة العالميتين في ٢٠١١ كما أسلفنا.

فلا يمكن الحديث عن غزو العالم إلّا من خلال غزو الشرق الأوسط. ولا يمكن الحديث عن الشرق الأوسط دون الحديث عن العراق. فالعراق وسوريا وتركيا وإيران أو ميزوبوتاميا هي موطن أروع حضارة بشرية وهي حضارة المجتمع الطبيعي الزراعي. وفي العراق بدأت الدولة. وبدأت الحضارة دون التطرّق إلى ما بين النهرين. وهذا ما وعاه الغرب سابقاً من خلال الاستعمار الإنكليزيّ. ومن خلال الهيمنة الجديدة للعالم من خلال التحالف الإنكليزيّ الأميركيّ. فقد تنبّهت أميركا إلى أنّ أيّ تغيير في العالم يجب أن يمرّ عبر البوّابة العراقيّة. لذلك كان التدخّل في العراق عبر حرب الخليج. وكان سقوط صدّام المفاجئ حدثاً جللاً ليس بالنسبة للشرق فحسب. وإنّما بالنسبة للنظام المهيمن نفسه. وهي حتّى الآن تحت تأثير صدمة انهيار دولة قويّة جدّاً مثل العراق بهذه السهولة. في ليلة واحدة فحسب. فما هذا النظام الدولتيّ الذي يقع في ليلة وضحاها؟ وكيف سقطت الدولة القوميّة الشرقيّة بهذه السهولة؟ وما

> **بدا جورج بوش بعد انتصاره في العراق واضحاً، عندما قالها وبعجرفة القرون الوسطى: (من ليس معنا فهو ضدنا)، فهو المنتصر الذي تيقّن أنّه أنهى الحرب، وصدام الحضارات، وأنهى التاريخ، لكنّه لم يدرك أن الشعوب الشرق أوسطية ليّست معه، لذلك سيقوّم من لعده باستمرار تشغيل طاحونة الحرب التي لن تهدأ، وباتت مفردات الديمقراطية وسيلة للربح والإنتاج والسلطّة لا غير**

هو البديل؟ لقد ظنّوا أنّ البديل الليبراليّ سهل التطبيق. كما هو السقوط. فحول ترقيع الدولة القوميّة بالتطبيع الوضعيّ الليبراليّ. وحتّى هذه اللحظة لم يخرجوا من مستنقع العراق. ولن يخرجوا.

قاعدة الحروب:

لقد كان استلام إيران دفّة الحكم بيسر ودون تكلفة. الأمر الذي جعلت أميركا والغرب في دهشة لا مثيل لها. فكلّ هذه التكاليف الباهظة للحرب على العراق وتأتي إيران التي تعرف أسرار الشرق لتستلم الحكم وتحصد كلّ الثمار. ولا تُبقي شيئاً للذين خطّطوا ونظّموا.

بدا جورج بوش بعد انتصاره - بادئ الأمر - في العراق واضحاً. عندما قالها دون مواربة سياسية. وبعجرفة القرون الوسطى: (من ليس معنا فهو ضدّنا). فهو المنتصر الذي تيقّن أنّه أنهى الحرب. وصدام الحضارات. وأنهى التاريخ. لكنّه لم يدرك أنّ الشعوب الشرق أوسطيّة ليست معه. لذلك سيقوم من لعده باستمرار تشغيل طاحونة الحرب التي لن تهدأ. وباتت مفردات الديمقراطيّة وسيلة للربح والإنتاج والسلطة لا غير.

يوجد دائماً عبر هذه الحرب الضروس في الشرق الأوسط اتّفاقٌ ما بين المركز الأميركيّ وبين الأطراف. وهناك ضحيّة أو ورقة يجب التخلّص منها لكن في حينها. ففي الأزمة الليبيّة كان قرار التخلّص من القذّافي قد اتّخذ. وكذلك في مصر وتونس واليمن. لكن في سوريا لم يُتّخذ قرار التخلّص من الأسد بعد. فمن الغباء نعت هذا الصراع الحاصل في سوريا والشرق الأوسط بصراع بين الاشتراكيّة والرأسماليّة. أو بين الشيعة والسنّة. أو بين النظام والمعارضة. بين الشعب الكرديّ والتركيّ أو العربيّ... إلى ما هنالك من الثنائيات التي خُلِقت مع هذه الحرب المفتعلة بين القوى الرأسماليّة التي تريد أن تجعل أيديولوجيّتها هي السائدة. فهذه السلطة المركزيّة الأميركيّة بهيمنتها على الاقتصاد

مرغمة على إكمال ذاتها بالهيمنة الأيديولوجيّة النيوليبراليّة بمساعدة الدول الأطراف على الشرق الأوسط. فكيف سيستطيع بوتين ضرْب التنظيمات الإرهابيّة دون التنسيق بينها وبين أميركا؟ فأيّ خطأ سيؤدّي إلى كارثة دوليّة.

افتعال الحروب في الشرق:

كان قرار إنهاء آخر معقل من معاقل الاشتراكيّة في الشرق الأوسط، قد اتّخذ في عام ١٩٩٩ من قِبل إسرائيل وأميركا، وذلك بإنهاء حزب العمال الكردستانيّ من خلال اعتقال قائد الحزب؛ عبد الله أوجالان، وإنهاء القضية الكرديّة من خلال التسرّب إلى الحزب في قنديل عبر قنواتها الاستخباراتية لتبثّ الفكر الليبراليّ، وتميّع الثورة عن طريق التصفويين. لكنّ أميركا كانت تريد أن تضرب الكرد والدولة التركيّة في آن واحد، وذلك بتصفية الحزب الثوريّ، وجرّ تركيا إلى دوّامة الحرب، وكي تغرق تركيا في وحل الحرب، وتشتعل المنطقة عبر القناة التركيّة، ليدير الغرب الرأسماليّ دفّة الحياة الشرق أوسطيّة بعد أن تنهك الأطراف جميعها، وهذه السياسة هي سياسة تقليديّة لدى الاستعمار، في خلق النزاعات وإضعاف الأطراف ومجيئها كدور المنقذ، فلكي تستمر مواردهم الاقتصادية فيجب أن تستمر الحرب.

إنّها حرب استنزاف بكلّ معنى الكلمة، حرب إرهاق المجتمعات لإرضاخها على قبول هذا اللبوس الذي لا يُعدّ لبوسها، تريد هذه المنظومة العالميّة أن تلحق الجميع بركب هذا النظام، وتُركع كلّ الإرادات وتجعلها تستسلم إلى سطوتها، وكأنّه يقول: (فإمّا أن تكونوا معي بالإيمان بمشروعي الإلهي، أو سأمزّقكم إرباً إرباً، فسأشرّدكم وأقصف منازلكم، وأبيدكم، فإمّا أن تنصهروا أو تُبيدوا، وسأصادر العقول منكم ليبنوا دولتي، وسأحرق الباقي.)

إنّ الحداثة الرأسماليّة تلجأ إلى قراءة تاريخ الشرق الأوسط، ليس لشيء؛ إنّما لاستخلاص الخلافات الأثنيّة والعرقيّة والجروح الغائرة في القدم، والتي صارت في طيّ النسيان لنبشها وتأجيجها، فمازال شعارها الدؤوب (فرّقْ تسُدْ) بالفرقة تصبح سيّداً، ومازالت الدولة تختال بهذه المصطلحات اللاأخلاقيّة، وتفتخر بها.

إنّ نظريّة استنزاف القوى، وغياب المشروع الديمقراطيّ هما اللذان قد ولّدا داعش، فمن الغباء تفسير ظهور داعش في هذه البيئة، إن كان هناك حلّ أو أيديولوجيّة واضحة، أو إذا كان الحلّ الدولتيّ فعّالاً، أو إذا كانت الديمقراطيّة السلطويّة تنصبّ في خدمة المجتمع، إنّ هذه الأرض كانت أرضيّة خصبة لولادة هذا الوحش بعد غياب وضوح الرؤية وانهيار قدسيّة الدولة القوميّة بسرعة البرق، هذا الانهيار الذي صعق الغرب قبل الشرق، لذلك كان البديل الداعشيّ الحلّ الرائع والوصفة السحريّة لعقم الحلول البديلة عن الدولة القوميّة، حتّى يتمّ ترميمها من جديد، بعد رسم الحدود من قبل هذا الهجين الداعشيّ، والذي يعدّ أفضل وسيلة لتوجيه بوصلة الحرب أينما أراد النظام المهيمن، وكذلك لقتل كلّ هذه القيم المتراكمة في الذاكرة الشرقيّة من خلال التشويه الداعشيّ للتاريخ والحضارة الشرقيّة هذا عدا عن إبادة الآثار ومحو معالم المنطقة حول الفرات ودجلة، فقد كان خلق داعش في هذه البقعة الحضارية ليس بالمصادفة بمكان، هذا بالإضافة إلى أنّه تنظيم منقطع السلالة عن التنظيمات الراديكاليّة المعهودة كالقاعدة وغيرها، وإن لم تكن تختلف عنها كثيراً، وما تدمير القاعدة لتماثيل بوذا في أفغانستان، وتدمير حضارة ما بين النهرين من قبل داعش إلّا استمرارٌ لهذا التلاقح غير الطبيعيّ بين الحداثة الرأسماليّة الغربيّة وبين الشرق، فعلى الرغم من أنّ الحضارة الإسلاميّة استمرت أكثر من أربعة عشر قرناً على هذه المنطقة لكنّها لم تدمّر هذه المعالم التاريخيّة ولم تمحُ كلّ هذه الذاكرة كما تفعل الآن هذه التنظيمات الهجينيّة.

الحرب والسلطة:

فظاهرتَا الحرب والسلطة على الرغم من كونهما

من أقدم المؤسسات القائمة في المنطقة، إلّا أنّ العلاقة بينهما وبين الحياة الاجتماعية والاقتصادية، تعاني من انقطاع ومفارقات مذهلة، ولم يستسغ المجتمع الشرقي هذه الظاهرة، ولم تتجذّر في أنزياته. فالعراق على سبيل المثال كان في حالة ثورة دائمة، فلم يستطع الحجاج ولا زياد بن أبيه ولا قبل من النماردة والسلاطين والأباطرة والأكاسرة من إركاع هذا الشعب، فكان الحلّ المؤقّت يقبع في الديكتاتوريّة الصارمة التي تدلّ على عجز الحكم إلّا بالرعب، ولم يستسلم هذا الشعب عبر تاريخه المديد للأوليغارشيّة البعيدة عن الشعب، فقد كانوا يغردون خارج السرب أبداً.

من المحال تحليل الشرق الأوسط بالأسلوب العلميّ الوضعيّ الالذي بلغي الجانب الروحي للشرق، فهذا الأسلوب لا يأخذ بالحسبان الميثولوجيّات والأديان والفلسفات التي انبثقت من لدن هذا الشرق ولا التصوّف ولا الأدب.... فذاتيّة الشرق المثالية تتميّز بتفوقها اللامحدود على موضوعيّة الغرب البحتة، بمعالجتها الأخلاقيات الموجودة في المجتمع والطبيعة على السواء، وعلاقة الإنسان الشرقيّ بالطبيعة، وهناك يكمن موطن الاغتراب التحليليّ اللامحدود.

لم يعِ الغرب أنّه من العسير استسلام الشرق الأوسط لهذه الثقافات الخارجية والعصرية، وبات من المحال صهرها هذا الصهر الصارم في بوتقتها، لذلك باتت الحرب العنوان الرئيس لهذه الممارسة الاستسلاميّة الهروبيّة من الحلّ.

كلّ المقاومات التي حصلت تجاه الحداثة الرأسمالية في العالم على الصعيد الثقافي باتت بالفشل، عدا منطقة الشرق الأوسط، فكلّ من قاوم الحداثة الرأسماليّة كالصين وروسيا على سبيل المثال، قد انصهر في سيل الحداثة الرأسماليّة الذي جرفها دون استسلام، فهذا برهان ناصع على رسوخ البنية الثقافية في الشرق على الصعيدين التاريخيّ والاجتماعيّ.

الحرب على سوريا:

لماذا كلّ هذا التكالب على الشرق الأوسط، موطن الأديان والحضارات والأيديولوجيات، موطن المجتمع الزراعيّ النيوليتيّ، موطن أوّل نشوء للدولة التي لم تتغيّر معالمها منذ الدولة السومريّة حتّى الآن، لذلك حصرت معارك التصفيّة وتغيير النظام العالميّ لبوسه في هذا الشرق، إذْ بعد انتقال مركز الحضارة من الشرق إلى العرب بات هذا الشرق موطن الأفعى الغربيّة التي تعيد تجديد جلدها في هذا البقعة.

يشكل مجتمع الشرق الأوسط الخلية النواة لجميع المجتمعات، إذْ أنّ هذا النظام العالميّ كما يبدو أنّه لم يستطع تحقيق بسط أيديولوجيته الليبراليّة في منطقة الشرق الأوسط، فالحقيقة البادية للعيان، أنّ الحداثة الرأسمالية في الألفية الثالثة قد صعّدت من وتيرة الأزمة في الشرق الأوسط، وهي حقيقة الحرب فحسب، فكل شهر يتأزّم الموقف أكثر فأكثر، وما هذه المعاهدات والاتفاقيات الدوليّة كمؤتمرات جنيف أو إسطنبول أو غيرها من الاتفاقيّات اللاحلّيّة إلّا وبالاً على المنطقة وتطوّراً نحو العقم والفوضى وازدياد وتيرة الحرب، فالمنطقة تشهد حرباً عالميّة ثالثة، حرباً لها خاصّيّة تختلف عن سابقتها من الحربين العالميتين الأولى والثانيّة على الصُعد عامّة، إنّها الحرب الأكثر فوضويّة وعشوائيّة ولاإنسانيّة على مرّ التاريخ.

فالقول السائد: إنّ العصور الوسطى من أكثر العصور ظلمة في التاريخ، ما هو إلّا محض افتراء، وتزوير قدّمه التنويريون على أنّ هذا العصر الحديث هو عصر الخلاص الأزليّ، ونهاية التاريخ كما صوّره فوكوياما في كتابه: (نهاية التاريخ).

لقد ضاع الشعب السوري ما بين استراتيجية التخلص من رئيس سوريا، واستراتيجية التخلص من الذين يحاربونه، واستراتيجية محاربة داعش فحسب، واستراتيجية محاربة المعارضة المعتدلة وغير المعتدلة، مع أنّ أميركا لم توضّح حتّى الآن من هم المعتدلون، فالنصرة مصنّفة ضمن قائمة الإرهاب قبل أن يشتدّ عود داعش، لكنّ أميركا لم تتّخذ قرار الحرب عليها.

لقد فاقت هذه الحرب الخيال، إذْ بات المحلّلون في حيرة من أمرهم في تقديم صورة واضحة لما يجري، فالمملكة السعوديّة على سبيل المثال، تحارب الشيعة من جهة، وتتحالف مع أردوغان في التحالف السنّي، وتدعم بعض الفصائل الإرهابيّة في سوريا، ومن جهة تعدم كلّ شخص ينتمي إلى هذه الفصائل في مملكتها، وتحارب داعش، وتساند السيسيّ الذي يعدّ العدوّ اللدود لتركيا، وكذلك ينطبق التناقض نفسه على بقيّة الأطراف المتصارعة، أيّ أنّ الصراع هو صراع الهيمنة وليس صراع الحضارات كما يتمّ تصويره، فكلمة الفوضى التي باتت شعار هذا القرن يعبّر عن الفوضى التي تعيشها الدولة والنظام العالميّ على حدّ سواء، وليس كما يتمّ تصويره على أنّه خلق حالة الفوضى، فمن كان شعاره؛ (زرع الفوضى) يقدّمُ في الوقت عينه دليلاً قويّاً على أنّه يعيش حالة الفوضى واللاستقرار والتداعي.

إنّ اللا أخلاق بل قمّة الانحطاط الأخلاقيّ يعدّ الشعار الرئيس لهذه الحرب الفوضويّة، فسيول الدماء تجري، والتهجير والقصف، والتشريد، واللا استقرار، إنّها الدولة التي تُبنى أبداً على الجماجم والدماء، والقتل والتدمير....

لقد باتت هيئة الأمم المتحدة التي تعدّ في أساسها (اتحاد الدول القومية المصدر الرئيس للمشاكل)، فوجودها وعدم وجودها سواء، بل إذا كانت غائبة كان أفضل للجميع، وصارت مفردات الاستهجان والقلق التي تخرج من فم رئيسها محطّ سخريّة ونقد على ألسنة المجتمعات عامّة.

هذا بالإضافة إلى اللقاءات السرّيّة التي جرت ومازالت تجري في الخفاء بعيداً عن الشعب، كما حصل في اتفاقيات (سايكس بيكو، بلفور وغيرها..) من الاتفاقيّات، وقد بات الحديث عن اليهود، ودولة إسرائيل في مغبّ النسيان، وكأنّ هذه الدولة قد صارت المنطقة الآمنة الوحيدة في المنطقة، مع أنّها كانت أشدّ المناطق سخونة في الشرق الأوسط.

"إنّها حرب استنزاف بكل معنى الكلمة، حرب إرهاق المجتّمعات لإرضاخها على قبول هذا اللبوس الذي لا يعدّ لبوسها، تريد هذه المنظومةُ العالمية أن تلحق الجميع بركب هذا النّظام، وتركع كل الإرادات وتجعلها تستسلم إلىّ سطوتها، وكأنّه يقول:(فإما أن تكونوا معي بالإيمان بمشروعي الإلهي، أو سأمزقكم، فسأشردكم وأقصف منازلكمّ، وأبيدكم، ّ فإما أن تنصهروا أو تبيدوا، وسأصادر أصحاب العقول منكم، وأحرق الباقي.)"

أسرار كبرى لا تقتنع الحداثة الرأسماليّة بها تكمن وراء الأزمة التي يعانيها الشرق الأوسط، فالخطأ الفادح الذي وقعت فيه الوضعيّة العلميّة العقيمة في تحليل روح الشرق الأوسط هو تحليل الروح بالمادة، إذْ لا يمكن تحليل ثقافة الشرق الأوسط بالأيديولوجيات الجافّة والعلوم الوضعية للحداثة الأوروبيّة.

فالدولة القوميّة هي المشكلة بحدّ ذاتها، وكلّ الدول القوميّة شيدت بالحرب، فلا يمكن الحديث عن الدولة القومية دون الحديث عن الحرب، ولا توجد دولة قوميّة واحدة في الشرق الأوسط خاليّة من الصراعات، والحروب المريرة والنزاعات والحزازيّات والتوترات الأزليّة التي لا حلّ لها بالوصفات القوميّة الجاهزة.

انظر إلى كلّ بقع التوتر غير المنتهية (الهندوس والمسلمين، السيخ، كشمير، الأويغور، أفغانستان، باكستان، الدول العربية، إيران، تركيا، والكرد مع الدول الأربعة التي تعيش فيها.... والقائمة تطول... كلّها فيها حروب لا تهدأ، فمن هو

المسبّب الرئيس سوى هجين الدولة القوميّة؟

في هذه الحرب الضروس ثمّة فراغ في مخيلة الرأسماليّة ألا وهو سقوط الدولة القوميّة المحتوم الركن المهمّ للحداثة الرأسماليّة، وهم في بحث عن الحلّ البديل الذي يرضي طموحاتهم في فائض الإنتاج والربح الأعظميّ؛ إذاً هو ترميم بقايا الدولة القوميّة الساقطة، وهي أزمة بنيويّة في أساسيات الحداثة الرأسماليّة، فتداعي الدولة القوميّة في الشرق يعني إمكانيّة تداعيها في الغرب، بل الحتميّة التاريخيّة تثبت ذلك، لذلك نعيد ونكرّر إنّ الحداثة الرأسماليّة تجدّد نفسها في الشرق الأوسط.

لا يمكن الحديث عن هذه الحرب بمنطق السلطة الضيّق، فقد تجاوزت مفهوم السلطة لدى أولئك السلطويين الصغار في المنطقة، لقد صارت الحرب أكبر منهم حتّى، فهذا النظام يمتلك من الحيلة والبراعة ليستلم زمام الأمور من أيّ قائد، ويحوّلها إلى غيره إذا اقتضت الضرورة، فأمثلة ولاية قطر الأميركيّة وسوريا التي لا تعرف من يقودها وتركيا المتخبّطة... حاضرة في هذا المجال.

إنّ هذه الحرب المستعرة المجنونة في هذا الشرق المدمّى، هي حرب ذهنيّة ثقافيّة، فالشعوب بطبيعتها لا تعرف العداء، ولم يهضم المجتمع الشرقي هذه الوصفة السحريّة الغربيّة الغريبة، إذْ من المحال أن يهضم الشرقيّ ذي الثقافة الممتدة إلى عشرة آلاف عام وأكثر ثقافة قرنين من الزمان، مهما كانت الرائحة عبقة، حتّى أنّ العطور الشرقيّة في السعوديّة أغلى من العطور الغربيّة، وأكثر رواجاً.

لقد دعمت الدول الغربية نشوء التيّارات الإسلامويّة، وساعدت في تنميتها وتطوّرها، وقد ساهمت الإسلامويّة في تدمير الشرق الأوسط، ونشأت الصراعات فيما بين هذه التيّارات نفسها؛ (الإسلام الشيعي – الوهابيّة – الأخوان المسلمون – القاعدة – داعش...) فتفسّخ الشرق الأوسط، وبات على شفير الهاوية، فأرسل الغرب المبشَّرين بالحداثة الرأسماليّة أمثال فوكوياما وهنتغتون ليخلّصوا هذا الشرق من الوباء، ويدعوهم إلى الدين الجديد؛ وهو العالم الليبرالي في النظام المهيمن الحالي (المنقذ، أو الحلّ السحريّ)، بالمقابل ضعُفت الدولة الاشتراكية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانحدار روسيا في هاوية النظام العالمي الجديد، فصارت روسيا تابعاً للولايات المتّحدة بعد أن كانت ندّاً له.

عندما قامت التجمّعات السلميّة في سوريا، والتي كانت تعبّر في بداياتها عن الحقيقة الاجتماعيّة في سوريا، كانت الشعارات في كوباني وقامشلو وعفرين تساند الحراك السلمي في درعا وحمص وغيرها من المناطق السوريّة بالطرق الحضاريّة التي تنادي بالحرّيّة والمساواة، وما كان من أهالي درعا وغيرها من المدن خارج غربيّ كردستان إلّا الالتفاف حول الشعب الكرديّ، والتعبير له عن أسفها غير الواضح والمغلّف برائحة المؤامرة، لعدم مساندتها الكرد في ثورة ٢٠٠٤، وتراجعت عن أسفها بسهولة بعد فترة من خلال منظّري الثورة الذين انخرطو في صفوف تجّار الحروب من الأصوليين الإسلاميين الذين نهبوا الحراك الإصلاحي.

كانت هذه الانطلاقة هي المعيار الأخلاقي السياسيّ للتعبير عن الحالة الاجتماعيّة السويّة التي آلت إليها، قبل أن يتسلّل المتسلّلون الطبقيّون ليحوّروها عن مسارها، ويصبغوها بطابع إسلاميّ في التفرّد والهيمنة والنزعة القوميّة الإسلاميّة الأحاديّة التي تنفي ثقافات الشعوب، فبعد أيّام لا أكثر جعلوا الجامع المنبر الوحيد لانطلاقة المظاهرات، إلى أن وصلت إلى حالة التشرذم والانحطاط الأخلاقيّ الذي آلت إليه.

لقد كانت الثورة في بداياتها ضدّ السلطة، وسرعان ما تحوّلت إلى استهداف شخص واحد بعينه، وهي العلّاقة التي مازال الائتلاف يعلّق عليها ثورته، فباتت تصوّر الجنة الموعودة في رحيل شخص محدّد، مع أنّ كلّ المؤشرات كانت تشير إلى استحالة رحيله في وقت مبكّر، فمن

الغباء أن تقول: - إنّ منظّري الثورة في الخارج لم يعوا هذه النقطة، بل أدركوها جيداً، وعرفوا ما سيصيب سوريا.

من كان ليقنع المنتفض في درعا أنّ المال سيفضي به إلى هذه الحال، وأنّ هذه الثورة ستتحوّل إلى اقتتال طائفيّ عرقيّ أثنيّ بحجّة الثورة، وتتحوّل إلى ثورة مضادّة، حتّى أنّ مفردات ومصطلحات الثورة قد أُزيلت من قواميس الكتائب الإسلاميّة، وبات الوضع دولة راديكاليّة تريد أن تفرض هيمنتها بلغة القوميّة الأصوليّة والشرائعيّة الأصوليّة المدمّرة، وبات الانسياق إلى الخارج هو البحث عن الحلّ، فما يجري على الأرض السوريّة هو تحقيق لمصالح من هو خارج سوريا، فكلّ ما هو علاقة بمسألة النسيج الاجتماعيّ ومسألة التوافق والمشاركة والحلول لا يلقى أيّة التفاتة من أيّ طرف في معادلة (النظام والمعارضة) فالحرب التي تحصل هي حرب نفوذ، إمّا يتقلّص نفوذ فلان أو يزيد نفوذ فلان.

من يتتبّع ربيع الشعوب - الذي أطلق عليه إعلام الحداثة الرأسمالية اسم الربيع العربيّ - الذي انطلق من تونس، والذي اختصر في مصطلح الربيع العربيّ ليصبغ أولئك القوميّون الثورةَ بطابع قوميّ، فقد صوّروا أنّ العربيّ وحده يشعر بالقمع والاستغلال، وكأنّه متفرّد بالنهوض من الغفلة؛ ولكي يحصل شرخ ما بين العرب والمكوّنات الأخرى، وذلك لإبعاد الأثنيّات والقوميات الأخرى عن ساحة الصراع في الشرق الأوسط وهذا هو جوهر فكر الحداثة الرأسماليّة، من خلال إبعاد الأقلّيات عن الحياة، وحتّى وضعوا بعضاً من الكرد والسريان والمسيحيين في الواجهة فإنّهم دمى لا إرادة لها، لأنّهم أشخاص لا يعبّرون عن الواقع، ولكي يكونوا في الطرف الآخر من الصراع.

عندما انتقلت الثورة إلى سوريا بعد مرورها بمصر وليبيا واليمن، وبدأت الانتفاضة الشعبيّة التي تحوّلت إلى ساحة صراع، استطاعتْ الدول أن تتّفق فيما بينها لتقسيم الإرادات وسلبها، فكيف لدولة قامعة لشعبها وتؤيد شعباً ثائراً في دولة أخرى؟ وما كان أيّ حلّ طرحته الدول التي تؤمن بمبدأ استغلال شعوبها إلّا ويصبّ ضد إرادة الجماهير، ففاقد الشيء لا يعطيه.

إنّ النخب اليساريّة والليبراليّة والقوميّة والإسلاميّة العربيّة التي ذاقت الويلات على يد نظام البعث السوريّ والتي عرفت معنى القمع، والتي كان اسمها يلمع وينير الطريق أمام متطلّعي الحرّيّة، قد وصلت إلى درجة من الحنق والغيظ أمام كلّ انتصار للشعوب المتطلّعة إلى الحرّيّة، وباتوا يصفون انتصارات الكرد وانتصارات الشعوب في الشمال السوريّ بالحرب التي تقسّم سوريا على يد الكرد الأشرار حسب وصفهم، ليصلوا إلى مرحلة متصاعدة من قلّة الحيلة في إيجاد مشروع بديل عن مشاريعهم الفاشلة، إذْ أضحى مشروعهم الوحيد هو الارتماء في أحضان السلطان التركيّ. ووصلت معظم هذه النخبة إلى مرتبة الانحطاط الأخلاقيّ، حتّ وصل الأمر بأحد المفكّرين المحسوبين على تيار النهضة الفكريّة الحديثة كعبد الرزاق عيد بشتم فتياتِ الكرد المقاتلات بكلمات عاهرة، بالإضافة إلى التشويه الإعلاميّ، والنفاق والكذب والمؤامرات.. إلى ما هنالك من ألفاظ سوقيّة من المفترض ألّا يستخدموها حسب الإتكيت الإعلاميّ، فلم يبق أي نوع من أنواع الذوق الإعلامي، وخاصّة قناة الجزيرة التي أضحت منبراً سوقيّاً لمفردات لم تكن تستخدم على المنابر الإعلاميّة، فأضحوا لا يسبّون داعش الذي جعل نساءهم أسرى، وجعلهم مشرّدين، حيث خطفَ النساء والأملاك وقتلَ الرجال والأطفال والنساء، وخرّب مسيرة الحياة اليوميّة، ففي كلّ قريّة تتحرّر من براثن داعش هناك قصص وملاحم وأساطير، فالأحرى بهم أن يخلّدوا بطولات هذه القوّات التي حرّرت أخوتهم من براثن داعش، لا أن يحاربوا الحُرّات العفيفات، فقد كان الأحرى بهم أن يروا إيروس التي في داخلهم، التي اجتاحتهم، وقتلت كلّ شرف فيهم، حتى أوصلتهم إلى مرحلة قذف المحصّنات، فلم يبقَ عمل لا أخلاقيّ إلّا وقاموا به قادة الثورة المضادّة الذين ابتعدوا الآن عن الشعوب

”لقد فاقت هذه الحرب الخيال، إذ بات المحلّلون في حيرة من أمرهم في تقديم صورة واضحة لما يجري، فالمملكة السعودية على سبيل المثال، تحارب الشيعة من جهة، وتتحالف مع أردوغان في التحالف السنّي، وتدعم بعض الفصائل الإرهابية في سوريا، ومن جهة تعدّم كل شخص ينتمي إلى هذه الفصائل في مملكتها، وتحارب داعش، وتساند السيسيّ الذي يعدّ العدو اللدود لتركيا“

وصاروا في المهجر يستمتعون بالمال الذي نهبوه، فقُتِل المفكر الشرقيّ الذي كان منارة تهتدي بها الشعوب والمجتمعات المضطهدة، وضاعت النهضة الفكريّة بموتهم، لكنّ الإيجابيّ في الموضوع أنّ القوميّة ماتت معهم.

داعش والحرب:

إنّ ما جرى على السّاحة الفكرية في سوريا ومصر والعراق وليبيا وكلّ الدول التي ميّعت ربيع الشعوب، ونسبتها إلى العرب فحسب، كأنّها تقول للشعوب الأخرى: - لا تثوروا حتى نصفّي حساباتنا مع العرب.

لذلك تخبّطت الرؤى والنّظرة للحضارة، وبات تراكم الوعي فيها تراكما عشوائيّاً متخبّطاً، فمن خلال مجتمع كرديّ إسلاميّ عشائريّ إقطاعيّ، إلى نظرة الأحزاب العلمانيّة اللاديمقراطيّة، أو النّخبويّة، أو الماركسيّة أو الليبراليّة التي لم تحدّد هويّتها بعد، فأيّة نظرة للكون تنظر إليها الطبقات هي نظرة فسيفسائيّة تجمع بين التراكمات الثقافيّة التناقضيّة، فحتّى أنّ مفهوم الثورة قد تشوّه، وكأنّها فرز طبقيّ جديد، لذلك تشكّلت الآن النظرة الهروبيّة في الابتعاد عن الحضارة المجتمعيّة (الثورة الزراعيّة النيوليتية)، فصار الهروب من التاريخ هو قمّة الحضارة، واللجوء إلى أوربا هو الحضارة عينها، لذلك ترى تهشّم الرّؤى وتضارب الأفكار والآراء وعدم نضوج الوعي، وعدم وصول الوعي السّياسيّ المجتمعيّ الأخلاقيّ إلى القدرة على حلّ المشكلات السّياسيّة، والوصول إلى بذور وجذور المشكلة، فإنّك تجد هذه الحالة الاستثنائيّة في مصير شعوب الشرق الأوسط من خلال صعود تيارَين رئيسين، هما تيار (المع أو الضّدّ)، وهذا ما انتهجته الأقلّيّات والأثنيّات والطّوائف الآن، وهي ميزة من ميزات الرأسماليّة الشرقيّة.

لقد كانت ممارسات داعش وغيرها من التنظيمات الإرهابيّة الوحشيّة تحتوي على عصارة تراكمات مرَضِيّة عبر سنوات القهر والظلم، قادرة على أن تؤجّج تلك الأمراض التي توهِم الشعب أنّه قد تخلّص منها مع بدايات الثورة السوريّة.

كان دمج الليبرالية بالدين، ودمج الاشتراكية بالقومية إحدى المصاعب التي أدّت إلى خلق هجين غير طبيعيّ مرافق للتعصّب، فالتعصّبُ بحدّ ذاته خروجٌ عن المنطق، ودمج التعصّب الدينيّ بالليبراليّة أيضاً خروج عن المنطق، وبالتالي خروج فكره مشوّه أدّى إلى خلق بذور الصراعات والتناحرات التي أدّت إلى هذا التشرذم الثقافي وتشظّي الذهنيّة الشرقيّة، فخرجت تيارات هاربة من هذا التطرّف إلى الغلوّ في السلفية والعودة إلى الماضي كـــ (داعش) وأيضاً الهروب إلى الكنف الغربيّ والاستئصال من الجذور (الهجرة من الشرق إلى الغرب)، والابتعاد عن الهوية واللجوء إلى العبثيّة.

لم يكن هناك خيار للمثقّف إلّا الاشتراكيّة أو الرأسماليّة، إمّا اليمين وإمّا اليسار، أو دمجها وتطعيمها بالقومية والدين، لذلك أصبح المكان مرتعاً خصباً للعودة إلى الذاكرة، والتاريخ المجيد.

في العودة إلى سيرة حياة الخلفاء والأنبياء والقادة والسلاطين، والعودة إلى السلف الصالح، فكان أرضيّة خصبة لنشوء التيارات الراديكالية المتعصّبة التي وصلت إلى داعش، وبالطبع أثّر كلّ هذا على مناحي الحياة كلّها، وعلى الفنون على وجه الخصوص.

داعش والصدمة:

كانت الدولة الإسلاميّة (داعش) في ذروة التعصّب الدينيّ عبر التاريخ، وهي خلاصة التاريخ التعصّبيّ للثيوقراطيّة الإسلاميّة، وهي امتداد للتاريخ الدمويّ للجماعات التكفيريّة الحالمة بالسلطة منذ الخلافات الدمويّة بعد الخلافة الراشدية، مرورًا بالخوارج والدمويّة الأمويّة، والسواد الفاشيّ العباسيّ وصولًا إلى الأخوان المسلمين فالقاعدة فداعش، وكانت الدولة الإسلاميّة القالب الأشدّ وطأ من الفاشيّة القوميّة في ظل الدولة القوميّة ذات النمط الواحد في اللغة الواحدة والثقافة الواحدة، والشعب الواحد.

لقد شوّه داعش الهويّة الإسلاميّة، فاختصر الإسلام في الشهوات (المال – السلطة – النساء) ولا بدّ من الاعتماد على القوّة والعنف، وتدمير المرأة نهائيًّا لبسط السلطة القويّة، ومحاربة كلّ أشكال الضعف، والأقليات ضعيفة أمام الأكثريّة فبالتالي أصبح محاربتها من أساسيّات الدولة الإسلاميّة، لكن هناك التاريخ الذي أوصل هذا الفكر إلى هذه الصورة، كلّ هذا أدّى إلى التشوّه الفكري والنفسيّ.

كان الفقه يعني الفهم والإدراك، لكن بعد ضعف الخلافة الإسلامية العباسيّة والعثمانية وانهيارها صار بمعنى ترديد المعرفة وتطبيق النص كما فهمه القدماء، والتعلّق بالماضي السلف الذي بات خيرا من الخلف، فصورة المجد التليد باتت ضمن ذهنية المتفقهين، والسّابقون هم الأعلمون، لذلك تقلصَّ الفقه الإسلامي وبات صورة تكرارية عن الماضي، وأضحى تيار المحافظين الإسلاميين الجدد يرى أنّ القرآن يحتوي على كلّ المعرفة، بعد أن كانت هناك جلسات فكرية عميقة في بغداد في عصر المأمون، تحوّل الفقه إلى الابتعاد عن الفكر التنويري، وأضحى تنقية الفكر الدينيّ من كلّ التأثيرات الأجنبيّة الهاجس الأساس لدى المتفقّهين الجدد الذين مهّدوا لظهور التيّارات الإسلامية التعصّبيّة المتشدّدة التي مهّدت لظهور داعش، "ثمّ شيطنة الفلسفة والعلوم، فضلًا عن اضطهاد الأقليات والنسّاء، ما أدى إلى موت التبّادل الثقّافي الإسلامي مع المُفكّرين غير المُسلِمين الامر الذي أدى بدوره إلى عقم ثقافي وركود مجتمعي وعلمي. أضف إلى ذلك اكتشاف الطريق البحري المعروف باسم رأس الرّجاء الصّالح من قبل المستكشف البرتغالي فاسكو ديجاما عام ١١٧٧ ممّا ساعد على التقّليل من أهميةّ الشّرق الأوسط عالميّاً.

إنّ تدمير الثقافات الذي وصل إلى تدمير تماثيل بوذا في أفغانستان، وتدمير الآثار في الموصل وصولًا إلى الرقة، ومحاربة كلّ الثقافات العريقة، وانتهاج سياسات متناقضة تجاه الأقليات الأثنيّة، فمن جانب كانت هناك قوميّات من أنحاء العالم كافة حيث انضمّت إلى التنظيم من كل الأعراق والأنساب في العالم، وبالمقابل كانت هناك محاربة للأثنيّات المحلّية، وتكفير للكرد، وعدم القبول أن يتحدّث أحد باللغات المحلّية، وبالطبع تقديس اللغة العربيّة بما أنّها لغة القرآن ولغة أهل الجنّة، وتقديس الشام التي تعتبر أرض الأنبياء، بل الجنّة الموعودة عبر التاريخ الإسلاميّ التي اعتبرت الشام والعراق المليئة بأوصاف الجنّة المختلفة عن الصحراء في شبه الجزيرة العربية؛ مولد الإسلام.

بالمقابل كانت هناك محاربة لكلّ الأقليات الدينيّة غير الإسلاميّة على طريقة داعش، وتكفير كلّ التيارات الإسلاميّة التي لا تمشي على خطا داعش "وإنّ العالم المعاصر شهد بُعدًا جديدًا لخطر فكرة الجهاد مع ظهور أول دولة في القرن الحادي والعشرين ترتكز على مبادئ الشريعة وفكرة سمو الإسلام فوق كل الديانات. ومع ظهور داعش طفا على السطح سؤال: هل

الدواعش يمارسون الإسلام الحقيقي أم يقومون بتزييف الدين لخدمة أهدافهم الخاصّة؟

هنا يقول حامد عبد الصمد: "الإجابة على هذا السؤال تعتبر مشكلة سواء أجبنا بالنفي أو بالإيجاب. فلو قلنا إن داعش "لا" تمثل الإسلام، فمعنى ذلك أنه يمكننا مواصلة تدريس نفس نصوص الإسلام ونفس الآراء الفقهية القديمة وكأن شيئًا لم يكن، ولا داعي لأي إصلاح. لكن لو قلنا إن داعش يمثل الإسلام ويطبق نصوصه بضمير، فهي دعوة صريحة ومباشرة لكل شاب مسلم إما أن يترك الإسلام أو أن يلتحق بداعش.

وهذا ما أدّى إلى تشظّي الشخصيّة، أي أنّ ما قبل داعش كان تمهيداً نفسيّاً لصدمات إثر صدمات.

لقد أصابت الأعمال الإجرامية لداعش الكثير من المسلمين بالذعر من الإسلام المسلّح وجعلتهم أكثر قابلية لفكرة مراجعة التراث ومحاربة الإرهاب باسم الدين. ولكن على الجانب الآخر فإن البعض منهم رأى في داعش بشائر تحقيق الوعد الإلهي. بانتصار الإسلام

كأنَّ الخيار المطروح هو إمّا الإسلام الداعشيّ أو الهروب من الذاكرة الإسلاميّة، وهنا مشكلة البحث عن الهويّة، وكأنّ المواطنيّة هي الحلّ الأمثل، وإلّا صور مجازر داعش أو الخراب في كوباني والرقة والموصل ماثلة أمام الأذهان، وهي ترعب من يرد أن يجعل الإسلام هويّة له.

هذا ما أدّى أن يكون داعش متغيّراً في الذاكرة المجتمعيّة لشعوب شمال وشرق سوريا، فداعش قد غيّر الذهنيّة التواؤميّة التآلفيّة لشعوب المنطقة، وأحيت الذاكرة التعصّبية، من خلال العنف الممارس على الشعوب عامّة، فكلّ من هو ضدّ داعش فهو كافر يجب قتله، وهذا ما أدّى إلى تظاهر معظم الشعوب التي تحت سيطرة داعش بأنّهم مع هذا التنظيم الدموي، وأدّى بكثير من الناس المنخدعين بالشعارات البرّاقة لهم، وهذا ما أدّى إلى كثرة القتلى في صفوف المنتمين لداعش، وموت الكثير من المعارضين، فكثر اليتامى، وكثرت الأرامل، وهذا ما أدّى إلى فرضات ما بعد الصدمة.

صدمات الكوارث الإنسانيّة:

إذا قارنّا ما بين الكوارث الطبيعيّة كالزلازل، والنشاط البركاني، والانهيارات الأرضية، والأمواج المدية، والأعاصير المدارية وغير ذلك من العواصف الشديدة، والزوابع والرياح العاتية، وفيضانات الأنهر والفيضانات الساحلية، وحرائق الغابات والاغبرار المرتبط بها، والجفاف، والعواصف الرملية/الترابية، وتفشي الأمراض...) وما بين كوارث من صنع الإنسان (كالنزاعات، وتحطم الطائرات والقطارات، والحرائق والحوادث الصناعية، والكوارث التكنولوجية أو الطوارئ المعقدة أو النزاعات، والمجاعات، والتشرّد بكلّ أنواعه، والحوادث الصناعية، وحوادث النقل، إضافة إلى التدهور البيئي والتلوث، إضافة إلى انتهاكات حقوق الإنسان.

كلّ هذه الكوارث التي من صنع الإنسان لا تعادل الكوارث الطبيعيّة، فإذا كانت الطبيعة تبحث عن الاستقرار والتوازن البيئي، فالكوارث من صنع البشر هدفها عدائي، وتحقيق مصالح الرأسماليّة، في خلق الفوضى، وتكديس المال، فالرأسمالية تستطيع أن تفعل أيّ شيء في سبيل مصالحها، ولا تعرف معنى الأخلاق أبداً، وصرخات الأمم المتّحدة والمنظمات الإنسانيّة والبيئيّة تذروها رياح الإعلام الذي بيد الرأسمال.

لم يعرف المجتمع الزراعي معنى السطو والسلب والحرق والإبادة والإرهاب وقمع المرأة، حيث كان العقد الاجتماعي عفويًّا بيد المرأة، ولم يكن هناك فائض إنتاج وتكديس له، فالكلّ يأخذ حسب حاجته، ولم يكن هناك احتكار، بل تخزين لبعض المواد للشتاء، لكن مع نشوء المدنية والطبقات والتصنيفات التي جاءت مع المدينة والحضر والتجار ولدت حالات العنف والإرهاب، حيث بدأت المدن تكبر وتتضخم على حساب القرى، إلى أن وصلت إلى حالة غير طبيعية، وباتت كدودة القز تقتات على الريف، فصار هناك فائض للمال، وبدأ الاقتصاد يرتبط بالدولة، في حين كان الاقتصاد

خاصيّة أسروية وعائلية وكلانية. ففي سنوات قليلة شيدت الأهرامات والقصور والمعجزات العمرانية، حتى وصلت إلى ناطحات السحاب والبروج المشيّدة، وبات القرويّ جائعًا لا سبيل له سوى المدينة حيث العمل في المصانع وإن بأجور زهيدة وعمل مضنٍ، وراحت أحلام القريّة وصارت فردوسًا مفقودًا. لقد صوّرت الجنّة على أنّها المكان الذي يهرب فيه الإنسان من عوالم العنف والقوّة والتسلّط، وصارت المدينة مكانًا للمآثم والشرور، فنشأ التذمر والحقد على هذا الظلم في تقسيم الثروات، وهذه الطبقات الغريبة.

وكلّما تضخّمت المدينة تفاوتت طبقاتها، وازدادت الحاجة إلى الموارد الطبيعية خارج المدينة، فيبدأ الغزو والنهب، ويبدأ الطمع والبحث عن مدن أخرى لغزوها، وكلّما ازدادت المدن باتت الحاجة إلى جيش مسلّح مدرّب، ولابدّ من عقيدة تدفع أولئك الجنود للقتال والموت، فلابدّ للعقيدة أن تكون عُنفيّة، ولا تمتلك الدولة إلّا عقائد المجتمع، فلابدّ من تشويه تلك العقائد لتكون في خدمة السلطة والطبقات التجارية والماليّة، وكانت هذه الأسطوانة تعاد من حضارة إلى أخرى.

من سمات الرأسمالية العالميّة أنّها تخرّب الطبيعة، لكن زاد من الأمر هو العبث بالطبيعة، وخلق الكوارث، والأوبئة، (كوباء كورونا، أو خلق الزلازل) وكلّما تقدّم العلم وتطوّر زادت الرفاهية من جانب، لكن من الجانب الآخر والأعمق والخفيّ زادت تعاسة البشر، فالعلم بات سلاحاً مدمّراً بيد الرأسماليّة العالميّة، وصارت الرأسماليّة الشرقيّة تابعاً مخلصاً للرأسماليّة الغربيّة أو العالميّة على حدّ سواء.

التنوّع السوريّ:

إنّ سوريا هي بقعة مقتطعة من منطقة التنوّع الأثني في الشرق الأوسط، ولكلّ أثنيّة امتدادها التاريخي والجغرافي لدول الجوار التي حدّدتها اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٨ التي قسّمت كلّ هذه الأثنيات لحدود لم تراعِ الامتداد الأثنيّ للعرب

"عندما قامت التجمّعات السلمية في سوريا، والتي كانت تعبر في بداياتها عن الحقيقة الاجتماعية في سوريا، كانت الشعارات في كوباني وقامشلو وعفرين تساند الحراك السلمي في درعا وحمص وغيرها بالطرق الحضارية التي تنادي بالحرية والمساواة، وما كان من أهالي المدن خارج غربيّ كردستان إلا التعبير له عن أسفها غير الواضح والمغلف برائحة المؤامرة، لعدم مساندتها الكرد في ثورة ٢٠٠٤"

والكرد والأرمن والسريان والمسيحيين والتركمان والآشوريين والعلويين وباقي الأثنيات والأعراق، فهناك أثنيات في العراق وسوريا وإيران وتركيا، وكذلك المسيحيون، والأرمن... وهناك امتداد عشائري ما بين الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين والسعودية... ناهيك عن التنوّع الأثني التاريخي الكبير في المدن الكبيرة مثل دمشق وحلب وحمص والقامشلي وغيرها.

وتعدّ منطقة سوريا منطقة صراع حضارات عبر تاريخ نشوء الدول، ناهيك عن منطقة حوض الفرات التي كانت حدود الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية طوال عقود من الزمن، وكانت منطقة الهروب من النزاعات، ونستطيع أن نطلق عليها كمنطقة آمنة أو فاصلة لنزوح العديد من الأعراق هربًا من حرب الدول المتصارعة.

كانت منطقة الشرق الأوسط ومازالت نقطةَ الصراع والحضارات، حيث أنّها أولى الأبجديات والفلسفات والأديان، وبالأخصّ الهلال الخصيب، فقد كانت المنطقة الممتدة من أورفا وصولاً

إلى حران وجرابلس إلى حواف الفرات ودجلة وروافدهما. فهي موطن الأديان والأخلاق والثورة ضدّ الظلم والعدوان. موطن الديانتين الإبراهيميّة والزردشتيّة التي غذّت العالم بالفكر والمعرفة والرقيّ والمساواة والمحبة والسلام. والثورة ضدّ الدولة غير الأخلاقيّة.

عندما نريد الحديث عن منطقة ما في الشرق الأوسط علينا أن نذكر الأحداث العظيمة التي أثرت فيها. ولا يفيد كثيراً ربط التاريخ بما قبل الميلاد أو ما بعد الميلاد. فمثلاً الرقة يمكن أن نربطها بما قبل غزو هولاكو وما بعد غزو هولاكو. بما قبل داعش وما بعد داعش... فلا يمكن الحديث عن منطقة شمال وشرق سوريا دون ذكر ما قبل داعش وما بعد داعش.

إنّ ربيع المجتمعات الذي تحوّل عبر محوّري المصطلحات إلى الربيع العربي. قد أخرج النزعات الأقلّيّة وتحوّلت الجماعات المسلّحة إلى جماعات قاتلة فانية للأقليات. وكان خروج المظاهرات من الجوامع في يوم الجمعة إقصاء لكلّ الأقليات المجتمعيّة التي لم تكن راضيّة عن الدولة القوميّة الإقصائيّة. والنظرة الأفلّويّة للحكم في سوريا. عبر توصيفها أنّها حكم الأقلّيّة العلويّة. والتي أصبحت تهمة يمكن أن يكون الحدّ هو الذبح. بمجرّد تهمة النصيرية. والتي تدلّ في مدلولها على استحضار الكلمة التاريخيّة (النصيريّة) التي لم تكن متداولة من قبل. ومن جهة أخرى زرع الخوف من الفناء والدمار الشامل إذا استلم العرب المسلمون السُّنّة الحكم. وبالتالي كان اللعب على وتر الأقلّيات تحايلًا على جوهر الصراع الحقيقي ما بين المجتمع ومفهوم الدولة.

طالما كانت هناك آيات قرآنية تميّز أمّة الإسلام عن بقيّة الأمم. وكانت لها أسباب سياسيّة حينها. ولكن ظلّت هذه الآيات ركائز تعتمد عليها الجماعات التعصّبيّة الإقصائيّة للأقليات. كالآية التي تقول: "كُنتمُ خَيْرَ أمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تأمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتنْهوَنَ عَنِ الْمُنكَرِ" والآيات التي تدلّ على أنّ الإنسان مسيّرٌ وليس مخيّرًا.

لأسماء الله قسمان: قسم يدلّ على الجمال (الجميل. الرحمن. الرحيم..) وقسم يدلّ على الجلال (المنتقم. الجبّار. المتكبّر...). وقد كان الصراع محتدمًا ما بين الجلاليين والجماليين. فالمتصوفة كانوا روّاد الجمال. بينما استند الخلفاء والأمراء إلى الجلال. فتدرّج الدين الإسلاميّ من البساطة إلى التعقيد. فالمذهب المالكيّ على سبيل المثال كان مذهبًا بسيطًا سمحًا مقارنة بالحنفية مرورً بالشافعية وصولًا إلى الحنبلية. حتّى وصلت إلى الوهابية فالقاعديّة فالداعشيّة. ولا ندري غدًا أي مذهب أكثر تشدّدًا وتطرّفًا سوف يولد. فعبر الصيرورة التاريخيّة على مدى أربعة عشر قرنًا انتصر روّاد الجلال وصولًا إلى داعش. وانهزم فكر المتصوفين الذين ظلّوا في عزلتهم عن هذا التيار المتشدّد التكفيري. غير المؤمنين بالحرب وإراقة الدماء. وكانوا يحبون الله فيعبدونه. لا يخشونه فيعبدونه. أو يبحثون عن الشهوات فيعبدونه.

ثانياً: اضطراب ما بعد الصدمة

تعريف اضطراب ما بعد الصدمة(PTSD) :

تؤثّر اضطرابات الشخصيّة تأثيراً سلبياً على الفرد فينخفض تبعاً لذلك إنجازه الأكاديمي. وترتفع درجة القلق لديه. وتكون قدرته على احتمال منخفظة وتتدنى مهاراته الاجتماعيّة ويزداد لديه الخف من المستقبل. واحتمال متدنٍ لتحمل الألم البدني والانفعالي. وتقدير للذات منخفض. وبعض الأشخاص الأسوياء قد يتّصفون ببعض الصفات الشخصيّة المتطرّفة الملاحظة في بعض حالات اضطراب الشخصيّة. ولكن هذا التطرّف في صفاتهم يكون عادة خفيفاً وغير معوق لفعاليات الشخص ولا يجعل الشخص يعاني من الضيق والتوتر ولا تؤدّي لاضطراب علاقاته مع الآخرين.

ويرى العدل. عادل محمد (٢٠٢٠) أنّ ضغوط ما بعد الصدمة تأتي نتيجة التعرّض إلى الحدث الصادم. والحادث الصادم هو حدث حادّ ومفاجئ

ومربك وشديد الوقع على الفرد الذي تعرّض لهذا الحدث سواء أكان هذا الحدث من فعل الإنسان كالحروب والأومات الاقتصاديّة أو من فعل الطبيعة كالزلازل والأعاصير التي تهدد أمن الفرد.

وترى وزارة الصحة السعودية أنّ الاكتئاب؛ هو اضطراب في المزاج يسبب شعورًا متواصلًا بالحزن واليأس وفقدان المتعة، مما يسبب كثيرًا من المشكلات العاطفية والجسدية. والتي بدورها تؤثر في أداء الأنشطة اليومية. وتعرّف اضطراب ما بعد الصدمة على أنّه اضطراب قلق ناتج عن أحداث مرهقة للغاية أو مخيفة أو مؤلمة. يمكن أن تشمل: حوادث الطرق الخطيرة، والاعتداءات الشخصية العنيفة، مثل الاعتداء الجنسي أو السرقة، مشاكل صحية خطيرة، والحروب، وغالبًا ما يستعيد الشخص المصاب باضطراب ما بعد الصدمة الحدث الصادم من خلال الكوابيس وذكريات الماضي.

بالمقابل يعرّف موقع أدلّه اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD) على أنّه مجموعة من ردود الفعل التي يمكن أن تتطور لدى الأشخاص الذين شاهدوا أو مروا بحدث صادم يهدد حياتهم أو سلامتهم (أو حياة وسلامة الآخرين من حولهم، فهو مجموعة من ردود الفعل التي يمكن أن تتطور لدى الأشخاص الذين شاهدوا أو مروا بحدث صادم يهدد حياتهم أو سلامتهم (أو حياة وسلامة الآخرين من حولهم). قد يكون هذا حادث سيارة أو غيره من الحوادث الخطيرة، أو الاعتداء الجسدي أو الجنسي، أو الأحداث الجنائية أو المتعلقة بالحرب أو التعذيب، أو كارثة طبيعية مثل حرائق الغابات أو الفيضانات. تقريباً كل من يعاني من الصدمة لديه ردود فعل ما بعد الصدمة. ومع ذلك، فبالنسبة لبعض الأشخاص، لا تهدأ ردود الفعل هذه في غضون أيام أو أسابيع قليلة، ولكنها تستمر وتعطل حياتهم - وعندها تسمى ردود الفعل باضطراب ما بعد الصدمة، أو بـ (اضطرابُ الإجهاد أو الكرب ما بعد الصدمة) (PTSD).

اضطراب الشخصية هو أحد أنواع الاضطراب العقلي الذي تعاني فيه تصرفات وأداء وظائف ونمط تفكير غير صحي ومتصلب. ويعاني المصاب باضطراب الشخصية مشكلات في فهم المواقف والأشخاص والتعامل معهم. ويؤدي هذا إلى مشكلات كبيرة ووجود حدود في العلاقات والأنشطة الاجتماعية والعمل والمدرسة. فقد لا تدرك في بعض الحالات إصابتك باضطراب الشخصية نظرًا لأن طريقة تفكيرك وتصرفك تبدو طبيعية بالنسبة لك. وقد تلقي باللوم على الآخرين في التحديات التي تواجهك. وعادة ما تبدأ اضطرابات الشخصية في سنوات المراهقة أو بداية مرحلة البلوغ. وهناك العديد من أنواع الاضطرابات الشخصية. وقد تصبح بعض الأنواع أقل ملاحظة خلال منتصف العمر.

ترى منظمة الصحة العالمية أنّ الاضطراب النفسي يتميّز باختلال سريري جسيم في إدراك الفرد أو ضبطه لمشاعره أو سلوكه، وعادة ما يرتبط بالكرب أو بقصور في مجالات مهمة من الأداء، علماً بأن أنواع الاضطرابات النفسية كثيرة ومختلفة. ويُشار إلى الاضطرابات النفسية أيضاً بحالات الصحة النفسية، وهذا المصطلح الأخير أوسع نطاقاً ويشمل الاضطرابات النفسية والإعاقات النفسية والاجتماعية والحالات النفسية (الأخرى) المرتبطة بكرب شديد، أو قصور كبير في الأداء، أو خطر إيذاء النفس. وتركز صحيفة الوقائع هذه على الاضطرابات النفسية المبينة في المراجعة الحادية عشرة للتصنيف الدولي للأمراض (المراجعة الحادية عشرة).

وفي عام ٢٠١٩، كان شخص واحد من كل ٨ أشخاص، أو ٩٧٠ مليون شخص في جميع أنحاء العالم، مصابين باضطراب نفسي، وكان القلق والاكتئاب الشكلين الأكثر شيوعاً من تلك الاضطرابات (١). أمّا عام ٢٠٢٠، فقد شهد ارتفاعاً كبيراً في عدد من يعانون من اضطرابات القلق والاكتئاب بسبب جائحة كوفيد-١٩، حيث تبين التقديرات الأولية زيادة في اضطرابات القلق بنسبة ٢٦٪ واضطرابات الاكتئاب الرئيسية

”اضطراب الحروب هو اضطراب قلق ناتج عن أحداث مرهِقة للغاية أو مخيفةٌ أو مؤلمة، فهو مجموعة من ردود الفعل التي يمكن أن تتطور لدى الأشخاص الذين شاهدوا أو مروا بحدث صادم يهدد حياتهم أو سلامتهم، أو حياة وسلامة الآخرين من حولهم، وكلّ من يعاني من الصدمة لديه ردود فعل ما بعد الصدمة، فبالنسبة لبعض الأشخاص؛ لا تهدأ ردود الفعل خلال أسابيع قليلة“

بنسبة ٢٨٪ خلال عام واحد فقط (٢). ورغم وجود خيارات فعالة في مجالي الوقاية والعلاج، فإن معظم المصابين بالاضطرابات النفسية لا تُتاح لهم رعاية فعالة، كما يعاني كثيرون من الوصم والتمييز وانتهاكات حقوق الإنسان.

يؤثر الاضطراب النفسي على شخص واحد من كل ٨ أشخاص في العالم، وتنطوي الاضطرابات النفسية على اختلالات جسيمة في التفكير أو ضبط المشاعر أو السلوك، وهناك أنواع كثيرة ومختلفة من الاضطرابات النفسية، توجد خيارات فعالة في مجالي الوقاية والعلاج، ولا تُتاح لمعظم الناس رعاية فعالة.

وتؤكّد منظّمة الصحة العالميّة على أنّ معدلات انتشار اضطراب الكرب التّالي للرَّضْح والاضطرابات النفسية الأخرى ترتفع في الأماكن المنكوبة بالنزاعات (٣). وقد يُصاب الفرد بهذا الاضطراب بعد التعرض لحدث أو مجموعة أحداث خطيرة أو مروعة للغاية. ويتميز هذا الاضطراب بكل ما يلي: ١) استرجاع الحدث أو الأحداث الماضية الصادمة (الذكريات المزعجة، أو استحضار الذكريات، أو الكوابيس)؛ ٢) تجنب الأفكار والذكريات المتعلقة بالحدث (الأحداث)، أو تجنب الأنشطة أو المواقف أو الأشخاص الذين يذكّرون الفرد بالحدث (الأحداث)؛ ٣) التصورات المستمرة لوجود تهديد وشيك حالياً. وتستمر هذه الأعراض لعدة أسابيع على الأقل وتسبب قصوراً جسيماً في الأداء، ولكن يوجد علاج نفسي فعال لهذه الحالة.

لا ريب أنّ الشخصية الإنسانيّة تمرّ بمراحل عدّة، ومختلفة من الطفولة حتّى النضج، ولا تتوقف عملية النمو حتّى الممات، وعندما نقول عن شخصية ما أنّها سويّة فهذا يعني أنّ الشخص قادر على التوافق مع الآخرين، ويوجد لديه قدر كبير من التناسق والاتساق في السمات التي تميّزه بجودة وصحة علاقته مع الآخرين، أما عدم النضج وعدم السواء في الشخصية رغم اكتمال نموّه الجسماني إلّا أنّه غير سوي مع الآخرين، وهنا نقول عن الشخص غير السوي أنّه مضطرب، وتأخذ المظاهر غير الطبيعية في اضطراب الشخصيّة أنماطاً ثابتة من السلوك تصبغ الشخصية كلها أو جانباً مهمّاً منها ابتداءً من الطفولة المبكرة.

فاضطراب الشخصية اصطلاح عام يطلق على مجموعة من الانفعالات المختلفة التي تحدث للفرد وتحدث له خللاً في كيان شخصيّته، وهي تحدث بسبب عوامل نفسيّة المنشأ دون وجود سبب عضويّ معيّن في الجسم وتجعل المريض في حالة من عدم الارتياح ويشعر المريض كما أشارت «المطيري، معصومة سهيل (٢٠٠٥) هنا في تغيير الواقع من حوله ويصحبه خلل في السلوك، وعندئذ يدخل في عالم الأمراض النفيّة وتتصف الشخصيّة هنا بالتفكك الخطير.

وقد عرّفت الاضطرابات النفسيّة منذ قديم الزمن، وهذا ما دلّت عليه الآثار التاريخيّة في مختلف الشعوب والحضارات التي وصفت وعلّلت وعالجت هذه الأمراض، ومع أنّ أثر الأسباب كانت

متسلّطة كالسحر والشعوذة والأرواح الشريرة، إلّا أنّ هذا لا ينكر أنّ هناك من أدرك حقيقتها ومن محاولات التفسير لهذه الاضطرابات: مؤثّرات ما وراء الطبيعة، والعمليات النفسية، والعوامل البيولوجيّة، والتفسير التكاملي.

ويرى علماء النفس أنّ الأشخاص الذين تعصف بهم الحروب والأزمات يكونون في مرمى الإصابة بالمشكلات النفسية أكثر ممن لم يختبروا هذه الظروف العصيبة وإنّ استمرار التعرّض لمثل هذه الظروف الضاغطة يفضي إلى عجز الفرد عن تحمّله واحتوائه، وبالتالي يؤدّي إلى اختلال في التوازن النفسي لديه. فاللاجئون السوريون في مخيّم الزعتري يواجهون اضطرابات ضغوط ما بعد الصدمة من الحرب السوريّة، وذلك من خلال قلقهم وخوفهم من المستقبل، وعدم القدرة على تغيير الحال إلى صورة أفضل، واستمرار معايشتهم لذكريات الحرب الماضية. الغرايبة، محمود محمد (٢٠١٤).

هو اضطراب قلقٍ ناجٌ عن أحداث مرهِقة للغاية أو مخيفة أو مؤلمة، فهو مجموعة من ردود الفعل التي يمكن أن تتطور لدى الأشخاص الذين شاهدوا أو مروا بحدث صادم يهدد حياتهم أو سلامتهم، أو حياة وسلامة الآخرين من حولهم، وكلّ من يعاني من الصدمة لديه ردود فعل ما بعد الصدمة، فبالنسبة لبعض الأشخاص؛ لا تهدأ ردود الفعل هذه في غضون أيام أو أسابيع قليلة، لكنّها تستمر وتُعطّل حياتَهم؛ وعندها تسمى ردود الفعل هذه باضطراب ما بعد الصدمة.

أسباب اضطراب ما بعد الصدمة:

هناك منظور البيولوجي منها الجينات، والوراثة، وعوامل نفسية اجتماعيّة، فاضطراب ما بعد الصدمة (PTSD) هو مجموعة من ردود الفعل التي يمكن أن تتطور لدى الأشخاص الذين شاهدوا أو مروا بحدث صادم يهدد حياتهم أو سلامتهم (أو حياة وسلامة الآخرين من حولهم). قد يكون هذا حادث سيارة أو غيره من الحوادث الخطيرة، أو الاعتداء الجسدي أو الجنسي، أو الأحداث الجنائية أو المتعلقة بالحرب أو التعذيب، أو كارثة طبيعية مثل حرائق الغابات أو الفيضانات.

فعند تعرّض الشخص لموقف صادم فإنّه يستقبل معلومات كثيرة ومتنوّعة مثل الصور والأفكار، ويعالج الدماغ جزءاً منها، في حين أنّ القسم الآخر لا تتمّ معالجته بالطريقة الصحيحة، وقد يكون السبب في ذلك نقصاً في المعلومات أو أنّها تفوق طاقة الجهاز العصبي في استيعابها، فالخبرة الصدميّة لا تتلاءم فيها المنبّهات الخطيرة والفجائيّة مع خبرات الشخص ونماذجه لأنّها تتخطّى المدى الطبيعي للتجربة، الإنسانيّة. وعليه فإنّ معالجة المعلومات ستكون مضطربة ومشوّهة، وتبقى المعلومات أو المنبّهات الصادمة ناشطة وتعمل بشكل مستمر في ضغطها المؤلم على الشخص المصدوم الذي يحاول تكرار إخراجها من الوعي ليشعر بالأمن والراحة، ولهذا فإنّ الشخص المصدوم ليس أمامه خيار إلّا اللجوء إلى استخدام وسائل الدفاع السلبيّة مثل النكران والتبلد والتجنّب، وجميعها تشكّل أعراضاً بارزة لاضطراب ضغوط ما بعد الصدمة الغرايبة، محمود محمد (٢٠١٤).

لاضطراب ما بعد الصدمة أسباب عدّة وتقسم إلى قسمين: (أسباب طبيعية وأسباب إنسانية)

الأسباب الطبيعيَة:

لطالما كانت الأسباب الطبيعيّة سبباً لكلّ أنواع الاضطرابات التي كانت تغيّر من الاستقرار، وتتخبّط فيها الشعوب، وكانت هذه الكوارث الطبيعية سبباً للهروب، والهجرات عبر التاريخ، ولهذا دُمّرت مدن، وتلاشت حضارات، فتداولت الأساطير والحكايات عن الزلازل، والبراكين وغيرها من الكوارث الطبيعيّة، وردّتها إلى غضب الطبيعة، أو غضب القوى الخارقة، فقدّمت الشعوب القرابين لمنع تلك الأوبئة، وهي حلّ ميثولوجيّ للقضاء على هذا الخوف، والاضطراب الجماعيّ، ومع تقدّم العلم، ومن ضمن تلك العلوم تقدّم علم النفس، وبات الحلّ في المعالجة

النفسية، وتحليل هذا الاضطراب.

ومن أنواع الأسباب الطبيعيّة التي تغيّر من أمن المجتمعات والشعوب:

الزلازل:

هي اهتزازات مفاجئة للكرة الأرضيّة ناجّة عن حركة الموجات الزلزاليّة، والتي تعد حركة الصخور، وانزلاق الصفائح الأرضيّة بفعل الطاقة الكامنة في باطن الأرض سبباً لها.

البراكين:

تُعرف البراكين بأنّها اندفاع وثوران لصهارة الصخور وإطلاق الغازات والشظايا بفعل الارتفاع في حرارة باطن الأرض، والتي ينجم عنها تدمير للأرواح والممتلكات.

الفيضانات:

هي ارتفاع مستويات المياه في مصادرها الطبيعيّة أو الصناعيّة عن منسوبها الأساسي بسبب الهطل المفرط للأمطار أو ذوبان الثلوج وغيرها من الأسباب، مما يؤدي لفيضانها على الأراضي الجافّة متسبباً بكوارث كبيرة على الأرواح والممتلكات.

أمواج تسونامي:

هي أمواج بحريّة كارثيّة، تعد الزلازل، ثوران البراكين والانهيارات الأرضيّة التي تحدث في قاع المحيط سبباً لها، تمتاز بطول موجاتها الكبير جداً والذي قد يصل إلى ٢٠٠ كليومتر، بالإضافة للسرعة الهائلة والتي قد تصل إلى ٨٠٠ كيلومتر في الساعة الواحدة.

تصنف الكوارث طبيعية الحدوث لعدّة أنوع تبعاً للبيئة التي تحدث بها وهي كالآتي:

- **جيوفيزيائية:** الزلازل، أمواج التسونامي والبراكين.
- **صحّية: كالأوبئة المعدية عبر التاريخ:** مثل وباء كورونا والطاعون والسل
- **هيدرولوجية:** الفيضانات والانهيارات الثلجيّة.
- **المناخية:** الجفاف، التصحّر وحرائق الغابات، انتشار حشرات معينة كالجراد.
- **الأرصاد الجوية:** العواصف والأعاصير.

بالطبع تصنف حالات الموت الطبيعيّة إحداث الأسباب الطبيعية في خلق اضطراب ما بعد الصدمة، مثل وفاة أحد أفراد أسرة المضطرب.

الأسباب الإنسانيّة:

لطالما كانت الكوارث التي يتسبّب بها الإنسان هي السبب الرئيس لكلّ هذه الكوارث منذ بدء الحضارات حتّى الآن، وقد ازدادت وتيرة الحروب إلى حدّ كبير، وغيرها من ازدياد الكثافة السكانيّة في المدن، وكثرة السيارات وتلوّث البيئة، وازدياد العنف، والفقر، وكثرة الأمراض والأوبئة المترافقة مع التطوّر العلمي، والحروب والاختراعات، ومن تلك الكوارث:

حوادث الطرق الخطيرة:

في جميع أنحاء العالم، تقتل حوادث الطرق ما يقرب من ١,٣ مليون شخص كل عام – أي بمعدل أكثر من وفاتين كل دقيقة – مع حدوث أكثر من تسعة من بين كل ١٠ وفيات في البلدان منخفضة ومتوسطة الدخل. «الأمم المتّحدة (تم الاسترجاع: ٢٢:٤٣ / ٢٠٢٣/٤/٥)

الاعتداءات الشخصية العنيفة:

مثل الاعتداء الجنسي أو السرقة، فلا شكّ أنّ داعش كان السبّاق في الاعتداءات الجنسية وتجارة النساء وبيعهنّ، وكانت عدة دراسات قد أعدت بهذا الخصوص، وبالمقابل يزداد التحرش الجنسي للأطفال، فقد كشفت دراسة للأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود بكلية التربية وقسم علم النفس الدكتورة وفاء محمود، أن نسبة التحرش الجنسي بالأطفال في المملكة مرتفعة، إذ يتعرض طفل/٤ أطفال (طفل واحد من بين أربعة أطفال)

لهذا الاعتداء. في الوقت الذي بينت دراسة أخرى لمنيرة بنت عبد الرحمن أجريت في المملكة أيضاً، أن ٤٩,٢٣ ٪ ممن هم في سن ١٤ من إجمالي عدد السكان تعرضوا للتحرش الجنسي. وقد أكدت المستشارة التربوية والاجتماعية الدكتورة شيخة بنت عودة العودة والتي استشهدت بهذه الإحصائيات والدراسات أمام الأسر أن نسبة الاعتداءات الجنسية على الطفل داخل الأسرة لا تزال غير معروفة (سرية). مرجعة ذلك لتكتم الأطفال أو حتى الأسر نفسها خوفاً من المعتدي القريب أو حتى الفضيحة. «الرياض. موقع (٢٠١٤).

ويمكننا تلخيص أسباب اضطراب ما بعد الصدمة بما يلي:

- الإصابات الشديدة الخطيرة وطويلة الأمد: كالأمراض. و
- الحروب وتكرار الذكرياتِ الاقتحاميَّة للحادث الصادِم السَّاحق.
- الخروج من حرب ما. والخوف المستمر من عودة الحرب. كعودة داعش. أو الفصائل المرتزقة.
- التهديد المستمر (كتهديد تركيا بالحرب على الشمال السوري).
- ما زال الكثير من الناس يتوهّمون بأنّ تنظيم داعش سوف يعود وينتقم من كلّ شخص عاداهم.
- عدم التعاون مع الإدارة الجديدة في المنطقة خوفاً من أن يُستهدَفوا من قبل الخلايا النائمة لداعش.
- عدم التأقلم مع الواقع المحيط خوفاً من أن تكون هناك خلايا نائمة. أو أشخاص ينجرّون وراءهم فيقعوا في مصيدة داعش.
- عدم الثقة بأحد. لأنّهم يتصوّرون أنّ داعش يعرف كلّ شيء. من خلال الحرب النفسية الإعلاميّة القويّة التي يمارسها تنظيم داعش.

عوامل الخطر ما يلي:

- تاريخ عائلي من الاكتئاب والقلق.
- تعاطي المخدرات مثل الإفراط في الشرب أو تعاطي المخدرات.

أعراض اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD)

لاضطراب ما بعد الصدمة آثار سلبية عدّة. وخاصّة أثناء التهديد المستمر.

- الكوابيس التي تتكرّر مع الأشخاص الذين تعايشوا مع الحدث. فتتحوّل إلى مرض مزمن. فيتجنّبون أي شيء يذكّرهم بذلك الأمر.

الإثارة المفرطة.

- زيادة اليقظة. الصعوبة في النوم أو التركيز. واضطرابات النوم والأرق والاستيقاظ فزعاً والكوابيس.

الغضب. التهيج. أو الكراهية.

- أفكار أو مشاعر مؤلمة سلبية تداخلية مثل الشعور بالذنب.

النكوص والقلق والحرمان من الحب والحنان

- الإحساس بالعزلة. وعدم الاهتمام بالعالم الخارجيّ. وضعف الحكم. تجنب الناس والأماكن والأشياء. أو الذكريات مثل تذكر الصدمة. ذكريات الماضي. الهلوسة.

الإنكار والكبت. والاكتئاب وفقدان تقدير الذات.

- غالبًا ما تكون هذه الأعراض شديدة ومستمرة بدرجة كافية ليكون لها تأثير كبير على حياة الشخص اليومية.

اضطراب ما بعد الصدمة في المناطق التي خضعت لسيطرة داعش

- ما زال الكثير من الناس يتوهّمون بأنّ تنظيم

داعش سوف يعود وينتقم من كلّ شخص عاداهم.

- عدم التعاون مع الإدارة الجديدة في المنطقة خوفاً من أن يُستهدَفوا من قبل الخلايا النائمة لداعش.
- عدم التأقلم مع الواقع المحيط خوفاً من أن تكون هناك خلايا نائمة، أو أشخاص ينجرّون وراءهم فيقعون في مصيدة داعش.
- عدم الثقة بأحد، لأنّهم يتصوّرون أنّ داعش يعرف كلّ شيء، من خلال الحرب النفسية الإعلاميّة القويّة التي يمارسها تنظيم داعش.

مضاعفات:

- يؤثر على الأداء الطبيعي.
- مشاكل في العلاقات الاجتماعية وعلاقات العمل.
- الاكتئاب.
- تعاطي المخدرات والكحول.
- اضطرابات الأكل.
- الميول الانتحارية في الحالات الشديدة

مقترحات وأساليب العلاج:

يندرج علاج اضطرابات الشخصيّة تحت العلاج الطبي، والسيكوديناميّ[1] والعلاج السلوكي المعرفي، والعلاج السلوكي المعرفي، والعلاج الجماعي، والعلاج البيئي، والعلاج الأسري. (منصور، كامل الشربيني (٢٠١٤).

- قد تشتمل المعالجة على العلاج النفسي (العلاج الداعم وبالتعرُّض) ومضادَّات الاكتئاب.
- تكون المُعالَجة على العلاج النفسي والعلاج السُّلُوكي والأدوية.
- الانتظار اليقظ - مراقبة الأعراض لمعرفة ما إذا كانت تتحسن أو تزداد سوءًا دون علاج.
- مضادات الاكتئاب - مثل باروكستين أو ميرتازابين.
- العلاجات النفسية - مثل العلاج السلوكي المعرفي الذي يركز على الصدمات أو إزالة حساسية حركة العين وإعادة المعالجة.
- التوعية، والتأقلم مع الحالة التي تبعدهم من السيطرة الذهنية للحرب النفسية.
- إبعاده عن المثير.
- عدم تركه وحيداً من خلال تنظيم الرحلات وغيرها.
- دمج أطفال داعش بالمجتمع.
- تفعيل المشاركة الاجتماعيّة (عدم لوم الإدارة دائماً)
- فتح المدارس.
- مكافحة الفكر العنفي (الأيديولوجيّة الإسلامية المتطرّفة)
- دراسة كاملة لتقييم حجم الاضطرابات.
- اتباع المبادئ التوجيهية الاحترام التقدير السرية الثقة.
- ممارسة الرياضة بانتظام.
- تعلم وممارسة تمارين إدارة الإجهادتجنب استخدام الكافيين والتبغ.
- تجنب تعاطي الكحول والمخدرات.
- الانخراط في الهوايات للحد من التوتر والقلق.

تنطوي هذه العَوامِل على الآتي:

- مستوى شدَّة الحدث الرضيّ
- ما إذا حدثت إصابات بدنية في أثناء الحدث
- ما هُوَ مزاج الطفل
- ما هو الوضع الاجتماعي والاقتصادي

١ العلاج النفسي الفردي أو الجماعي.

للعائلة

- **ما إذا مرَّ الطفل بمحنةٍ (مثل الاعتداء الجنسي) من قبل**
- **ما هو مستوى أداء الأسرة**
- **ما إذا كان للطفل أفراد من الأسرة يعانون من اضطرابات الصحة النفسيَّة**

المراجع

الكتب والمجلّات الورقيّة:

- أبو عيشة، محمد سمير محمد (2017). نمو ما بعد الصدمة وعلاقته بأعراض الاضطراب النفسي لدى مرضى السرطان، (رسالة لنيل درجة الماجستير) الجامعة الإسلاميّة بغزّة، كلية التربية، الجامعة الإسلاميّة، غزّة.
- خطاب، محمد أحمد محمود (2014). ديناميات اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى أطفال غزة، مصر، المجلة المصرية للدراسات النفسيّة، العدد 84.
- فريدمان، توماس (2006). / ترجمة: العالم، محمد طعم، في عصر الإرهاب، منشورات الجمل، بغداد.
- العدل، عادل محمد (2020). ضغوط ما بعد الصدمة وعلاقتها بقلق المستقبل لدى طلاب الجامعة بعد جائحة كورونا كوفيد19، المجلة العربيّة للآداب والدرات الإنسانيّة، المجلد الخامس، العدد 16.
- المطيري، معصومة سهيل (2005). الصحة النفسية مفهومها..اضطرابها، الكويت، مكتبة الفلاح، الطبعة الأولى.
- منصور، كامل الشربيني (2014). الصحة النفسيّة للعاديين وذوي الاحتياجات الخاصّة، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر.

مراجع النت:

- الأمم المتّحدة، موقع، تم الاسترجاع: 22:43 / 5/4/2023 https://news.un.org/ar/story/2022/05/1102812
- خطوات دراسة الحالة "مجلة ابتسامة (mawdoo3.com)
- منظمة الصحة العالميّة، الموقع الرسمي لمنظمة الصحة العالمية (who.int)
- https://www.alriyadh.com/988851
- https://www.moh.gov.sa/awarenessplateform/VariousTopics/Pages/PTSD.aspx
- https://www.betterhealth.vic.gov.au/post-traumatic-stress-disorder-arabic
- https://www.mayoclinic.org/ar/diseases-conditions/personality-disorders/symptoms-causes/syc-20354463

الإعلام...
تأثيره على تشكيل الرأي العام في مكافحة الإرهاب

ممدوح الحسن

مقدمة

يُعدّ الإعلام في عصر التكنولوجيا والتطور السريع أحد أهم الوسائل المؤثرة في تشكيل الرأي العام وتوجيهه نحو قضايا معينة وتشكيل وجدان الفرد، فوسائل الإعلام انتقلت من مجرد ناقلة للخبر إلى صانعة للرأي العام وموجهة له بشكل واضح.

فالإعلام حالياً يشكل الجسر الحيوي الذي يربط بين الحدث والجمهور، ويسهم بشكل كبير في تشكيل فهم الأفراد للقضايا المختلفة، ويعكس وجهات نظر متنوعة، ويقدم

للجمهور معلومات تلقائية يمكن أن تؤثر بشكل كبير في تصوير المشهد السياسي والاجتماعي، إذ تستطيع وسائل الإعلام أن تؤثر على مواقف الجمهور واتجاهاته، ويعتمد الجمهور بشكل متزايد على الإعلام لتوجيهه في فهم التحديات والمخاطر التي تشكل تهديدًا للأمن العام، كما أن لوسائل الإعلام القدرة على تعبئة الرأي العام وحشده لدعم جهود قضايا مثل مكافحة الإرهاب, أو على العكس إثارة مخاوفه وتحفيز ردود فعل سلبية.

فتحليل تأثير الإعلام على تشكيل الرأي العام في مكافحة الإرهاب يتطلب فهمًا دقيقًا للطرق التي يتم بها تقديم المعلومات وتوجيه الأفكار.

قوة الإعلام تكمن في قدرته على نقل الحقائق والمعلومات بشكل شفاف وموضوعي، ولكن في الوقت ذاته، يُفرض عليه أن يكون حذرًا من التحيّز والترويج لأجندات معينة.

في هذه المقالة سنناقش:

ـ تعريف الإرهاب وتصوره.

ـ تأثير الإعلام على تشكيل الرأي العام وتعزيز الوعي بمخاطر الإرهاب.

ـ كيفية تأثير الإعلام في توجيه وتشكيل آراء الجمهور.

ـ دور الإعلام في نقل المعلومات المتعلقة بالإرهاب.

أولاً: تعريف الإرهاب وتصوره

تعتبر مسألة تعريف مصطلح الإرهاب قضية معقدة ومحفوفة بالتحديات في القانون الدولي، حيث لا يوجد تعريف واضح وموحد، فمفاهيم الإرهاب تعتمد على دوافع سياسية وأيديولوجية، مما يجعلها قابلة للتفسير بطرق متعددة.

يمكن لفرد أن يُلقّب بالإرهابي من قبل البعض، بينما يُعتبر مقاتلاً من أجل الحرية في نظر آخرين، مما يبرز التعقيد المرتبط بتحديد هذا المصطلح.

رغم محاولات الأمم المتحدة لوضع تعاريف محددة للإرهاب، إلا أن الدول ماتزال تختلف في وجهات نظرها حيال تعريفه، فقد قدَّمت الأمم المتحدة تعريفات في سياق مكافحة تمويل الإرهاب والأفعال التي تستهدف المدنيين وتسبب الرعب بين الجماهير، مشددة على عدم تبرير أي عمل إرهابي بأي مبرر سياسي أو ديني أو آخر.

حيث تتضمن التعريفات- من قبل الأمم المتحدة- الجهود الدولية لمكافحة الإرهاب، حيث يُعزَز الرفض الدولي للأعمال الإرهابية، ويُحَدِّد أن هذه الأفعال لا يمكن تبريرها تحت أي ظرف من الظروف. كما يتناول التعريف المحدد في تقارير مجلس الأمن الدولي الأعمال التي تُرتكب بهدف ترويع السكان أو إجبار الحكومات على القيام بأفعال أو منعها.

اقترح القرار الإطاري لمجلس الاتحاد الأوروبي تعريفًا شاملاً للإرهاب يشمل الأعمال التي تهدف لترويع السكان أو إجبار الحكومات على الفعل أو الامتناع عنه، وذلك من خلال أفعال تتسم بالعنف أو التهديد بالعنف وتستهدف المدنيين.

في الختام، يمكن تعريف الإرهاب بأنه استخدام العنف أو التخويف لأغراض سياسية أو دينية أو أيديولوجية تهدف إلى بث الخوف بين السكان المستهدفين. يتخذ الإرهاب أشكالًا مختلفة مثل الهجمات الانتحارية والتفجيرات والاغتيالات والجرائم الإلكترونية, فوسائط الإعلام تؤدي دوراً حاسماً في نشر المعلومات عن الأنشطة الإرهابية, عن طريق الإبلاغ عن الحوادث بسرعة وتقديم تحليل لدوافعها وآثارها.

ثانياً: الرأي العام والإعلام

ظاهرة الرأي العام تمثل تحدياً متجدداً للمجتمعات

عبر العصور، وقد ألهمت أقدم الحضارات واستمرت في تشكيل ملامح الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية، ويعود الاهتمام بفهمها ودراستها إلى أهميتها الكبيرة وتأثيرها العظيم في توجيه مسارات الدول. يرى «ميكافيللي» أن صوت الشعب هو صوت الله، مما يبرز أهمية آراء الناس في تشكيل مصائرهم وتوجيه القرارات الحيوية.

الرأي العام يمكن تعريفه كالرأي السائد بين الشعوب الواعية في فترة زمنية معينة بشأن قضية محددة، يتسم بالحماس والنقاش. تكمن أهمية هذا الرأي في تعبيره عن مصالح الأغلبية وتوجيه الانتباه إلى القضايا الحيوية التي تؤثر فيها. قد تكون الأمم المتحدة نموذجاً بارزاً لقوة الرأي العام في تشكيل السياسات الدولية، حيث نشأت استجابةً لضغوط الشعوب بعد الحرب العالمية الثانية.

من المهم التمييز بين الرأي العام ومفاهيم أخرى، مثل الإجماع العام الذي يعكس المعتقدات والتقاليد التي يعتمدها المجتمع بشكل جماعي، كما يجب التفريق بين الرأي العام والاندفاع العاطفي الذي يعتمد على المشاعر والعواطف ويظهر في تظاهرات مؤقتة، لكنه لا يعكس وعياً دائماً.

لوسائل الإعلام أهمية كبيرة في تشكيل وتوجيه الرأي العام، إذ تلعب دوراً حيوياً في نقل المعلومات والأخبار بطريقة موضوعية وصحيحة. يعتبر تأثيرها في توجيه الأفكار السياسية، الثقافية، والاقتصادية أمراً حيوياً لتحقيق مجتمع مستنير، من خلال توفير حقائق وأخبار صحيحة. كذلك يمكن للإعلام تعزيز مستوى المعرفة والوعي بين الجماهير.

يكمن سر نجاح الإعلام في تقديم مواده بشكل موضوعي وخالٍ من التحريف، مما يسهم في بناء فهم صحيح وشامل للمشاكل والقضايا

"يمكن للفرد أن يُلقّب بالإرهابي من قبل البعض، بينما يعتبر مقاتلاً من أجل الحرية في نظر آخرين، مما يبرز التعقيد المرتبط بتحديد هذا المصطلح. رغم محاولات الأمم المتحدة لوضع تعاريف محددة للإرهاب، إلا أن الدول ما تزال تختلف في وجهات نظرها حيال تعريفه، فقد قدمت الأمم المتحدة تعريفات في سياق مكافحة تمويل الإرهاب والأفعال التي تستهدف المدنيين وتسبب الرعب بين الجماهير"

المطروحة، ولتحقيق هذا الهدف، يجب على وسائل الإعلام أن تكون صادقة وموثوقة. إلى جانب ذلك، يتطلب توجيه الرأي العام دراسة دقيقة وواعية للجماهير المستهدفة، مما يساعد في فهم احتياجاتها وتوجيه المحتوى بشكل يتناسب مع تلك الاحتياجات.

لضمان تشكيل رأي عام مستنير، ينبغي على وسائل الإعلام أن تتبنى منهجاً علمياً دقيقاً، يستند إلى فهم عميق للمستجدات والتحولات في المجتمع. إعداد مواد إعلامية علمية وموضوعة بعناية يمكن أن يسهم في تعزيز الوعي والإدراك لدى الجمهور، وبالتالي يكون للإعلام دور فعّال في بناء مجتمع يسهم فيه الجميع بفهم أعمق وأوسع للقضايا الراهنة.

ثالثاً: دور الإعلام في نقل المعلومات

يلعب الإعلام ووسائله دوراً مهماً في نقل المعلومات وتوفيرها للجمهور، فتعمل وسائل

الإعلام على تحديد القضايا ذات الأهمية العالمية ونقلها بشكل سليم وشفاف، وذلك لتمكين الجمهور من الحصول على معلومات موثوقة ومحدثة.

تستخدم الصحافة المهنية لذلك، الأدوات والتقنيات المتاحة لديها لتجميع المعلومات والتحقق من صحتها قبل نشرها، حيث يتم استخدام مصادر موثوقة ومتعددة للحصول على وجهات نظر متعددة، مما يساعد على توفير صورة أوضح للأحداث وتحليلها بشكل صحيح.

ويشدد الإعلام على ضرورة الحصول على معلومات دقيقة وموثوقة، والابتعاد عن نشر الشائعات والأخبار غير المؤكدة. الإعلام يجب أن يكون حذرًا في التعامل مع المعلومات المتعلقة بالإرهاب والتحقق من صحتها قبل نشرها، حتى لا يتسبب في تعزيز الأفكار المتطرفة أو إشاعتها، أو بثّ الرعب أو الهلع بين الجمهور.

بالإضافة إلى ذلك، يحقق الإعلام في الأحداث الإرهابية ويوثقها بشكل دقيق، مما يسمح للجمهور بفهم الأحداث وتحليلها، بشكل أفضل.

رابعاً: تأثير الإعلام على تشكيل الرأي العام

يعتبر الإعلام من أهم الأدوات التي تؤثر في تشكيل الرأي العام وتوجيه آراء الناس، فهو يمتلك القدرة على تحديد الأفكار والمعتقدات لدى الجمهور وتشكيل قناعاتهم بشأن الإرهاب، ولذلك، يجب أن ندرك أهمية الإعلام في توفير المعلومات الموثوقة والواقعية لمكافحة هذه الظاهرة الخطيرة.

الإعلام يعمل على توجيه الجمهور من خلال عرض حالات الإرهاب وتبعاتها، وتوضيح المخاطر المحتملة والتحذير منها، كما ينقل القصص الشخصية للضحايا والناجين، وتعزيز الوعي بأثر الإرهاب على الأفراد والمجتمعات، و يعزز التضامن والتعاطف بين الناس، ويشجع الاستجابة الإيجابية والتفاعل مع جهود مكافحة الإرهاب، إلا أنه يجب أن نكون حذرين من تأثير الإعلام السلبي، حيث يمكن لبعض وسائل الإعلام أن تنشر المعلومات بشكل مبالغ فيه أو مشوّه، مما يؤدي إلى إشاعة الخوف والهلع بين الناس، لذلك يجب أن يكون للإعلام والصحافة أخلاقيات ومعايير عالية في تقديم المعلومات، وضمان دقة وموضوعية التغطية الإعلامية للأحداث المرتبطة بالإرهاب.

خامساً: التأثير الإيجابي للإعلام على تشكيل الرأي العام

يمكن تلخيص تأثير الإعلام على تشكيل الرأي العام في عدة نقاط رئيسية:

- **نقل المعلومات:** يساهم الإعلام في نقل المعلومات المتعلقة بالإرهاب وأحداثه بشكل سريع ودقيق، مما يوفر للجمهور المعرفة اللازمة لفهم الظاهرة وتحديد سبل مكافحتها.

- **توجيه الرأي العام:** يمتلك الإعلام القدرة على توجيه الرأي العام وتشكيل آراء الناس بشأن الإرهاب، وذلك من خلال تقديم المعلومات والتحليلات التي تؤثر في الاعتقادات والسلوكيات.

- **زيادة الوعي:** يعزز الإعلام الوعي بمخاطر الإرهاب وآثاره على الفرد والمجتمع، مما يحفّز على تعزيز التعاون والتضامن في مكافحة هذه الظاهرة.

وهذا جدول يوضح تأثير الإعلام السلبي والإيجابيّ

تأثير الإعلام السلبي	تأثير الإعلام الإيجابي
انتشار المعلومات المبالغ فيها أو المشوّهة	نقل المعلومات بدقة وسرعة
إشاعة الخوف والهلع بين الناس	توجيه الرأي العام وتشكيل الآراء
تأثير سلبي على الانفعالات والمشاعر العامة	زيادة الوعي بمخاطر الإرهاب

باختصار، يجب على وسائل الإعلام أن تضع الأخلاقيات والمعايير العالية في الاعتبار، وتسعى لتقديم المعلومات بشكل دقيق وموضوعي من أجل مكافحة هذه الظاهرة الخطيرة.

سادساً: دور الإعلام في جمع الأدلة

كشف الأدلة والمعلومات المهمة يساهم في تحقيق العدالة ومكافحة الإرهاب. فالإعلام يكون من خلال الصحافة الاستقصائية وتعاون الصحفيين مع الجهات الأمنية، لتوفير المعلومات التي يحتاجونها للتحقيق في الهجمات الإرهابية، مما يدعم الجهود الأمنية المبذولة للحد من تهديدات الإرهاب وتعزيز الأمن العام، مما يساهم في تسهيل عمل الجهات الحكومية والأجهزة الأمنية والمؤسسات لتبادل المعلومات والآراء والتجارب الناجحة والطرق المستحسنة لمكافحة الإرهاب.

سابعاً: التوثيق الموثوق

يوفر الإعلام التوثيق الموثوق للهجمات الإرهابية، ويساعد في بناء القضايا وتوجيه الاتهامات الصحيحة بتقديم التقارير الموثقة والدقيقة، فيسهم بذلك في توضيح الحقائق وتفنيد الشائعات والأخبار المضللة التي قد تنشر في

"يلعب الإعلام ووسائله دوراً مهماً في نقل المعلومات وتوفيرها للجمهور، فتعمل وسائل الإعلام على تحديد القضايا ذات الأهمية العالمية ونقلها بشكل سليم وشفاف، وذلك لتمكين الجمهور من الحصول على معلومات موثوقة ومحدثة. تستخدم الصحافة المهنية لذلك، الأدوات والتقنيات المتاحة لديها لتجميع المعلومات والتحقق من صحتها قبل نشرها، حيث يتم استخدام مصادر موثوقة ومتعددة للحصول على وجهات نظر متعددة"

سياق الهجمات الإرهابية.

الدور الإعلامي في رصد وتوثيق الهجمات الإرهابية	المزايا
توفير المعلومات الحية والدقيقة	تعزيز الوعي العام وتحقيق العدالة
تجميع الأدلة وتوثيق التفاصيل	دعم الجهود الأمنية ومكافحة الإرهاب
تقديم التوثيق الموثوق	توضيح الحقائق وتفنيد الشائعات

"تلعب التوعية الإعلامية دورا حيويا في مكافحة الإرهاب وتعزيز الوعي لدى الجمهور بمخاطره من خلال استخدام وسائل الإعلام المختلفة، من خلال تحذير الناس من التصديق للأفكار المتطرفة والتطرف العنيف وتشجيعهم على المشاركة في جهود مكافحة الإرهاب. عندما يتم توجيه التوعية الإعلامية بشكل صحيح، يمكنها استهداف فئات مختلفة من الجمهور وتوجيه رسائل محددة لتلك الفئات"

ثامناً: آليات تأثير الإعلام على الجمهور

تعد الوسائط الإعلامية من الأدوات الرئيسية التي يستخدمها الإعلام للتأثير على الجمهور وتشكيل آرائهم, وهناك العديد من الآليات التي يستخدمها الإعلام لتحقيق هذا الهدف.

وسنستعرض هنا بعض هذه الآليات:

١ـ تكرار الرسائل والمفاهيم:

يعد تكرار الرسائل والمفاهيم الأمر الأساسي في تأثير الإعلام على الجمهور, وقد أثبتت الدراسات أن تكرار الرسائل يساهم في تعزيز الاستجابة والتأثير لدى الجمهور, حيث يقوم الإعلام بتكرار المفاهيم والأفكار المرتبطة بمكافحة الإرهاب على مدار فترة زمنية محددة لتعزيز التوعية والتأثير.

٢ـ استخدام التأثير العاطفي:

يعتمد الإعلام أيضًا على تأثير العواطف لدى الجمهور لتحقيق التأثير وتشكيل الرأي العام, فيستخدم المشاعر المختلفة مثل الخوف, والغضب, والحزن, والتعاطف لنقل رسائله بشكل فعال, فمن خلال استخدام التأثير العاطفي, يستطيع الإعلام إيصال رسائله بشكل أكثر تأثيرًا وإقناعًا لدى الجمهور.

٣ـ استخدام قصص النجاح والأمل:

تعتبر قصص النجاح والأمل من الآليات الفعالة التي يستخدمها الإعلام في تأثير الجمهور, إذ يمكن للإعلام استخدام قصص الأشخاص الذين تمكنوا من التغلب على التطرف والإرهاب لنشر رسالة أمل وتحفيز الجمهور على المشاركة في مكافحة الإرهاب والتصدي للتطرف.

وهنا جدول يوضح الأثر والتفسير والآلية لتأثير الإعلام على الرأي العام:

الأثر	التفسير	الآلية
تعزيز التوعية وتشكيل آراء الجمهور	تكرار المفاهيم ذات الصلة بمكافحة الإرهاب لتعزيز التوعية والتأثير	تكرار الرسائل والمفاهيم
تعزيز التأثير وإقناع الجمهور	استخدام المشاعر المختلفة لنقل رسائل الإعلام بشكل فعال	استخدام التأثير العاطفي
تحفيز الجمهور وتشجيع المشاركة في مكافحة الإرهاب	استخدام قصص الأشخاص الذين تمكنوا من التغلب على التطرف والإرهاب	استخدام قصص النجاح والأمل

باستخدام هذه الآليات, يستطيع الإعلام

تحقيق تأثير فعال وإيصال رسائله بشكل كبير للجمهور.

تاسعاً: التوعية الإعلامية في مكافحة الإرهاب

تلعب التوعية الإعلامية دوراً حيوياً في مكافحة الإرهاب وتعزيز الوعي لدى الجمهور بمخاطره من خلال استخدام وسائل الإعلام المختلفة، من خلال تحذير الناس من التصديق للأفكار المتطرفة والتطرف العنيف وتشجيعهم على المشاركة في جهود مكافحة الإرهاب.

عندما يتم توجيه التوعية الإعلامية بشكل صحيح، يمكنها استهداف فئات مختلفة من الجمهور وتوجيه رسائل محددة لتلك الفئات، على سبيل المثال، يمكن للإعلام توجيه رسائل محددة للشباب للتأثير في تصوراتهم وقناعاتهم بشأن الإرهاب والإبلاغ عن الأنشطة المشبوهة.

وهذا جدول يوضح التحديات والفوائد للتوعية الإعلامية في مكافحة الإرهاب:

التحديات	الفوائد
انتشار المعلومات الخاطئة	تعزيز الوعي بمخاطر الإرهاب
تصورات متباينة للإرهاب ومكافحته	تحذير الجمهور من التطرف العنيف
صعوبة استهداف الفئات المستهدفة بشكل فعال	تشجيع المشاركة في جهود مكافحة الإرهاب

عاشراً: الإعلام وتعزيز الأمن العام

لا يقتصر دور الإعلام على أن يكون مصدرًا للمعلومات فقط، بل يعتبر أداة فعالة للتوعية وتشجيع المشاركة المجتمعية في مكافحة الإرهاب, ويعمل على توفير تغطية موضوعية ومتوازنة للأحداث الأمنية.

باستخدام الأدوات المختلفة مثل التقارير الإخبارية والأفلام ووسائل التواصل الاجتماعي، يمكن للإعلام نشر الرسائل الأمنية والتوعوية بطريقة فعالة وجذابة, وبالتالي يتم تعزيز مستوى الوعي لدى الجمهور وتعزيز القدرة على التعامل مع التحديات الأمنية.

فالتحديات المتعلقة بدور الإعلام في تعزيز الأمن العام كثيرة، وقدرة الإعلام على تعزيزها أيضا كثيرة.

التحديات المتعلقة بدور الإعلام في تعزيز الأمن العام	قدرة الإعلام على تعزيز الأمن العام
تحديات التوازن بين الحاجة للكشف عن المعلومات والحفاظ على السرية الأمنية. تعامل الإعلام مع الأخبار الزائفة وانتشارها. التحديات التقنية في مجال التواصل والتحرير الإعلامي. ضغوط الوقت ومتطلبات التغطية السريعة.	تعزيز الشعور بالأمان بين الناس. تعزيز الثقة في الأجهزة الأمنية والحكومية. توفير المعلومات المهمة والدقيقة حول التهديدات الأمنية والإجراءات الوقائية. تعزيز المشاركة المجتمعية في جهود مكافحة الإرهاب ودعم السلم والأمان في المجتمع.

حادي عشر: تأثير الإعلام في تشكيل سياسات مكافحة الإرهاب

”ينبغي على الإعلام تجنب التحريض أو إثارة الكراهية، ويمكن أن تؤدي تغطية غير حذرة للأحداث الإرهابية إلى تشكيل صورة مغلوطة أو إثارة التوترات بين الجماهير. يجب أن يكون للصحفيين تأثير إيجابي على التوجيه العام من خلال تقديم تحليلات هادفة وموضوعية للأحداث. حيث يجسد الالتزام بالأخلاقيات الإعلامية ركيزة أساسية في بناء ثقة الجمهور والحفاظ على دور الإعلام كرقيب للحقيقة والشفافية“

في عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصال، تصبح التغطية الإعلامية للأحداث الإرهابية أمرًا حيويًا، وهذا يشكل تحديًا كبيرًا أمام وسائط الإعلام. يُطلب منها أن تقوم بتوفير تقارير دقيقة وموضوعية تسهم في نقل الأحداث بشكل صحيح وفهمها بشكل صحيح، وفي هذا السياق يأتي دور الأخلاقيات الإعلامية لتلعب دوراً مهماً في ضمان نقل المعلومات بطريقة تحافظ على الأمانة والشفافية.

تبدأ الأخلاقيات الإعلامية في تغطية الإرهاب بضرورة توخي الحذر وتحقيق التوازن بين حق الجمهور في معرفة الحقيقة، وبين مسؤولية الإعلام في عدم ترويج العنف أو التحريض على الكراهية. فوسائل الإعلام عليها الامتناع عن نشر محتوى يمكن أن يُستغل لتحقيق أهداف إرهابية أو يؤدي إلى تصعيد التوتر.

وتشدد الأخلاقيات الإعلامية على ضرورة احترام خصوصية الضحايا وتفادي التفاصيل الدقيقة التي قد تسبب لهم المزيد من الألم، و تجنب ترويج صور صادمة أو محتوى عنيف يمكن أن يؤثر سلبًا على الجمهور، خاصةً الأطفال.

علاوة على ذلك، تدعو الأخلاقيات الإعلامية إلى توجيه الضوء نحو السياق والتحليل، بدلاً من التركيز الكبير على التفاصيل الدموية والصور المروّعة، ويهدف ذلك إلى فهم أسباب الإرهاب والعمل على مناقشة الحلول المحتملة.

يجب أن تتضمن تقارير وسائل الإعلام أيضًا آراء متنوعة وتنوعًا في المصادر لتجنب التحيّز وتعزيز التفاهم. من المهم أن يعمل الصحفيون على تحليل الحقائق والمعلومات بعناية قبل نشرها، والامتناع عن الانجراف نحو تكرار الأخبار بدون التحقق من صحتها.

الجدول: الإعلام وتأثيره في تشكيل سياسات مكافحة الإرهاب

التأثير في تحديد الأجندة السياسية	تقديم التقارير والتحليلات الشاملة حول التهديدات الإرهابية وتحدياتها، مما يمكن صانعي القرار من تحديد الأولويات وإقامة استراتيجيات فعالة لمكافحة الإرهاب
تعزيز الوعي والتحرك	توفير المعلومات الواقعية والدقيقة للجمهور حول خطورة الإرهاب وأهمية تبني سياسات قوية، مما يعزز الوعي ويحفز على التحرك في مكافحة الإرهاب.

تشجيع الحوار والمشاركة	توفير المنصات للنقاش العام والحوار بين الحكومة والمواطنين وتمكين المشاركة المجتمعية، مما يساهم في اتخاذ قرارات مشتركة ومشاركة الجمهور في صياغة سياسات مكافحة الإرهاب.
رفع الوعي وتعبئة الدعم	تعزيز الشعور بالأمان ورفع وعي الجمهور بأهمية مكافحة الإرهاب، مما يساهم في تعبئة الدعم والمشاركة المجتمعية لمكافحة هذه الظاهرة الخطيرة

ثاني عشر: الأخلاقيات الإعلامية في تغطية الإرهاب

تلعب الأخلاقيات الإعلامية دورًا حيويًا في توجيه عمل وسائل الإعلام أثناء تغطية الأحداث الإرهابية. تفرض التحديات الأخلاقية تحديات فريدة تتطلب توازنًا حساسًا بين متطلبات نقل الأخبار ومسؤوليات حماية المجتمع والأفراد من تأثيرات سلبية.

في بداية التغطية الإعلامية، يتوجب على وسائل الإعلام التحقق من صحة المعلومات والتحلي بالحذر قبل نشر أي تقرير، لذا يجب عليها تجنب نقل المعلومات بدون التحقق من مصداقيتها وتفادي تكرار الأخبار دون التأكد من دقتها. يعد التركيز على الجودة أمرًا حاسمًا لضمان تقديم محتوى إعلامي يلبي معايير الأمانة والدقة.

تأتي حماية خصوصية الضحايا على رأس الأولويات الأخلاقية، وهنا يجب أن تمتنع وسائل الإعلام عن نشر صور صادمة أو تفاصيل دقيقة قد تؤدي إلى تحديد هوية الضحايا، مما يخلق احترامًا للأفراد المتأثرين ويقلل من تداول المحتوى الصادم.

من جانب آخر، ينبغي على الإعلام تجنب التحريض أو إثارة الكراهية، ويمكن أن تؤدي تغطية غير حذرة للأحداث الإرهابية إلى تشكيل صورة مغلوطة أو إثارة التوترات بين الجماهير. يجب أن يكون للصحفيين تأثير إيجابي على التوجيه العام من خلال تقديم تحليلات هادفة وموضوعية للأحداث.

في الختام، يجسد الالتزام بالأخلاقيات الإعلامية ركيزة أساسية في بناء ثقة الجمهور والحفاظ على دور الإعلام كرقيب للحقيقة والشفافية، ويعزز هذا الالتزام مسؤولية وسائل الإعلام في توجيه تأثيراتها بشكل إيجابي على المجتمع وتشكيل رأي عام متوازن ومستنير.

يجب أن تحترم وسائل الإعلام خصوصية المتضررين من الأعمال الإرهابية وتجنب الكشف عن تفاصيل قد تؤدي إلى تعريض حياتهم للخطر.

التحدي	الحل
تحييد الأحداث وتوجيه الجمهور	تقديم المعلومات بشكل صحيح وموضوعي
استخدام اللغة العنصرية أو التحريض على العنف	تجنب استخدام اللغة العنصرية وتعزيز السلم الاجتماعي
انتهاك خصوصية المتضررين	احترام خصوصية المتضررين وتجنب تعريض حياتهم للخطر
تحقيق الانتصارات للمجرمين	تجنب تحقيق الانتصارات للمجرمين والإشادة بأفعالهم

"تعتبر التحديات الأمنية عاملاً مؤثرا، فإلى جانب تأمين سلامة الصحافيين أثناء تغطية الأحداث الإرهابية، يتعين أن تتجنب وسائل الإعلام الانحياز والتلاعب السياسي، وهو ما يتطلب مراعاة قواعد الأخلاقيات الإعلامية وتوفير التوازن والموضوعية في التغطية، فالتحديات السياسية أيضا تؤثر على دور الإعلام في مكافحة الإرهاب، وقد يتعرض الإعلام لضغوط سياسية من جانب الحكومات أو الجماعات المتطرفة"

ثالث عشر: الإعلام وتعزيز التعاون الدولي في مكافحة الإرهاب

الإعلام يلعب دوراً بارزاً في تعزيز التعاون الدولي في مجال مكافحة الإرهاب. حيث يمكن أن يكون وسيطاً فعّالاً في نقل المعلومات وتشجيع التضامن الدولي, ومن خلال تبادل المعلومات والتحليلات الدقيقة. يمكن لوسائل الإعلام أن تلعب دوراً حيوياً في توجيه الضوء على التحديات الأمنية العالمية وتعزيز الفهم المشترك.

يساهم الإعلام في تحفيز التعاون الدولي من خلال توفير منصة للحوار وتبادل الآراء بين الدول والمجتمع الدولي. يمكن للنقاشات والتحليلات الوسائطية أن تساهم في تشكيل رؤى مشتركة وفهم متبادل. مما يعزز التكامل في الاستراتيجيات ويدفع نحو تعزيز التنسيق الدولي في مكافحة الإرهاب.

عند تسليط الضوء على التحديات الأمنية العالمية. يتيح الإعلام للمجتمع الدولي فهماً أعمق للأوضاع الإنسانية والسياق الثقافي والاقتصادي الذي يمكن أن يكون جزءاً من جذور مشكلة الإرهاب, وهذا بدوره يعزز الوعي الدولي والتفاهم بين الثقافات. مما يساهم في تقوية العلاقات الدولية وبناء جسور التواصل.

بهذه الطريقة. يظهر الإعلام كشريك حيوي في تعزيز التعاون الدولي لمكافحة الإرهاب. ويسهم في تشكيل مستقبل آمن ومستدام للمجتمع الدولي.

رابع عشر: تحديات الإعلام في مكافحة الإرهاب

تواجه وسائل الإعلام في مجال مكافحة الإرهاب تحديات عديدة تؤثر على قدرتها على توفير المعلومات وتوجيه الجمهور. إحدى هذه التحديات هي الصعوبات التقنية. حيث يحتاج الإعلام إلى متابعة التطورات التكنولوجية للحفاظ على القدرة على نقل المعلومات بسرعة ودقة, فعلى سبيل المثال. يجب على الصحافيين تعلم استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والتكنولوجيا الحديثة للوصول إلى الجمهور بفاعلية.

وتعتبر التحديات الأمنية أيضًا عاملًا مؤثرًا, فإلى جانب تأمين سلامة الصحافيين أثناء تغطية الأحداث الإرهابية. يتعين أن تتجنب وسائل الإعلام الانحياز والتلاعب السياسي. وهو ما يتطلب مراعاة قواعد الأخلاقيات الإعلامية وتوفير التوازن والموضوعية في التغطية.

إن التحديات السياسية أيضًا تؤثر على دور الإعلام في مكافحة الإرهاب, وقد يتعرض الإعلام لضغوط سياسية من جانب الحكومات أو الجماعات المتطرفة. مما يعرض حرية الصحافة وقدرتها على نقل الحقائق والتحليلات بشكل

حيادي وموضوعي للخطر، فيجب على الإعلاميين أن يكونوا واثقين في مبادئهم ويواجهوا هذه التحديات بشجاعة وحزم.

الجدول: تحديات الإعلام في مكافحة الإرهاب، والحلول المقترحة

تحديات الإعلام في مكافحة الإرهاب	الحلول المقترحة
التحديات التقنية	الاستثمار في التكنولوجيا الحديثة وتدريب الصحفيين على استخدامها
التحديات الأمنية	توفير حماية للصحافيين وتعزيز الوعي بقواعد الأخلاقيات الإعلامية
التحديات السياسية	التمسك بمبادئ الحرية الصحفية والتواصل مع منظمات المجتمع المدني للضغط على الحكومات لضمان حرية الصحافة

تواجه وسائل الإعلام تحديات متعددة في مجال مكافحة الإرهاب، ولكن يمكن تغلب عليها من خلال الاستثمار في التكنولوجيا، وتعزيز الوعي الأمني، والتمسك بالمبادئ الأخلاقية والتواصل مع المجتمع المدني من خلال التغلب على هذه التحديات.

الخلاصة

تناولت في هذا البحث دراسة تأثير الإعلام على تشكيل الرأي العام ومكافحة الإرهاب، واستعرضت في الأقسام السابقة دور الإعلام في نقل المعلومات المتعلقة بالإرهاب، وتأثيره على تشكيل الرأي العام وتوجيه آراء الناس، وتشكيل سياسات مكافحة الإرهاب، كما تطرقت إلى الأخلاقيات الإعلامية في تغطية الإرهاب.

كما تم إلقاء الضوء على التحديات التي يواجهها الإعلام في مجال مكافحة الإرهاب، ومن خلال هذه المقالة، توضّحت أهمية الإعلام في توجيه الجمهور وتشكيل الوعي بمخاطر الإرهاب، بالإضافة إلى دوره في تعزيز التعاون الدولي وتقديم المعلومات الدقيقة والواقعية.

يمكن القول إن الإعلام يلعب دورًا حاسمًا في مكافحة الإرهاب وتشكيل الرأي العام، ويحتاج الإعلام إلى الالتزام بالأخلاقيات الإعلامية وتوفير المعلومات الصحيحة والتوعية بمخاطر الإرهاب من خلال التعاون الدولي وتبادل المعرفة.

المراجع والمصادر:

1- القاموس العملي للقانون الإنساني، https://ar.guide-humanitarian-law.org/content/page/about

2- دور وسائل الإعلام الرقمية في تفعيل المشاركة السياسية للشباب الجامعي، د علا عبد القادر عامر، مجلة المصرية لبحوث الإعلام

3- الدور الاتصالي ومعايير المسؤولية الاجتماعية لنشر صور الحوادث الإرهابية، دراسة تقييمية في إطار نظرية المسؤولية الاجتماعية والتحليل الدلالي للصورة، مجلة البحوث الإعلامية، محمدين، أسماء عشري

4- تأثير وسائل الإعلام في تكوين اتجاهات الرأي العام، جامعة مولود معمري، الجزائر، جمعي، سجية

5- دراسة حول تشريعات مكافحة الإرهاب في دول الخليج العربية واليمن، الأمم المتحدة، المكتب المعني بالمخدرات والجريمة، فينيا

القوى المفترسة (دولة الاحتلال التركي نموذجاً)

الحرب الأهلية السورية ما بين القانون الدولي والاحتلال

إسماعيل خالد

تمهيد

تعتبر منطقة الشرق الأوسط من أكثر البؤر توتراً على الخارطة العالمية، إذ تعتبر مصدراً أساسياً لتصدير اللاجئين إلى دول العالم، ففي سوريا وحدها، وحسب المراكز البحثية والأرقام الصادرة عن المنظمات الدولية المهتمة، فقد أرغم أكثر من (11) مليون شخص على النزوح بشكل قسري من قراهم ومدنهم إلى مناطق داخلية أخرى، أو عبروا الحدود الدولية وانتشروا في دول متعددة، وقسم كبير من هؤلاء تعرضوا بشكل وآخر إلى عمليات تهجير كما حصلت في المناطق السورية التي تم احتلالها من قبل تركيا خلال أعوام 2016 وحتى 2019 م .

والهجرة القسرية للسكان لم تساهم في التغيرات الديمغرافية في المناطق التي تركوها فحسب, بل ساهمت وبدرجة كبيرة في تغيرات اجتماعية كبيرة في دول اللجوء. في لبنان على سبيل المثال, تسبب وصول أكثر من مليون لاجئ سوري في إثارة المخاوف من إمكانية اختلال التوازن الطائفي في البلاد. وهو الأمر الذي سبّب إرباكات للنظام السياسي في لبنان, حيث ساهمت هذه الاختلالات الديموغرافية الضخمة في تغيير الهوية الاجتماعية والسياسية للمنطقة على نحو لا رجعة فيه.

والحق أن الأطراف المتحاربة في مختلف أنحاء المنطقة قد تبنّت الطائفية كوسيلة للتحشيد. الأمر الذي زاد من استقطاب السكان على أسس دينية وعرقية, حيث استغلت كل من تركيا وإيران وروسيا الانقسامات الداخلية في سوريا حول مظالم سياسية واقتصادية واجتماعية تاريخية, لتساهم في دعم فصائل مسلحة قامت على تدريبها لتقوم بتنفيذ سياساتها في سوريا. والمتمثلة بتحقيق طموحات العثمانية الجديدة في استعادة الأراضي التي خسرتها بعد توقيع اتفاقية لوزان ٢ عام ١٩٢٣م وتطبيق ما يسمى بالميثاق الملّي.

يمكن صياغة مشكلة هذا البحث في التساؤل الرئيسي الآتي:

إلى أي مدى أثّر التدخّل التركي في شمال وشرق سوريا على أمن واستقرار السكان وعدم حدوث تغيرات ديموغرافية؟

وهناك بعض التساؤلات الفرعية الآتية:

١ - ما الأهمية الاستراتيجية للشمال السوري من منظور الحكومات التركية المتعاقبة؟

٢ - ما أهداف ودواعي ومظاهر ومخاطر التدخّل التركي في الشمال السوري؟

٣ - ما مستقبل هذه التدخّلات التركية في مناطق شمال وشرق سوريا في ضوء التطورات السياسية والتغيرات الدولية التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط ؟

هناك دراسة سابقة قام بها جنكيز تشاندار (٢٠١٢م) بعنوان: السياسة التركية «**صفر مشاكل مع الجوار**» ولا جوار من دون مشاكل, حيث أوضحت الدراسة أن سياسة صفر المشاكل قد انكشف زيفها بعد الأحداث في سوريا. وقد قام الباحث بالتلميح إلى دور منظمة الأخوان المسلمين في المنطقة, وتطرّق في دراسته إلى التدخل التركي في الشأن السوري الداخلي. واصفًا الوضع في سوريا بأنه غير مطمئن لتركيا. ويمكن لهذا الوضع أن يؤثر في الأمن القومي التركي.

المقومات الجيوسياسية في منطقة الشرق الأوسط والتغيرات الدولية الكبرى، وظهور القوى المفترسة

لا شك من أن وجود المقومات الجيوسياسية لدول منطقة الشرق الأوسط من ثروات طبيعية ومصادر طاقة وممرات مائية مهمة, قد أثر تأثيراً كبيراً على مواقع تلك الدول وجعلتها في صلب اهتمام واستراتيجيات قوى الهيمنة العالمية الكبرى, والتي دأبت باستمرار على استخدام تعدياتها وتناقضاتها القومية والأثنية. لتشكيل البيئة النموذجية لتدخلاتها في الدول كما حصل في سوريا. حيث أثبتت تجارب العقدين المنصرمين من جهة أخرى أن تهميش منطقة الشرق الأوسط, وانتقال الاهتمام الأمريكي إلى شرق آسيا لملاقاة الصين كقوة اقتصادية صاعدة. لم يحل دون وصول بكين وموسكو وتركيا وإيران إلى المنطقة, وصياغة التفاهمات وفرض السياسات مع أصحاب القرار فيها.

لعل من أكثر المصطلحات والمفاهيم الجوهرية التي طرحها "أنطونيو غرامشي" هو مصطلح /interregnum/ والمقصود به التغيرات التي تصيب الأنظمة القائمة لتصعد بدلاً عنها قوى

أخرى مهيمنة, وهذه باختصار الفكرة التي أراد أنطونيو غرامشي إيصالها إلى العالم بدلاً من استخدام مصطلحات الهيمنة والاحتلال وصراع الدول فيما بينها, وكذلك نظريات المؤامرة والتي انصبت في مجملها على مفهوم الفجوة المعرفية، أي البحث عن تفسيرات سهلة لظاهرات معقدة متل التغيرات في النظام الكوني والنظام العالمي, وكذلك تفسيرات حدوث الأزمات الاقتصادية وغيرها.

لقد أصاب غرامشي في تحليله لتغير المجتمعات حين قال: «تتجلى الأزمة تحديدا في أن القديم آيل إلى الزوال، بينما لا يستطيع الجديد أن يولد، وفي فترة التريث هذه، يبرز عدد كبير من الأعراض المرضية».

فإن كانت التغيرات في الأنظمة العالمية وفق حركة لا تنتمي إلى تاريخ ثابت وسياسة ثابتة وفلسفة ثابتة سواء على صعيد السياسي، والاجتماعي، والإيديولوجي، فالأمـــر جعل تلك التغييرات المنوهة والمختلفة في دائرة حددها الخطاب السياسي والجيوسياسي.

إن هنـــاك علاقـة جدلية و ثالوث متمثل في الفلســـفة، والسياسة، والتاريخ، حيـــث يعتبـــر غرامشـــي الفلســـفة البعيدة والمنعزلة عن الواقع وأحداثه وصراعاته، ولا توثقه ولا تعيشه، هي فلسفة لا تاريخية، بمعنـى أنهـا لا تتعامـل مـع وقائع تاريخية متغيرة، لأنها ساكنة, فغرامشي لا ينظـــر إلـــى الواقع بعين واحدة، ولا يبحث فـي جانـب علـى حسـاب الجانـب الآخـر, إنه يتعامل مـع الواقـع المتنوع والمتعـدد والمتغيـر، والمحكـوم بـأكثر مـن سـلطة، ابتـداء بالسـلطة التقليدية بمؤسسـاتها المتعـددة إلـى السـلطة السياسـية، ناهيـك عـن السـلطة الشـعبوية المتمثلـة بالخطـاب الـديني الرمـزي، أو الشـعبي.

عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، أسست الولايات المتحدة نظاماً عالمياً هيمنت من خلاله لسنوات على مصادر القرارات السياسية الدولية

"تعتبر منطقة الشرق الأوسط من أكثر البؤر توترا على الخارطة العالمية، إذ تعتبر مصدراً أساسياً لتصدير اللاجئين إلى دول العالم، ففي سوريا وحدها، وحسب المراكز البحثية والأرقام الصادرة عن المنظمات الدولية المهتمة، فقد أرغِم أكثر من (١١) مليون شخص على النزوح بشكل قسري من قراهم ومدنهم إلى مناطق داخلية أخرى، أو عبروا الحدود الدولية وانتشروا في دول متعددة."

وموازين القوى كذلك, كان هيكله الأساسي مشابهاً لبريطانيا العظمى في منتصف القرن التاسع عشر، ولكن مع المؤسسات والمذاهب التي تتكيف مع اقتصاد عالمي أكثر تعقيدًا, ومع المجتمعات الوطنية الأكثر حساسية للتداعيات السياسية للأزمات الاقتصادية.

لقد تبلور النظام العالمي الأحادي القطب بعد عام ١٩٦٥, فقد بات من الواضح أن النظام العالمي أصبح قائماً على أساس لم يعد يعمل بشكل صحيح, فخلال السنوات التي تلت ذلك، ظهرت أربع ظواهر للتحول الهيكلي للنظام العالمي:

- ظهور مصطلح القوى المفترسة المتمثلة في الدول الإقليمية التي تنصاع للنظام العالمي الجديد, ولا تتسبّب لها بتغيرات كبيرة.

- إعادة بناء الهيمنة مع توسيع سياسات الإدارة الأمريكية.

- تفكك أكبر للاقتصاد العالمي حول المجالات الاقتصادية المتمركزة في القوى العظمى.

- نشوء القوى المضادة التي قام بها العالم الثالث, والتي كانت بمثابة مقدمة للمطلب المشترك لنظام اقتصادي دولي جديد.

دور قوى الهيمنة العالمية والدول المفترسة، والآليات التي تتبع لها:

إن إحدى الآليات التي يتم من خلالها التعبير عن المعايير العالمية للهيمنة العالمية, تتجسد في السياسات التي تعمل عليها القوى المفترسة عبر المنظمات الدولية, ففي الواقع تعمل تلك المنظمات الدولية كعملية تتطور من خلالها مؤسسات الهيمنة وأيديولوجيتها. ومن بين الخصائص التي تظهر الدور المهيمن للمنظمات الدولية يمكننا ذكر ما يلي:

١. تحتوي هذه المنظمات على القواعد التي تسهّل توسع النظام العالمي المهيمن على كافة المجالات والأصعدة.

٢.هذه المنظمات هي نتاج للنظام العالمي وقوى الهيمنة العالمية.

٣. هذه المنظمات تشرّع أيديولوجيات وتغير ثقافات الشعوب, وتطبق قواعد النظام العالمي وقوى الهيمنة العالمية.

٤. تستغل هذه المنظمات نُخب البلدان وخبراتها ومواردها وإمكاناتها البشرية.

٥. تستوعب هذه المنظمات الأفكار المضادة لقوى الهيمنة العالمية وتعمل على صناعة أفكار تناسب قوى الهيمنة.

٦. تعمل على إجراء تغييرات جذرية للمجتمعات التي تعرضت للحروب عبر التغييرات الديموغرافية أو تغيير خرائط السيطرة على الجغرافيا.

تهتم الدول المهيمنة بضمان موافقة الدول الأخرى وفقًا للتسلسل الهرمي للسلطات داخل هيكل الهيمنة بين الدول, ويبدأ ذلك بإشراك بعض دول المنطقة أولاً حيث يتم تأكيد دعمها, ثم يجري السعي للحصول على موافقة من بعض البلدان الأكثر هامشية على الأقل. يمكن ترجيح المشاركة الرسمية لصالح القوى المهيمنة مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمات حقوقية وقانونية وإنسانية مثل Human Rights Watch, أو يمكن أن تكون على أساس دولة / صوت واحد كما هو الحال في معظم المؤسسات الدولية الكبرى الأخرى.

هناك هيكل تأثير غير رسمي يعكس المستويات المختلفة للسلطة الحقيقية سياسياً واقتصادياً, وهو ما يشكل الأساس لإجراءات صنع القرارات الرسمية. كما تلعب المؤسسات الدولية دورًا أيديولوجيًا, فهي تساعد على تحديد المبادئ التوجيهية لسياسات الدولة وإضفاء الشرعية على بعض المؤسسات والممارسات على المستوى الشعبي. إنها تعكس توجهات مواتية للقوى الاجتماعية والاقتصادية المهيمنة.

تسعى تلك الدول المفترسة وعبر المنظمات الدولية إلى الاستحواذ على أعظم مواهب البلدان التي تعاني من اضطرابات وحروب وخلل في أنظمة حكمها, مذكّرةً بالممارسة السياسية للتحول. الأفراد في هذه البلدان حتى لو فكروا في الانضمام إلى المنظمات الدولية بفكرة تغيير النظام من الداخل, محكوم عليهم بالعمل ضمن هياكل الثورة السلبية, وفي أحسن الأحوال سوف يساعدون في نقل عناصر التحديث إلى الأطراف, ولكن فقط إذا كانت متوافقة مع مصالح السلطات المحلية القائمة.

الحرب الأهلية السورية و القانون الدولي

ظهرت هذه التسمية مراراً في الخطابات العامة لمسؤولي الأمم المتحدة Syrian civil war والتي ترمز إلى سنوات الأزمة السورية التي بدأت عام ٢٠١١ ومازالت تأثيراتها وتبعاتها تؤثر دون نهاية.

في الوقت الذي اتجهت فيه أنظار شعوب العالم إلى الأمم المتحدة لعلها تحدث تغييراً, كانت الأخيرة خجولة في مواقفها من هذه الانتهاكات الجسيمة طوال هذه السنوات, خجولة جداً أمام معاناة هذا الشعب, وهذا ما يؤكد فرضية أن

الرعاة الرئيسيين للقرار والدول الكبرى لاتخاذ القرار يستخدمون مجلس حقوق الإنسان لدعم أجندتهم فحسب، ولحماية مصالح الدول العظمى.

بعد مضي أكثر من ثلاثة عشر عاماً على الحرب السورية والتي تخللتها انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني، نجد أن وضع الإنسان في سوريا وفق المعايير الدولية يعتبر في الحضيض، فوفقاً للعهدين الدوليين لحقوق الإنسان، تصنف هذه الحقوق في فئتين، هما الحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكل هذه الحقوق هي اليوم في سوريا في وضع متدهور بشكل جسيم، وماتزال تتدهور بشكل حادّ ومتسارع نتيجة استمرار الاحتلال التركي وانعدام سبل العيش في المناطق المحتلة من قبل دولة الاحتلال التركي.

الانتهاكات التركية بحق دول الجوار عموماً وسوريا في شمالها وشمال شرقها على وجه التحديد، تكاد لا تتوقف ولا تخلو من جرائم الإبادة الجماعية وجرائم الحرب، بدءاً من حرب المياه التي تمارسها على شعوب سوريا والعراق، وكذلك حرب المعابر والحصار والاستهدفات المستمرة بما في ذلك الهجمات الوحشية التي تستهدف المدنيين الآمنين في بيوتهم، وذلك باستخدام مُسيَّرات تخترق المجال الجوي السوري بالإضافة إلى القصف العشوائي على طول الشريط الحدودي الملاصق للمناطق السكنية، فضلاً عن استهداف البُنَى التحتية والمنشآت الحيوية كمحطات النفط والغاز والمدارس والمستشفيات في عموم مدن وبلدات شمال وشرق سوريا، إضافةً لجرائم القتل العمد والإعدامات الميدانية، وكل تلك الانتهاكات تأتي بصورة ممنهجة ومدروسة هدفها الأساسي زرع حالة الخوف والتوتر والبلبلة، رغبة منها في إفراغ المنطقة من سكانها وتهجيرهم وإبعادهم عن موطنهم من أجل إقامة مشاريع استيطانية جديدة، والقيام بتغييرات ديموغرافية من أجل تغيير التركيبة والبنية السكانية وتغيير الحقائق وتشويه التاريخ، بالاعتماد على منظمات إخوانية تدعمها دول راعية للتطرف والإرهاب تحت

"هناك علاقة جدلية و ثالوث متمثل في الفلسفة، والسياسة، والتاريخ، حيث يعتبر غرامشي الفلسفة البعيدة والمنعزلة عن الواقع وأحداثه وصراعاته، ولا توثقه ولا تعيشه، هي فلسفة لا تاريخية، بمعنى أنها لا تتعامل مع وقائع تاريخية متغيرة، لأنها ساكنة، فغرامشي لا ينظر إلى الواقع بعين واحدة، ولا يبحث في جانب على حساب الجانب الآخر، إنه يتعامل مع الواقع المتنوع والمتعدد والمتغير، والمحكوم بأكثر من سلطة"

مسميات جمعيات خيرية، وكل تلك الممارسات موثقة لدى المنظمات الإنسانية والحقوقية الدولية.

معايير القانون الدولي الإنساني والمناطق الآمنة

لقد حثت القوانين الدولية على حماية السكان وعدم التعرض للمدنيين، ففي اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية تنص المادة الثانية منها على: «تعني الإبادة الجماعية الأفعال التالية المرتكبة على قصد التدمير الكلي أو الجزئي لجماعة قومية أو أثنية أو عنصرية أو دينية بصفتها هذه تعتبر قتل أعضاء من الجماعة، إلحاق الأذى الجسدي أو الروحي بشكل خطير بأعضاء من الجماعة، إخضاع الجماعة عمداً لظروف معيشية يراد بها تدميرها المادي كلياً أو جزئياً». والمادة الثالثة منها تنص أنه يعاقب على الأفعال التالية: «الإبادة الجماعية، التآمر على ارتكاب الإبادة الجماعية والتحريض والمحاولة والاشتراك في تلك الأعمال

”استطاعت تركيا استغلال الوضع المتردي للأنظمة العربية، والتدهور الذي حصل في العلاقات بين أطرافها، مما جعلها تتوغل إلى العالم العربي وتتفاعل مع مكوناته، وذلك من خلال رؤيتها الخاصة للحفاظ على مصالحها و أمنها القومي، وخاصة أن علاقاتها مع بعض دول الإقليم قد تدهورت نتيجة تباين وجهات نظر تلك الدول على الأحداث الدموية في سوريا“

بطريقة أو بأخرى».

وفي اتفاقية جنيف الرابعة تهدف القوانين إلى حماية المدنيين من الحرب, والبروتوكول المتمم الثاني لاتفاقية جنيف عن ضحايا النزاعات المسلحة غير الدولية, حيث تنص المادة الثالثة عشرة منها على حماية السكان المدنيين بحماية عامة، والمادة ١٤ حماية الأعيان التي لا غنى عنها لبقاء السكان المدنيين على قيد الحياة, والمادة ١٥ حماية المنشآت الحيوية, والمادة ١٦ حماية الرموز والأعيان الثقافية وأماكن العبادة, والمادة ١٧ حظر التهجير والترحيل القسري للمدنيين.

وتم تعريف جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية في المادة ٧ من قانون المحكمة الجنائية الدولية, حيث يشكل أي فعل من الأفعال التالية جريمة ضد الإنسانية متى ارتكب في إطار هجوم واسع النطاق أو بشكل ممنهج و موجّه ضد مجموعة من السكان المدنيين وعن علم بالهجوم: «القتل العمد, الإبادة, إبعاد السكان أو النقل القسري للسكان, التعذيب, الاغتصاب, اضطهاد أية جماعة محددة أو مجموعة محددة من السكان لأسباب سياسية أو عرقية أو قومية».

والبروتوكول (١) المادة (٥٩-١) حظر الهجوم من قبل الأطراف المتصارعة على المناطق الآمنة.

الدور الإقليمي التركي في ضوء واقع النظام الإقليمي الشرق أوسطي

اهتمت السياسة الخارجية التركية بالدفاع عن القضايا العربية والإسلامية والتفاعل معها، خاصة في سبيل الولوج والوصول إلى المنطقة عن طريق الحرص على قضاياها والاندماج بها، وقد أظهرت تركيا اهتمامها بالقضايا الشائكة في المنطقة وأقحمت نفسها في خلافات وصراعات خارج حدودها, رغبة منها في ترسيخ مظهر القوة التي تعتمد على عمق وجودها الاستراتيجي في المنطقة, فتدخلت إلى جانب الجيش الأذري خلال الخلاف الأرميني الأذربيجاني, وكذلك أرسلت قوات من المرتزقة التابعة لها إلى مناطق أخرى مثل ليبيا وقطر والسودان، وأيضاً تدخلت في القضية الفلسطينية حيث كرّست نفسها للدفاع عنها في المحافل الدولية كافة، ويعد هذا الاهتمام أحد ركائز دور تركيا في منطقة الشرق الأوسط، كما وحرصت تركيا على التحالف الاستراتيجي مع إيران، وتؤكد على حقّ إيران بامتلاك الأسلحة النووية، كما تجري مباحثات مع دول الاتحاد الأوروبي بصفتها عضواً في الاتحاد، كما تجتمع مع الدول العربية في القمم التي تعقدها من جهة، وتشارك في اجتماعات وزراء الدول العربية التي تُدعى إليها من جهة أخرى.

ترى تركيا من خلال نظريتها حول النظام الشرق أوسطي, أن حرب الخليج الثالثة التي اندلعت عام (٢٠٠٣م)، جاءت بعد متغيرات أمنية وسياسية واستراتيجية، دعت إلى إعادة تشكيل المنطقة على نحو جديد، خاصة وأن الأنظمة العربية بدأت في الضعف والتآكل، وقد جاء دخول تركيا كطرف فاعل ومؤثر في الجغرافيا

السياسية والأمنية للمنطقة، وبأساليب تقوم على استغلال المصالح، والرهان على توازناتها بين القوى المهيمنة في المنطقة مثل روسيا والولايات المتحدة، وينطلق التصور التركي من خلال إدخال دول الجوار الجغرافي (تركيا وإيران وإسرائيل) في إطار النظام الإقليمي الجديد، وهو ما جعل تركيا تتدخل في شؤون المنطقة العربية خاصة والشرق الأوسط على وجه العموم.

استطاعت تركيا استغلال الوضع المتردي للأنظمة العربية، والتدهور الذي حصل في العلاقات بين أطرافها، مما جعلها تتوغّل إلى العالم العربي وتتفاعل مع مكوناته، وذلك من خلال رؤيتها الخاصة للحفاظ على مصالحها و أمنها القومي، وخاصة أن علاقاتها مع بعض دول الإقليم قد تدهورت نتيجة تباين وجهات نظر تلك الدول على الأحداث الدموية في سوريا، مما أوصل العلاقات بين تركيا وهذه الدول إلى التراجع الواضح، وقد بدا ذلك واضحاً مع إيران والعراق ومصر، وعليه استطاعت تركيا فهم الواقع العربي، واستغلال حالة الضعف والتردي، الذي يعاني منها النظام العربي، وبناء على ذلك أقامت تركيا علاقاتها مع هذا النظام وفق مبادئ سياستها الخارجية واستراتيجيتها، على أساس عوامل الضعف العربي المتراكم، ولم تجد تركيا صعوبة في الولوج إلى هذا النظام والتوغل فيه والتفاعل مع مكوناته، مما جعلها تجد موطئ قدم لها فيه.

كما تسببت تركيا بإحراج النظام الإقليمي العربي في أكثر من مرة، وكان للتهديدات التي أطلقتها أنقرة تجاه النظام السوري فيما يتعلق بالقضية الكردية أثرها في كشف تركيا لترهّل النظام العربي، وذلك في الفترة التي سبقت التقاء المصالح التركية العربية، خاصة بعد نشوب الأزمة السورية، حيث اتفق الأتراك والجامعة العربية على احتضان المعارضة السورية في مؤتمرات على الأراضي التركية تارةً، وفي مقر الجامعة الرئيس تارةً أخرى، ومن ناحية أخرى دعمت تركيا توقيع وفرض عقوبات على النظام السوري من الجامعة العربية، وهو ما جعل تركيا أحد أركان النظام العربي، كما أصبحت تركيا أحد أعمدة المؤتمرات العربية التي تُعقد بشأن سوريا أو غيرها داخل الجامعة العربية.

السياسات التركية في المناطق السورية المحتلة

إن التركيبة السياسية للعقلية التركية وحكوماتها المتعاقبة هي تحقيق الهدف ذاته، أي إعادة أمجاد إمبراطورية تركية كبرى تمتد من الأناضول إلى آسيا الوسطى وأجزاء من روسيا، مروراً بكردستان وأرمينيا وشمالي سوريا والعراق والقوقاز، إضافة إلى مد نفوذها إلى كافة أرجاء العالم الإسلامي والعربي الشرق أوسطي، وذلك عبر التدخل في شؤون الدول الأخرى وتصدير الأزمات، وهي لا توفر أي أسلوب أو طريقة لتحقيق تلك الأهداف وذلك عن طريق حرب المياه التي تعتبرها وسيلة للسيطرة وابتزاز الشعوب، وأيضاً من خلال السيطرة على مقدرات الشعوب وأساليب الحرب الخاصة، وإجبار الدول على التنازل والسيطرة و تحقيق مطالب الدولة التركية.

تبرز مظاهر سيطرة تلك القوى المفترسة المتمثلة بدول الاحتلال التركي، في ظهور العنف والإرهاب والتطرف في مناطق سيطرتها، وكذلك انتشار الأسلحة والفلتان والفوضى والميليشيات والفصائل التي تتخذ الطابع الارتزاقي، والتسارع الكبير في التسلح مقترناً بحالات يلوح فيها استخدام العنف الجمعي، حيث تعتبر مشكلة العنف واحدة من أصعب القضايا التي تواجه العالم، وليست المشكلة مجرد تراكم العتاد العسكري فحسب، بل تفاقم التوترات المحلية في عدد من المناطق، والمقترنة في الغالب بانقسامات عرقية ودينية ومذهبية وبروز ظاهرة الإرهاب العالمي العابر للقارات، وتنامي الأصولية الدينية، التي تترافق مع انتشار وتوسع خطاب العنف والكراهية الذي لا يميز بين هدف عسكري ومدني، ومع أن مهاجمة هدف عسكري قد ينتج عنها خسارة مادية آنية، إلا أن الخسارة والشق المجتمعي الناجمين عن تأثيرات خطاب الكراهية

”أكّد المفكر الأممي عبد الله أوجلان على أن الخليط الطبقي الهجين المؤلف من البرجوازية التركية والبيروقراطية المسمى بـ (أصحاب التركياتية البيضاء) والذي لا يخفى على أحد أنها تمثل الدولة العميقة التي تدير الدولة التركية وتتحكم بها وتوجهها، وترسم سياساتها، حيث تبنّى هؤلاء ومايزالون مشاريع إقصاء العناصر الديمقراطية والإبقاء على المؤامرات حيال الشعوب في المنطقة“

عادة ما يستمران لأجيال, وقد تنتج عنهما نزاعات لا تتوقف لعقود قادمة.

تتغذّى مشاعر الكراهية لدى الأفراد أو الجماعات باستغلال الجانب الغرائزي والانتماءات الضيّقة والهويّات المغلقة من قبل القوى المفترسة، التي تقوم على التعصّب بادعاء الأفضليات وامتلاك الحقيقة تحت مسوّغات دينية أو عرقية (إثنية) أو طائفية أو مذهبية أو أيديولوجية أو عشائرية أو غير ذلك، وهذه بدورها تنمّي الشكوك وتزرع الأحقاد بين الناس، لأنها تقوم على ادعاءات التفوّق، فيصبح ”الآخر“ خصمًا أو عدوًّا ”وكلّ غريب مريب“، وبالتالي فهو لا يستحقّ ذات المكانة التي ينتمي إليها الفرد أو المجموعة.

والتعصّب يتضمّن الرغبة في الإقصاء والإلغاء والتهميش، والحطّ من قدر الآخر، وذلك قبل أن يتحوّل إلى فعل أو سلوك، إلّا أنه يصبح خطرًا حين ينتقل من التفكير إلى التنفيذ فيتحوّل إلى تطرّف.

والتطرّف يقترن بفرض الرأي بالقوّة بزعم امتلاك الحق، فيسوق حججًا ومبررات لذلك، وهكذا لا يتورّع المتطرّف عن اللجوء إلى العنف لفرض رأيه. والعنف هو نتاج استيلاء التعصب والتطرّف على عقل الإنسان، وتبرير ما يقوم به حتى ولو ارتكب مجازر، فلا ضير في ذلك, لأن الحقيقة ستكون إلى جانبه مدّعيًا أن غايته شريفة، بغضّ النظر عن الوسيلة التي يستخدمها للوصول إلى غايته. وبالطبع لا تعصم المبادئ الدينية أو القومية أو الأيديولوجية من ارتكاب المعاصي والآثام تحت الحجج ذاتها.

إن ثقافة الكراهية، هي نتاج فكر استعلائي متعصّب يدّعي احتكار الحق والحقيقة، بعضها يقوم على أوهام التفوّق التي يتم ضخّها بأساليب مختلفة من خلال مناهج التعليم والإعلام والخطاب الديني بالضدّ من الآخر، سواء بالممارسة العملية أو من خلال قوانين تمييزية تتعارض مع ثقافة السلام والتسامح والتنوّع والتعددية.

مع تصاعد الأزمة السورية، وامتداد تأثيرها على الأمن القومي التركي على حسب زعم الأتراك، بدأت الدولة التركية بمرحلة التهديد, وتدرّج ذلك حتى وصل إلى مرحلة التدخل العسكري داخل الأراضي السورية، وهو ما تمثّل في عدة عمليات عسكرية قامت من خلالها بمحاولة احتلال لمناطق واسعة من الجغرافيا السورية، هذا التدخل يتناقض تماماً مع القوانين والأعراف الدولية كافّة والتي تجرّم استباحة سيادة أي دولة من قبل دولة أخرى.

هدفت دولة الاحتلال التركي من خلال تدخلها إلى تحقيق عدة أهداف، منها تخفيف العبء عن الضغوطات الداخلية السياسية ومنها الأسباب الاقتصادية, وأيضاً رسم وترسيخ حالة جديدة من الوجود التركي على الأراضي السورية بهدف دعم الفصائل المسلحة التي تدعمها, وأيضاً استعادة أمجاد الدولة العثمانية وتطبيق الميثاق الملّي.

مع تطور الأزمة السورية وزيادة عدد اللاجئين السوريين الذين تدفقوا إلى تركيا من ناحية،

وعلى الدول الأوروبية من ناحية أخرى، أصبح ذلك إحدى دعائم تركيا كورقة ابتزاز للمجتمع الدولي وللاتحاد الأوروبي وحلف الناتو بصفة خاصة، وذلك لإقناعهم بشرعنتها للاحتلال بحجة أمنها القومي، فضلًا عن ذلك كان الاتفاق التركي مع بعض الدول العربية في أحيان عديدة، يدفعها للتدخّل بشكل أو بآخر في الأزمة السورية.

كما استمر التدخل التركي في سوريا مع وصول التهديدات إلى أقصى درجة، حين دخلت القوات التركية بمساندة «مرتزقة الجيش السوري الحر» إلى منطقة عفرين السورية والسيطرة عليها في منتصف شهر آذار/مارس ٢٠١٨م، وذلك بعد خوضها عملية سميت بغصن الزيتون في شهر كانون الثاني/يناير ٢٠١٨م.

سعت تركيا من خلال هذه العملية إلى توسيع نفوذها، والحفاظ على مصالحها المختلفة في سوريا، والمساهمة في تأجيج الصراع، وتعزيز فرص حضورها في ساحة الصراع الدولي.

لقد أسهمت التدخّلات التركية في الحرب الأهلية السورية، وما نتج عنها من زعزعة للأمن القومي السوري في زيادة مساحة الفوضى والحرب الأهلية في سوريا، كما تحولت المناطق التي احتلتها إلى بؤر تُدار فيها عمليات ممنهجة في القتل والإبادة والتغيير الديموغرافي وجرائم ضد الإنسانية ومخاطر عديدة.

والخلاصة أن مؤشراً خطيراً يوضح مدى التدخل العسكري التركي في استباحة الأراضي السورية، كما يتضح من خلال تلك الاحتلالات التي تهدف إلى استباحة سيادة دولة ليس من شأنها أن تهدد أمن جارتها القومي.

خلاصة :

أكد المفكر الأممي عبد الله أوجلان على أن الخليط الطبقي الهجين المؤلف من البرجوازية التركية والبيروقراطية المسمى بـ (أصحاب التركياتية البيضاء) والذي لا يخفى على أحد أنها تمثل الدولة العميقة التي تدير الدولة التركية وتتحكم بها وتوجهها، وترسم سياساتها، حيث تبنّى هؤلاء ومايزالون مشاريع إقصاء العناصر الديمقراطية والإبقاء على المؤامرات حيال الشعوب في المنطقة، حيث لم تغب المجازر إلى يومنا هذا، وتجسدت نماذج وحشية هذه الاستفزازات عبر الحرب الخاصة وحرب المياه والتجويع والحصار وضرب البنية التحية الخدمية وعبر الاستهدافات وغيرها.

إن سياسة دولة الاحتلال التركي جعلتها بعيدة عن هذا الدور الإنساني المتمثل في حماية السكان وتطبيق القانون الدولي الإنساني، عبر استغلالها أحداث سوريا لتمرير مشاريعها التوسعية، مما جعلها تتعامل مع الأزمة السورية كأنها داخل تركيا ذاتها، أما الهدف الآخر فتمثل في رغبة الأتراك في العودة للعب دور أساسي في منطقة الشرق الأوسط، خاصة في ظل تغير أقطاب النظام الدولي، والذي يستدعي منها إعادة صياغة دورها الإقليمي من جديد، كما من أهداف تركيا الاندماج في الاتحاد الأوروبي من خلال لعبها هذا الدور، وذلك بتكوين عوامل ضاغطة تستطيع من خلالها الولوج إلى أوروبا عن طريق الأزمة السورية.

المراجع :

1. روبرت كوكس ،غرامشي الهيمنة والعلاقات الدولية، مجلة الدراسات الدولية، بغداد 1983م
2. ريتشارد أتش روبنز ، المشاكل العالمية وثقافة الرأسمالية، ترجمة فؤاد سروجي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان الأردن 2008م.
3. عدنان صافي، الجغرافيا السياسية بين الماضي والحاضر، عمان: مركز الكتاب الأكاديمي للنشر والتوزيع، 1999م
4. جنكيز تشاندار، السياسة التركية، صفر مشاكل مع الجوار، مجلة الدراسات الفلسطينية العدد 93، 2012 م

تحديات الأمن في الشرق الأوسط
الإرهاب و الصراعات الإقليمية

مصطفى شيخ مسلم

تعتبر منطقة الشرق الأوسط من أكثر المناطق التي تشهد صراعاتٍ مختلفة نتيجة التنوع العرقي والدينيِ والإثني وحتى القومي في المنطقة المذكورة آنفاً، عدا عن السياسات المتّبعة من قبل الدول المهيمنة وما تخلقه من فجواتٍ مُتعمَّدة بين مجتمعات الشرق الأوسطِ، وذلك بهدف شرعنة التدخل في شؤونها الداخلية وبالتالي التحكم في مصير البلاد بحججٍ مختلفة، عبر ادّعائها بالتدخل لإنهاء الحروب وفضّ الخلافات، بيد أنَّ الحقيقة دائماً ما تكون بانحيازها لطرفٍ على حساب آخر.

وفي غالب الأحيان قد تؤدي هذه التدخلات إلى مزيدٍ من الفوضى والكثير الكثير من الحروب الأهلية الدموية، التي تنتهي إما بالانفصال كما حدث في السودان أو بالهُدن الهشَّة التي سرعان ما يتم خرقها كما حدث في اليمن وليبيا والكثير من دول الشرق الأوسط.

وبهذا الصدد، تفيد دراسة بأنَّ حوالي ٧٥٪ من الحروب الأهلية على مستوى العالم قد انتهت بانتصار أحد الأطراف على حساب تدمير الطرف الآخر بشكل كامل، فيما بلغت نسبة الحروب الأهلية التي انتهت بالتفاوض بين أطراف المعركة، والتوصل لتسوية سلمية، قرابة ٥٪، فيما قُدِّر عدد الحروب الأهلية التي انتهت عن طريق وساطة طرف خارجي بحوالي ٢٠٪.

وفي ذات الوقت، يبدو أنه من المستبعد نجاح أي جهود للوساطة الخارجية في الشرق الأوسط، إذا لم تُقترن بتدخل خارجي مباشر يجعل جميع الأطراف متعادلين في القوة، على أن يتم بعد هذا التدخل ضمان تمثيل مناسب وعادل في المناصب السياسية المختلفة لجميع الأطراف.

إيران من جهتها لم تتوقف عن التدخل في منطقة الشرق الأوسط لزعزعة استقرار المنطقة منذ سنوات طويلة، حيث قامت عام ١٩٨٠ بقصف المدن الحدودية العراقية، ما أدى لاندلاع حرب الخليج الأولى، فضلاً عن دعم الجمهورية الإسلامية لحزب الله بعد الغزو الإسرائيلي للبنان، ناهيك عن غيره من التنظيمات في المنطقة.

كما تؤكد التقارير بأنَّ حكومة طهران استغلت الفوضى المنتشرة في الشرق الأوسط، وانهيار العديد من أنظمة الحكم لتنفيذ مشروعها التوسعي في الإقليم، كما يتوقع الخبراء أن يفضي الاتفاق النووي الإيراني مع الغرب إلى دعم الاقتصاد الإيراني، مما يشجع طهران على الإبقاء على سياستها العدوانية، وهذا من شأنه أن يحفّز الاستقطاب في المنطقة والمشاعر العدائية ضدها.

مُجتمِع الغالبية من المتابعين والمتخصصين على أنَّ الأمن في الشرق الأوسط يتطلب صيانة سيادة دول المنطقة وسلامة أراضيها بشكلٍ فعَّال وحازم، ففي السنوات الماضية تعرضت بعض دول المنطقة، من فلسطين إلى العراق، ومن ليبيا إلى سوريا، للانتهاك المتكرر على سيادتها وسلامة أراضيها، كما تعاني شعوبها من الظلم منذ زمن طويل، مما شكَّل النواة الأولى لصراع طويل الأمد والاضطراب في المنطقة. تدعم بكين من جانبها ـ باعتبارها الصديقة المخلصة لدول الشرق الأوسط ـ جهود الدول العربية بكل ثبات في صيانة سيادتها واستقلالها وسلامة أراضيها، وخاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية بصفتها لبّ قضية الشرق الأوسط من وجهة نظرها، فيدعم الجانب الصيني غالباً الشعب الفلسطيني بكل ثبات لاستعادة ما يعتبره حقوق الشعب الفلسطيني الوطنية المشروعة، ومساندته لتحقيق حلمه لإقامة دولة مستقلة. طرح الرئيس الصيني الرؤية الصينية ذات النقاط الأربع لحل القضية الفلسطينية، حيث أكد بكل وضوح على أن الظلم التاريخي الذي يعاني منه الشعب الفلسطيني لا يمكن أن يستمر لأجلٍ غير مسمى، ولا تجوز المساومة على الحقوق الوطنية المشروعة، كما أن التطلعات لإقامة دولة مستقلة لا ينبغي أن تُرفَض.

فالأمن كما أسلفنا يعتبر ضرورة لضمان استمرارية أي كيان في عالمنا هذا، وعليه فإنَّ الأمن في الشرق الأوسط يمكن تلخيصه بنقاطٍ جوهرية تعتليها ضرورة وجود ما يُعرف في يومنا هذا بالأمن القائم على أساس العدالة الاجتماعية والأخلاقية، والمفاهيم السليمة المقبولة من الشارع، على ألا يتم إغفال مبادئ ميثاق الأمم المتحدة وكل ما انبثق عنها فيما يتعلق بحقوق الإنسان في ظل الأنظمة السياسية الحاكمة في المنطقة، فضلاً عن ضرورة فتح قنوات لمحاولة حل الخلافات سلمياً بالدرجة الأولى، عبر الحوار والتشاور داخلياً و على صعيدٍ وطني لكل دولة على حدة.

الصراع العربي ـ الإسرائيلي

على امتداد سنواتٍ طويلة، كان الصراع العربي - الإسرائيلي قضية الشرق الأوسط المحورية، التي كانت محطّ اهتمام المعنيين بشؤون المنطقة، إلا أنه ومنذ عام ٢٠١١ تراخى هذا الاهتمام بعض الشيء. ويؤكد المراقبون على ضرورة إعادة الاهتمام بهذه القضية، لا سيما من جانب الدول الغربية التي تتعرض للمقاطعة الاقتصادية، وسحب الاستثمارات العربية منها بسبب دعمها لإسرائيل.

وكان الكثير من المراقبين يعوّلون على الفترة الماضية بأنَّها الأكثر ملاءمة للتوصل لتسوية سلمية للصراع العربي - الإسرائيلي، حيث إنه في الفترة الأخيرة شهدت كل من حركتي حماس وحزب الله تراجعاً واضحاً، كما تراجعت قوة العديد من الأنظمة العربية التي تعادي إسرائيل. ومن وجهة نظر أخرى يمكن استنباط أنه بات لدى إسرائيل وبعض الدول العربية أعداء مشتركون، وهم إيران وداعش, لكن كانت المعارك الأخيرة وتصاعد وتيرة العنف بين حماس وإسرائيل بمثابة إعادة الصراع العربي الإسرائيلي للواجهة مجدداً، دون وجود بصيص أمل في حلحلة الأمور بين طرفي النزاع وبالتالي إمكانية عقد اتفاقٍ ما.

انخفاض أسعار النفط

ليس خافياً على أحد بأنَّ الدخل القومي للعديد من دول الشرق الأوسط يكون بالدرجة الأولى من الثروة النفطية التي تعتبر أحد مصادر دخلها الرئيسية، بيد أن السوق العالمية تشهد انخفاضاً ملحوظاً في أسعار النفط بين الفينة والأخرى، وهو الانخفاض الذى يتوقع خبراء الاقتصاد أن يستمر لسنوات مقبلة، وهو ما سينتج عنه خلل واضح في موازنات بعض دول المنطقة في قادم الأيام.

وفى السياق ذاته، يُرجِّح الخبراء بأن استمرار تراجع أسعار النفط سينتج عنه تفاقم المشكلات الأمنية، وزيادة عدد الدول الفاشلة في الشرق الأوسط، وتصاعد الحروب الأهلية, ويزداد هذا الأمر حدة في الدول التي تعاني من مشكلات هيكلية بالأساس، مثل العراق وسوريا, والتي لن تستطيع تحمّل تكلفة

"تجمِع الغالبية من المتابعين والمتخصصين على أن الأمن في الشرق الأوسط يتطلَّب صيانة سيادة دول المنطقة وسلامة أراضيها بشكل فعال وحازم، ففي السنوات الماضيّة تعرضت بعض دول المنطقة، من فلسطين إلى العراق، ومن ليبيا إلى سوريا، للدوس المتكرر على سيادتها وسلامة أراضيها، كما تعاني شعوبها من الظلم منذ زمن طويل، مما شكّل النواة الأولى لصراع طويل الأمد والاضطراب في المنطقة"

الحرب على جماعات إرهابية، مثل «داعش»، وهو ما سوف يؤدي بالنتيجة إلى استمرار تمدد هذه التنظيمات مستغلةً بذلك الفوضى الناجّة عن الهشاشة الاقتصادية.

من جهة أخرى، فإن انخفاض أسعار النفط سيدفع ببعض الدول إلى اللجوء للاستدانة المشروطة من الدول والمؤسسات الغربية، وكما بات معروفاً بأنَّ استحقاق هذه القروض سيُقترن بشروط من قبل الدول المانحة كحقوق الامتياز لبرامج إصلاح سياسية واقتصادية واجتماعية.

تحدّي مكافحة الإرهاب

يعدّ الشرق الأوسط بمثابة الحاضنة الأكبر للإرهاب في العالم، من حيث التنظيمات الراديكالية المتطرفة التي تتخذ من بعض الدول لتنطلق بنشاطاتها مستهدفة الشرق الأوسط من الداخل أو مشكّلة تهديداً للعالم أجمع, وهو ما يمكن تعليله بأنه السبب وراء التهالك الاقتصادي

والاجتماعي الذى يعصف بسكان هذه المنطقة, ومن ثم فإن أي إستراتيجية لمكافحة الإرهاب في الشرق الأوسط يجب أن تبدأ بإنشاء برامج إصلاح اقتصادي وإدماج اجتماعي، إلا أن أغلب حكومات الشرق الاوسط تتعامل مع هذه المقترحات باعتبارها نوعاً من الرفاهية، وتكتفي بالاعتماد على الأداة العسكرية بشكل مركزي.

كذلك يمكن القول إن إنشاء التحالفات العسكرية كحلف شمال الأطلسي «الناتو», قد أسهم في الحفاظ على أمن أوروبا، بل ودفعها للتطور قُدماً, ومن ثم فإن الاقتراح الذي لم يلقَ النور من بعض زعماء الدول العربية وبعض دول الشرق الأوسط, هو الاتفاق الذي يفيد بإنشاء تحالف يجمع بين الولايات المتحدة ودول الشرق الأوسط، بما فيها إيران، بحيث يقوم هذا التحالف على تدابير واتفاقيات لمنع استخدام القوة المسلحة بين دوله المنخرطة في هذا الجسم التحالفي، مع وجود آليات فعَّالة لتسوية الصراعات بالطرق السلمية، والسعي للتوصل لاتفاقيات للحدّ من التسلح.

ولعل أحد أبرز أسباب عدم الأخذ بجدية هذا المتقرح هو يقين الجميع بأنَّ إيران لن تكفّ عن إفشال هذا التحالف حتى قبل بدايته.

وفي الوقت ذاته، ولدى الرجوع لتصريحات بعض المسؤولين الإيرانيين المعتدلين، سنجد الذين يعبّرون عن قبولهم لهذه الفكرة بل وترحيبهم بها، ومنهم جواد ظريف، وزير الخارجية الإيراني، في حوار له مع جريدة نيويورك تايمز, عندما كان سفيراً لإيران في الأمم المتحدة.

ومن المحتمل أنه قد تحدث بعض المحاولات لإفشال التحالف المقترح من جانب الدول التي لديها مصالح سياسية واقتصادية في المنطقة مثل: الصين، والهند، وروسيا، لكن يتعين على الولايات المتحدة احتواء تخوفات هذه القوى الدولية، ودعوتها للمشاركة في هذا التحالف، إلا أن وجود روسيا سوف يثير غالباً القلاقل، وقد يؤدي إلى إفشال التحالف، ومن ثم يتوجب تحييدها تماماً.

في المحصلة، يُستخلص مما سبق، ومن التسلسل الزمني للأحداث التاريخية لمنطقة الشرق الأوسط منذ القِدم إلى يومنا هذا، بأنَّ التهديدات الأمنية التي تواجه دول الشرق الأوسط تتجه نحو مزيد من التعقيد والتشابك، إذ لم يعد يجدي معها الحلول الكلاسيكية، وأصبحت هناك حاجة ضرورية لإيجاد أساليب إبداعية وابتكارية لوأد هذه التهديدات بشكلٍ جذري وذلك باللجوء للأطروحات السياسية التي لطالما نادى بها رموز المعارضة البارزين في الشرق الأوسط, كمشروع الأمة الديمقراطية للمفكر الكردستاني المعتقل لدى تركيا، عبدالله أوجلان.

الإرهاب

يعتبر مصطلح الإرهاب ذا مدلول فضفاض نظراً لاستخدامه من قبل أي كيانٍ كان سواءً أكان دولة أو إقليم فيدرالي أو حتى في الأنظمة الكونفدرالية, تجاه كل من يتخذ لنفسهِ مساراً مغايراً عن مسار الكيان المحتضن له أو لمشروعهِ الذي ينادي به والمصحوب غالباً بنشاطاتٍ مناوئة للأنظمة الحاكمة، بمعنى أدقّ، يلجأ كل كيان اعتباري بهدف شرعنة القضاء على خصومه إلى إصباغه بالصبغة الإرهابية ليُصار له التعامل معه عسكرياً وسط تأييد الرأي العام العالمي.

فمناطق الشرق الأوسط أضحت ساحة جيوسياسية واسعة لتغيير موازين القوى الإقليمية والدولية، ولتصفية حساباتهم خارج حدود دولهم، حيث استعادت روسيا دورها الريادي على مستوى العالم بانخراطها في صراعات المنطقة، إذ قدَّمتْ دعماً لا مُتناهياً لحكومة دمشق، ثم توسعت لاحقاً صوب ليبيا كمنصة قفز إستراتيجية ليُصار لها الدخول للقارة السمراء، وامتلاك أوراق ضغط في مضمار التنافس العالمي على موارد الطاقة. وساعدها في ذلك تراخي الوجود الأميركي، فضلاً عن انقسام المواقف الأوروبية. وفي الوقت ذاته وظَّفتْ القوى الإقليمية غير العربية هذه الصراعات لتحقيق المزيد من التغلغل في الدول العربية الهشّة المنكوبة أصلاً بالصراعات، كما كان واضحاً من

خلال التدخل التركي في كلٍ من سوريا وليبيا، وكذلك التواجد الإيراني في سوريا والعراق واليمن ولبنان فيما يُعرف اصطلاحاً باسم الهلال الشيعي.

تعقيدات جمّة

لا يكاد يخفى على أحد بأنَّ السمات الأساسية للصراعات الشرق أوسطية، ولَّدتْ معضلات رئيسية بلغت مستوى صياغة تسويات سلمية مستقرة، يمكن على أساسها إحداث تحول جوهري في واقع المنطقة. فمن جهة أولى، بات التوصل إلى اللحظة الناضجة التي تحدّث عنها ويليام زارتمان محكوماً بتعقيدات عديدة.

ومن منظور آخر، ثمة إشكاليات في أمور التسوية السلمية، مثل قضايا العدالة ومحاسبة المسؤولين عن الانتهاكات، ونزع السلاح، وإعادة بناء المؤسسات، وتقاسم السلطة، وكيفية التعامل مع المحاربين السابقين في المجتمع. ومثل هذه الإشكاليات تحول دون التوصل لسلام مُستتِب، فحتى مع الشروع في إجراءات بناء السلام والدخول في تسويات سلمية مع مفتعلي الصراع، وفي مقدمتها التنظيمات والميليشيات المسلحة، فإنه في الوقت ذاته تبقى احتمالية الارتداد إلى العنف قائمة وبشكلٍ كبير.

وأيضاً، وفق غالبية المراقبين فإنَّ دول المنطقة بحاجة لسنوات وربما لعقود للتعافي من تداعيات الصراعات المسلحة وانعكاساتها على العلاقة بين الدولة والمجتمع، إذ أن أغلب أطروحات التعافي تُحيل إلى ضرورة التوازن بين الدولة والمجتمع، وتجنّب الاختلالات ومكامن الهشاشة في الجانبين على السواء، والتي كشفت عنها الانتفاضات العربية بشكل أو بآخر.

وفي الختام يُستنتج من التحليل التاريخي للصراعات الشرق أوسطية مع الأخذ بعين الاعتبار العامل الجيوسياسي لكل دول الشرق الأوسط، بأنَّ الرسالة الأساسية هي أن السلام الحقيقي في الشرق الأوسط سيتحقق بتوفر شرطين أساسيين:

أولهما استعادة الدولة مناعتها على أسس جديدة من العدل، واستيعاب التنوعات المجتمعية، وتحويلها لمصدرٍ قوة، بما يقلص انكشافها داخلياً وخارجياً.

والثاني هو أن تجد المجتمعات على الجانب الآخر بيئة مواتية لتلبية احتياجاتها من الأمن والمشاركة في السلطة والموارد والاعتراف بالهويات، دون الانتقاص من الانتماء الوطني، بما قد يخلق لحظة تعافٍ قد تُخرج الشرق الأوسط من الدائرة المفرغة للصراعات.

”على امتداد سنواتٍ طويلة، كان الصراع العربي - الإسرائيلي قضية الشرق الأوسط المحورية، التي كانت محط اهتمام المعنيين بشؤون المنطقة، إلا أنه ومنذ عام ٢٠١١ تراخى هذا الاهتمام بعض الشيء. ويؤكد المراقبون على ضرورة إعادة الاهتمام بهذه القضية، لا سيما من جانب الدول الغربية التي تتعرض للمقاطعة الاقتصادية، وسحب الاستثمارات العربية منها بسبب دعمها لإسرائيل.“

المراجع

- صحيفة «الوطن» المصرية.
- ويكيبيديا.
- صحيفة الشرق الأوسط.
- مجلة المصري اليوم.

تصاعد القوى والتيارات اليمينية في أوروبا وخطاب الكراهية تجاه اللاجئين

أحمد دالي

سنعمد إلى تقسيم بحثنا هذا تبعاً لطبيعة موضوعه، إلى العناصر الآتية:

مدخل إلى البحث

أسئلة البحث وضروراته

مقدّمة

محاور البحث

1. الهجرة: تعريفها وتاريخها وأسبابها

2. نشأة القوى والتيارات اليمينية في أوروبا وتصاعدها

3. ظهور خطاب الكراهية ضد اللاجئين: الأسباب والدوافع

4. أزمة الحاضر وقلق المستقبل

المدخل إلى البحث

ثمة ثنائيات متضادّة في اللغة السياسية باتت شهيرة وواسعة الانتشار إلى درجة أن سماعها لم يعد يخلق تلك الصدمة أو المفاجأة على أذن السامع, والسبب هو بالتأكيد كثرة الاستخدام والتداول, ولعلّ من أشهر وأبرز هذه الثنائيات (**الاستبداد والحرية, اليمين واليسار, التطرف والاعتدال, العلمانية والدينية, الغرب والشرق**) وغيرها من الثنائيات التي أصبحت مطروقة في الأذهان وطبيعية من حيث عبورها وتداولها عبر وسائل الإعلام والكتب, لا بل أصبحت مصطلحات راسخة في معجم السياسة الدولية, ومما لا شكّ فيه أن كل مصطلح ونقيضه لم يأتيا من فراغ, فكلّ منهما كان وليد ونتاج بروز وتنامي الآخر, فلولا سيطرة عهود طويلة من الاستبداد لما ظهرت النزعة إلى نيل الحرية, ولولا وجود التيار اليميني لما كانت هناك حاجة إلى اليسار, وبطبيعة الحال فإن التفكير المنطقي والتحليل السليم للتاريخ والأحداث, يقودنا إلى القول إن ولادة العلمانية والحاجة الملحّة إلى وجودها كان بسبب سيطرة النزعة الدينية على الحالة السياسية والمجتمعية والثقافية مجتمعةً. وهكذا.

سنركّز في هذا البحث على التطرف بوصفه نقيضاً موضوعياً للاعتدال والوسطية, وما تولّد عنه عبر الزمان وحسب ظروف المكان من ولادة قوى وتيارات يمينية, باتت تطرح نفسها من خلال مظاهر وقوالب مختلفة تكاد أن تكون نزعة التطرف سمتها البارزة, وما تمخّض عن ذلك وسيتمخّض في المستقبل من سياسات الإنكار والإقصاء واللجوء للعنف وخطاب الكراهية.

أسئلة البحث وضروراته

ـ هل هناك بالفعل اهتمام عالمي بمسألة تصاعد التيارات اليمينية والقوى الداعية إلى العنف, وهل ثمة مساعٍ لتفادي ولادة العنف والتطرف؟

ـ كيف يمكن للدولة الواحدة مواجهة التطرف داخلها إذا كانت القوى اليمينية الداعية إلى العنف تتفوق في بعض الحالات على السلطة الشرعية الحاكمة فيها؟

ـ هل بإمكان الجهود الدولية المتّبعة ضمن أطر المنظمات والمؤسسات الدولية والرامية إلى إغلاق كافة الطرق أمام خطاب الكراهية, أن تحدّ بالفعل من آثار ذلك الخطاب؟

ـ متى كانت الغلبة والسيطرة ستكون للقوى والتيارات اليمينية في الدول التي تدّعي الديمقراطية: لولا التواطؤ غير المعلن بين تلك القوى والسلطات الحاكمة بهدف استخدامها إما في مواجهة شعوبها من الداخل, أو توجيهها نحو أعداء مفترَضين من الخارج؟ ومثال ذلك, استخدام تركيا للجماعات المتطرفة في سوريا خير دليل, سواء من ناحية استخدامها داخل سوريا نفسها أو إرسالهم كمرتزقة إلى ما وراء الحدود في ليبيا وأذربيجان وأماكن أخرى.

ـ كيف ساهم الخطاب الديني ومايزال يساهم في إثارة النعرات التي تقود بالنتيجة إلى ولادة خطاب الكراهية وعدم قبول الآخر؟

ـ مع كل حالة التقدم المشهودة والتطور المدني والفكري والمادي التي تعيشها معظم المجتمعات والدول, أليس بإمكان هذا العالم أن يضع حدوداً وحلولاً للحيلولة دون ولادة النزعات المتطرفة والعنيفة لدى الجماعات التي ترى أن من حقها ممارسة نزعة العنف والتطرف تلك تجاه الآخرين؟

ـ ثم إن السؤال المهم الذي لا يمكن إغفاله, أليس الشكل الحالي الذي يقود الكرة الأرضية من منظمات ومؤسسات دولية مثل الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي والمنظمات المسؤولة عن البيئة والأمن الغذائي, أليست تلك القيادات بحاجة إلى إعادة النظر في أنظمتها والأدوار المنوطة بها لحفظ الأمن والسلم الدوليين, وتحقيق الاكتفاء الذاتي من ناحية الغذاء والماء, والحفاظ

على البيئة الطبيعية صالحة للعيش فيها؟

ـ لماذا لم تستطع المنظمات الدولية ذات الشأن الحفاظ على العالم دون قيام الحروب وإراقة الدماء والتهجير القسري والتغيير الديموغرافي؟ والمحافظة عليه خالياً من الأسلحة الفتاكة والتلوث البيئي؟

ـ وأخيراً, أليست جملة هذه الأسئلة وغيرها كفيلة بولادة التيارات اليمينية والقوى الداعية إلى العنف في جميع أصقاع العالم, وبالتالي نشوء خطاب الكراهية والعنف بدلاً من لغة التسامح والاعتدال؟.

مقدّمة

من خلال الأدبيات السياسية يبدو أن كلمة التطرّف قد أصبحت مقترنة باليمين لتشكّلا معاً مصطلح (اليمين المتطرّف), ولكن يبقى التطرف تعبيراً نسبياً فيما إذا تم اقترانه بالأفكار أو الأفعال, والأمر سيّان سواء كان الأمر متعلقاً بالأفراد أو الجماعات أو السلطات والدول, وهو مشتق من الكلمة الإنكليزية (Dogmatism الدوغماطيقية), بمعنى الجمود العقائدي والانغلاق الفكري, وعدم الانفتاح أو القدرة على تقبّل الآخر المختلف, والتعريف الأقرب والأكثر وضوحاً لمصطلح التطرف في هذه الأيام وعبر وسائل الإعلام وحتى من خلال انعكاسه في الواقع هو (التعصب والتشدد).

للتطرف أشكال وصور متعددة, فقد يكون تطرفاً سياسياً يميل إلى التعصب لإيديولوجيا معينة أو حزب بعينه, وبناء على هذا التشدد والتعصب لرؤية سياسية معينة يكون عدم قبول الرأي الآخر المختلف معه, وقد يسعى إلى إعلان الحرب عليه بجميع الوسائل المتاحة, ابتداءً بالحرب الكلامية وربما انتهاءً بالصراع المسلّح. وثمة التطرف الديني, وقد يكون هذا النوع من التطرف هو الأكثر شيوعاً وانتشاراً على مرّ التاريخ, وهذا الشكل من التطرف يتّسم بابتعاده عن الاعتدال والوسطية في الدين والعقيدة, وتغلب عليه نزعة الغلوّ والتشدد

"تكون الهجرة الطوعية برغبة وإرادة حرة غير مكرهة نتيجة الحروب والصراعات الدائرة، أو بسبب سوء الأوضاع المعيشية وغير ذلك من الأسباب الاضطرارية التي تدفع بالمهاجر إلى ترك موطنه. أما الهجرة القسرية تأتي على خلفية عدم الاستقرار وعدم الشعور بالأمان في الموطن الأم، فيضطر الناس إلى ترك بلدانهم، أو نتيجة إجبارهم وإرغامهم على مغادرة المكان من قبل السلطات أو الجماعات المسيطرة بالمكان"

والتعصب. ويمكن أن يكون التطرف اجتماعياً يتّصف بالتنمّر على ثقافة وعادات وأعراف شعب أو مجتمع معين, ورفض الخصوصية التي يتميّز بها عن غيره من الشعوب أو المجتمعات.

أما مصطلح (اليمين المتطرف) فهو مصطلح يُستخدم في حقل السياسة, ويُقصد به توصيف المحيط أو الدائرة التي تدور فيها بعض الأحزاب والتيارات السياسية التي تختلف عن توجهات اليمين التقليدية, التي كانت وما تزال تسعى إلى الحفاظ على التقاليد المتوارثة والأعراف الراسخة داخل المجتمع, والمتعارف عليه في ميدان السياسة أن التيارات اليمينية هي تلك التي تدعم وتؤيّد المصالح الملكية أو الأرستقراطية, وترتبط بالطبقات المسيطرة والعليا الحاكمة في المجتمع, وهي بهذا تعاكس مصطلح (اليسار) والتيارات والأحزاب اليسارية التي تُعرف بدعمها للعلمانية والجمهورية والديمقراطية والحريات العامة, بينما (الوسط) يعبّر عن الطبقة الوسطى وهمومها ومصالحها, وهو ـ

الوسط ـ في الواقع والجوهر تعبير عن الوسطية بين غلوّ وتشدد اليمين وبين ثورية وتمرّد اليسار على الواقع.

إلى محاور البحث

١ـ الهجرة: تعريفها وتاريخها وأسبابها

الهجرة البشرية معروفة أنها انتقال مجموعات بشرية من مكان إلى آخر بقصد البقاء والعيش فيه إما لمدة محددة مؤقتة أو بنيّة البقاء والعيش فيه بشكل دائم, وقد شهدت البشرية عبر تاريخها الطويل موجات متنوعة من الهجرات, ولكن الدراسات المتخصصة في هذا المجال تقسّم الهجرة إلى عدة أنواع:

ـ فمن حيث النطاق الجغرافي للهجرة يمكن تقسيمها إلى نوعين:

١ـ الهجرة الداخلية: تلك التي تكون ضمن النطاق والحدود الجغرافية للدولة, أو داخل الحدود المعروفة للمجتمعات التي لا تشكّل دولاً أو مجموعات سياسية, ولم تحصل على اعتراف دولي بسيادتها على الرقعة الجغرافية التي تعيش عليها.

٢ـ الهجرة الخارجية: هي التي تتجاوز حدود الهجرة الداخلية إلى البلدان والبقاع الجغرافية الأخرى.

ـ ومن ناحية الرغبة في الهجرة من عدمها:

١ـ الهجرة الطوعية: وهي التي تكون برغبة وإرادة حرّة غير مكرهة نتيجة الحروب والصراعات الدائرة, أو بسبب سوء الأوضاع المعيشية وغير ذلك من الأسباب الاضطرارية التي تدفع بالمهاجر إلى ترك موطنه.

٢ـ الهجرة القسرية: وهي بالتأكيد عكس الهجرة الطوعية, وهي تأتي على خلفية عدم الاستقرار وعدم الشعور بالأمان في الموطن الأم, فيضطر الناس إلى ترك بلدانهم, أو نتيجة إجبارهم وإرغامهم على مغادرة المكان من قبل السلطات أو الجماعات المسيطرة والمتحكّمة بذلك المكان.

ـ أما أسباب الهجرة فيمكن اختصارها بمجموعتين:

١ـ الأسباب الدافعة: وتأتي في مقدمتها الكوارث الناجمة إما عن عمل الإنسان مثل الحروب والصراعات والأزمات الاقتصادية وانتشار البطالة وتدهور المستوى المعيشي, أو خيبة الأمل بالحاضر المعاش أو فقدان الأمل بمستقبل أفضل, أو بسبب خنق الحريات من قبل الأنظمة الديكتاتورية الحاكمة, أو قد تكون الهجرة نتيجة كوارث طبيعية مثل الزلازل والبراكين والفيضانات والتصحّر والجفاف وغير ذلك من الأسباب الطبيعية.

٢ـ الأسباب الجاذبة: يمكن تلخيصها بعكس الأسباب الدافعة للهجرة, مثل توفر الأمان والاستقرار وفرص العمل والنمو الاقتصادي, والانفتاح المجتمعي والسياسي, واحترام الحريات والاطمئنان إلى المستقبل.

ومن أشهر الهجرات التي شهدتها وعاشتها المجموعات البشرية في العصر الحديث, تلك التي أعقبت الحربين العالميتين الأولى ١٩١٤ـ١٩١٨ والثانية ١٩٣٩ـ ١٩٤٥.

مع حلول العقد الأخير من القرن العشرين, أصبحت الهجرة على رأس أولويات اليمين المتطرف في أوروبا, بل باتت الشغل الشاغل للعقل المسيّر للتيارات اليمينية, وبدأ الحديث حول الهجرة والمهاجرين يتصدر المنابر والنقاشات السياسية في بلدان أوروبية مختلفة, وبالأخص تلك التي تُعرف بتاريخها الاستعماري والانتدابي, والسبب في ذلك أن شعوب الدول التي وقعت تحت سيطرة الدول الاستعمارية ونتيجة الاحتكاك المباشر وتعلم لغة الدولة المستعمرة؛ تسعى إلى الهجرة نحو تلك الدول, مثل الهجرة من الدول الأفريقية العربية منها وغير العربية نحو فرنسا, ثم إن

الدول الأوروبية نفسها اختلفت في نظرتها للمهاجرين إليها, فهي في الوقت الذي تناهض الهجرة وتسعى إلى وقف تدفّق المهاجرين وخاصة تحت تأثير صعود اليمين المتطرف ورفضه للهجرة؛ فإن الحاجة إلى اليد العاملة والفئات العمرية الشابة وطاقات العمل البشرية, هي الأخرى تدفع بها إلى استقبال المهاجرين واللاجئين, فإذاً والحال هذه؛ وجدت أوروبا نفسها في موقف صعب إلى حدّ ما, وتكمن صعوبة الموقف في رفض اليمين المتطرف للمهاجرين واللاجئين وتسويقه لخطاب ترهيبي محذّراً الأمم الأوروبية من مغبّة الحالة التي تمرّ بها بلدانهم أمام موجات الهجرة المتدفقة والمتوالية وخاصة من البلدان المسلمة, ودورها في أن تخسر أوروبا هويتها وثقافتها وهويتها, عدا عن تأثير كل ذلك على السلم الأهلي وزعزعة الأمن وخاصة بعد أحداث أيلول ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية, حيث أخذت أحزاب اليمين المتطرف من تلك الأحداث برهاناً على الآثار السلبية للهجرة ونتائجها الكارثية.

بالإضافة إلى الأسباب والبراهين والذرائع السابقة, ظهرت على السطح مشكلة العمالة والضرائب والمناصب الوظيفية, فقد سوّقت الأحزاب اليمينية فكرة أخرى تدعو إلى معاداة المهاجرين تكمن في استحواذ المهاجرين واللاجئين على الوظائف في بلدانهم, ما يعني أن البطالة ستكون في ارتفاع بالنسبة لليد العاملة الأوروبية, أضف إلى ذلك موضوع رفع الضرائب على الرواتب في وظائف الأوروبيين لتأمين الفائض المالي لتغطية المساعدات الاجتماعية التي يتم منحها للاجئين والمهاجرين, كل هذه الأمور جعلت من الهجرة أمراً مرفوضاً في أوساط التيارات والقوى اليمينية في أوروبا.

٢ـ نشأة القوى والتيارات اليمينية في أوروبا وتصاعدها

من أشهر سمات اليمين المتطرف في أوروبا المعاداة الشديدة لليهود وللحركات الإسلامية المتشددة, وبما أن اليمين المتطرف بشكل عام يميل إلى المحافظة

"مع حلول العقد الأخير من القرن العشرين، أصبحت الهجرة على رأس أولويات اليمين المتطرف في أوروبا، وبدأ الحديث حول الهجرة والمهاجرين يتصدر المنابر والنقاشات السياسية في بلدان أوروبية مختلفة، وبالأخص تلك التي تُعرف بتاريخها الاستعماري والانتدابي، والسبب في ذلك أن شعوب الدول التي وقعت تحت سيطرة الدول الاستعمارية ونتيجة الاحتكاك المباشر وتعلم لغة الدولة المستعمرة؛ تسعى إلى الهجرة نحو تلك الدول"

على الثوابت الراسخة في المجتمعات؛ فإنه يحمل نزعة رافضة لكل من الليبرالية والرأسمالية, وهذا الرفض في جوهره ليس نابعاً من الكراهية لهما أو محاربتهما, وإنما هو رفض من باب الاحتياط إن جاز التعبير للحفاظ على القيم والأخلاق الاجتماعية, والخوف من تحوّلات عميقة قد تصيب بنية المجتمع الأوروبي.

يرى الباحثون في مجال تصاعد دور القوى اليمينية في العالم بشكل عام وفي أوروبا على وجه الخصوص, أن أحد أهم الأسباب التي تقف وراء صعود اليمين وتصدّره للمشهد السياسي في بعض البلدان الأوروبية, يعود إلى تزايد أعداد المهاجرين إليها وخاصة من الدول الإسلامية, ذلك أن المهاجرين الإسلاميين أصحاب النزعة المتشددة وذوي الفكر المتعصّب قد خلق ردّة فعل عنيفة مماثلة لتشددهم لدى الجماعات الأوروبية المتعصّبة أيضاً, ففي رأيهم أن هذا التشدد والتطرّف في الفكر الديني الذي يحمله المهاجرون معهم وينقلونه إلى بلدانهم ويحاولون نشره بين أوساط المجتمعات

> **"على ما يبدو أن طريق الهجرة واللجوء إلى البلدان الأوروبية، لن يتوقف بشكل نهائي وخاصة من بلدان الشرق الأوسط وأفريقيا، والسبب بسيط للغاية، هو أن الأسباب الدافعة مازالت حاضرة ومستمرة، والصراعات والنزاعات التي قد تخبو وتنطفئ في مكان ما، لكنها سرعان ما تعود وتنشط في مكان آخر، والحكومات في تلك البلدان التي يهاجر منها أهلها مازالت غير آبهة بما يجري"**

الأوروبية, من شأنه أن يؤثر في الطبيعة المجتمعية لديهم, خاصة وأن الخطاب الديني المعلن في دور العبادة ومن خلال الخطب الدينية وبعض الممارسات والطقوس التي تتجاوز دور العبادة وتخرج إلى الساحات والشوارع, مثل صلاة قطع الطريق, والدعوة إلى الجهاد ومحاربة الكفار وغير ذلك من الخطابات التي تخرج من مساجد المسلمين في أوروبا, والتي تعبّر عن التشدد والتطرّف بشكل علني وصريح. لقد كان من نتيجة ذلك أن طرح **"حزب الوسط الديمقراطي"** في سويسرا إجراء استفتاء في البلاد عام ٢٠٠٩ من أجل منع بناء المساجد هناك, كل تلك الأفعال والممارسات لا تجد قبولاً في الأوساط الأوروبية السياسية منها والمدنية على حدّ سواء, ولا يبدو الأمر مقبولاً بدرجة أعلى لدى التيارات والقوى اليمينية, بل هو مرفوض بالمطلق, وبنتيجة القول فإنه كلما نشطت الحركة الإسلامية المتشددة في أوروبا نتيجة الهجرة, فإن التيارات والقوى اليمينية تتصاعد طرداً معها وتكثّف هي الأخرى من خطابها المتشدد, فإذاً الوضع أمام مجابهة التشدد بالتعصب.

وتعدّ **"الجبهة الوطنية"** في فرنسا من أشهر الأحزاب اليمينية المتطرفة في أوروبا التي تُعرف بمعاداتها للأجانب بشكل عام وللمسلمين بشكل خاص, كما تأسست في ألمانيا في العام ٢٠١٤ **"حركة بيغيدا"** التي تُعرف بمناهضتها لما تسميه بـ **"أسلمة الغرب"**, بالإضافة إلى المعاداة الصريحة لليهود منذ القِدم من قبل ألمانيا النازية.

٣ـ ظهور خطاب الكراهية ضد اللاجئين: الأسباب والدوافع

من أكثر المسائل التي يتفق فيها الأوروبيون عموماً والأحزاب والتيارات اليمينية بشكل خاص, هو أن اللاجئين والمهاجرين يتقاسمون معهم بلدانهم ووظائفهم وضرائبهم, وبالإضافة إلى الممارسات والدعوات والخطابات المتشددة من بعض المسلمين في أوروبا, فإن خطاب الكراهية بدأ يتصاعد رويداً رويداً, وازداد الأمر احتقاناً إن جاز التعبير مع مقابلة ومواجهة التشدد الإسلامي الموجود في البلدان الأوروبية, بالتعصب والتشدد اليميني هناك , فكان من الطبيعي أن يخلق هذا التصادم بين تيارين متنافسَين في التطرف والتشدد؛ خطاباً يدعو إلى الكراهية بدلاً من التسامح وقبول الآخر, لا بل تجاوز الأمر في كثير من الأحيان حدود الخطاب ليبلغ مستوى الأفعال العدائية واستخدام العنف, سواء من قبل التيارات الدينية المهاجرة وذلك من خلال العمليات الانتحارية والإرهابية, أو من جانب القوى اليمينية في أوروبا من خلال الاعتداء على المهاجرين وحتى ضربهم وإهانتهم.

٤ـ أزمة الحاضر وقلق المستقبل

القلق والتوجّس حالة طبيعية مرافقة للإنسان على مرّ الزمان, وهو بطبيعته نابع من الفطرة البشرية التي بقدر ما تتوق إلى سبر مجاهيل المستقبل؛ تسيطر عليها وبالقدر نفسه الهواجس أيضاً مما

سيحمل له ذلك المستقبل الغامض, وقد يصل بالإنسان في بعض الحالات أنه لا يعيش حاضره ـ ومن حيث المبدأ ـ بصرف النظر عن شكل هذا الحاضر, لأن جميع اهتماماته وتطلعاته وأحلامه مرهونة بالمستقبل, هذا من الناحية الموضوعية, أما من الناحية الذاتية, فإن الانصراف عن الحاضر والتفكير بالمستقبل والانشغال به قد يكون سببه اليأس من الحاضر وفقدان كل أمل فيه, في ظل سيادة حالة الإحباط وخيبة الأمل بالواقع المعاش.

يعيش عدد كبير من المهاجرين واللاجئين اليوم اغتراباً روحياً إضافة إلى غربتهم الجسدية, ومردّ هذه الغربة هو عدم الشعور بالأمان والسكينة, لأن شعور القلق بما قد يحمله لهم المستقبل لا يفارق أذهان الكثيرين منهم, فمن جهة هم يعيشون حاضراً ذا وجهين, أولهما هو الشعور بالأمان من مخاطر النزاع والحرب الدائرة في بلدانهم الأصلية التي هاجروا منها, أما الوجه الآخر فهو ما يشعر به البعض منهم من بعض حالات التنمّر وعدم القبول من بعض الأوساط الاجتماعية والتيارات السياسية ممن يرون في المهاجرين واللاجئين منافسين لهم على أرضهم, وهم الجماعات اليمينية التي لا يمكن أن تقبل بفكرة دخول قيم وثقافات جديدة وافدة من الخارج إلى عمق مجتمعاتهم, ناهيك عن شعورهم بأن وجود هؤلاء المهاجرين بينهم يثقل كواهلهم بأعباء مالية إضافية نتيجة تقديم المساعدات الاجتماعية المالية لهم, إلى جانب زيادة الاقتطاع الضريبي من دخول الأوروبيين لتذهب لصالح المهاجرين بحسب زعمهم وقناعتهم.

يُضاف إلى جملة ما سبق من أسباب ومسوّغات, الارتباط بالوطن الأم, على الأقلّ بالنسبة لعدد لا بأس به من المهاجرين واللاجئين, ممن يعيشون الغربة الروحية في عالم مختلف عما عاشوه من قبل, فيبقى شعور النظر إلى الخلف حاضراً في أذهانهم, ويبقى التعلّق بما تركوه خلفهم مطروحاً في ذاكرتهم, كل هذه الأمور تجعلهم في حالة من القلق والتوجّس من حاضر يعيشونه, وقد يزداد الأمر عليهم سوءاً إذا ما فكروا بالمستقبل, وتبرز هنا إلى الواجهة مشكلة اختلاف الأعراف والقيم الاجتماعية بالنسبة لأطفال اليوم الذين سيغدون شباب وفتيات الغد, وهذا لوحده يسبّب هاجساً لدى الكثيرين من المهاجرين الذين خرجوا من بيئة محافظة ليصطدموا بين ليلة وضحاها بواقع اجتماعي مختلف كل الاختلاف عما كانوا عليه, وليجدوا أنفسهم في بيئة لا تشبه ما كانوا قد رسموا وخططوا له في أذهانهم لأولادهم.

خاتمة

على ما يبدو أن طريق الهجرة واللجوء إلى البلدان الأوروبية, لن يتوقف بشكل نهائي وخاصة من بلدان الشرق الأوسط وأفريقيا, والسبب بسيط للغاية, هو أن الأسباب الدافعة مازالت حاضرة ومستمرة, والصراعات والنزاعات التي قد تخبو وتنطفئ في مكان ما, لكنها سرعان ما تعود وتنشط في مكان آخر, والحكومات في تلك البلدان التي يهاجر منها أهلها مازالت غير آبهة بما يجري, والحال هذه فإنه من الطبيعي ألا يتوقف تدفق المهاجرين والنازحين واللاجئين بتواتر.

وبما أن قسماً لا بأس به من هؤلاء المهاجرين يحملون معهم فكراً متشدداً نابعاً من مخزون ذاكرتهم من بيئتهم الأصلية, فإن الصدام مع التيارات المتشددة في بلد المهجر سيكون حاضراً, وفي مقابل ازدياد التشدد من المهاجرين, سيرتفع معدل التعصب من التيارات اليمينية في البلدان والمجتمعات المستقبِلة.

التأثيرات المختلفة للمنظمات الدولية على المجتمع السوري وفي مناطق الصراع في الشرق الأوسط

أحمد زردشت

غدا الحديث في الاقتصاد وكذلك الصحة والتعليم ومختلف احتياجات المواطن السوري الشغل الشاغل على اختلاف مستوياتهم الطبقية والتعليمية لجميع المواطنين، وبات يتصدّر حوارات المجالس في البيوت والمقاهي والمناسبات.

في الحقيقة، ليس من الغرابة أن تتعرض دولة أثقلت كاهلها حرب عقداً من الزمن لانهيار اقتصادي وصحي وتعليمي، لكن مستوى هذا الانهيار وانعكاساته ونسبة المواطنين المتأثرين من نتائجه الكارثية، كلها عوامل تجعل من الوضع السوري الأكثر مأساوية في قصص الحروب، بعد الحرب العالمية الثانية.

مع تجاوز الحرب السورية السنوات العشرة من عمرها، تبدو البلاد اليوم على شفير الهاوية، فحياة سكانها هنا أشبه بمعركة للحصول على ما يسدّ رمقهم، حيث حذّر برنامج الغذاء العالمي من أن ٦٠ ٪ من السوريين، أي ما يقرب من ١٢,٤ مليون شخص، أصبحوا معرضين لخطر المجاعة، وبات ينظر إلى أساسيات الحياة من المشتقات النفطية إلى وسائل التنقل وأجهزة الاتصالات، كعوامل رفاهية، وهي حكر على فئة محدودة جداً من السكان.

أدى التدهور المتسارع لقيمة الليرة السورية، وانكسارها أمام العملات الأجنبية، إلى تداعيات اقتصادية كبيرة تمثّلت بانخفاض قيمة الرواتب مقارنة مع الأسعار التي وصلت بالنسبة لبعض المواد الغذائية الأساسية إلى حد الثلاثين ضعفاً، وسط تراجع القوة الشرائية للمواطن، في ظل مستويات عالية من التضخّم.

أما انخفاض سعر صرف الليرة السورية خلال سنوات الحرب, فكان نتيجة لعوامل عدة اجتمعت مع بعضها، بدءاً من الضرر الهائل الذي أصاب القاعدة الإنتاجية للبلاد خلال سنوات الحرب، فالعقوبات الغربية التي تسببت بزيادة تكاليف المستوردات والإنتاج، وحدّت كذلك من تدفّق القطع الأجنبي، ثم خروج حقول النفط والقمح الرئيسية من يد الدولة السورية، وهو ما جعل دمشق تضطر إلى استيراد احتياجاتها من المشتقات النفطية والقمح, وهذا رتّب عليها أعباء إضافية لجهة توفير القطع الأجنبي، وصولاً إلى السياسات الاقتصادية والنقدية التي انتهجتها بعض الحكومات المتعاقبة وما شابها من ضعف وفشل وانتشار الفساد في مفاصل الحكم والإدارة، وأخيراً جاءت تداعيات تفشّي فيروس كوفيد١٩ لتعمّق من حجم المشكلة الاقتصادية في البلاد.

عُرف الاقتصاد السوري قبل عام ٢٠١٠ كواحد من أكثر اقتصاديات الدول النامية تنوعاً، فحسب معطيات الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي, فإن سوريا كانت تنتج ما يتراوح بين ٧٥ إلى ٨٥ ٪ من أغذيتها وأدويتها وألبستها وأحذيتها, وتصدّر الفائض من بعض منتوجاتها إلى أكثر من ٦٠ دولة.

وكان الإنتاج السوري من النفط بحدود ٤٥٠ ألف برميل يومياً ويزيد عن حاجة السوق المحلية, فيصدّر الفائض منه بنحو ١٥٠ ألف برميل يومياً إلى دول عدة، تأتي في مقدّمتها ألمانيا، كما حلّت سوريا بين البلدان الخمسة الأولى في العالم بإنتاج القطن وتربية الأغنام والأبقار، أمّا إنتاجها من الحبوب فتراوح ما بين ٣,٥ إلى ٦ ملايين طن سنوياً, أي ما يزيد على حاجة السوق المحلية في معظم السنوات.

اليوم والبلاد تقبع في قعر الانهيار على كافة الأصعدة، يمكن القول إن حلول الأزمة السورية يجب أن تكون مبنية على استراتيجيات جدية تضع في الاعتبار الأسباب التي عصفت بالبلاد، أهمها الحل السياسي للأزمة التي تقترب من إتمام عامها الثالث عشر، ومثل هذا الحل السحري هو الذي سيحوّل سوريا من جديد إلى الواجهة الاستثمارية، وهو الذي سيعيد للبلاد ثرواتها ومواردها ويتيح لها استثمار موقعها الجيو اقتصادي، ويرفع العقوبات الغربية عنها, ولكن على ما يبدو أنّ هذا الحل السياسي بعيد المنال إلى الآن.

إلى حين العثور على العصا السحرية التي ستحل هذه الأزمة اللامتناهية, كان لا بد للمنظمات الدولية والإقليمية التدخل والقيام بالعمل الذي وُجِدت لأجله, فإلى أي مدى أثرت هذه المنظمات في الأزمة السورية وحياة المواطن السوري بشكل عام سلباً وإيجاباً؟

سنحاول في هذا البحث عرض دور المنظمات الدولية.

مفهوم المنظمات الدولية

تعرف المنظمات الدولية على أنّها مجموعة الهيئات والمؤسسات التي يتكون منها المجتمع الدولي بشكلٍ أساسي، والتي تشارك في

تحقيق إرادة الجماعات الدولية. كما أنّها عبارةٌ عن منظمات تقوم على هيكلٍ إداري تنفيذي وتنظيمي من خلال مجموعةٍ من الشخصيات الاعتبارية والمؤسسات التي تتكون منها الدول, مثل منظمة الأمم المتحدة.

نشأة المنظمات الدولية

ترجع نشأة المنظمات الدولية إلى فكرةٍ وردت في المؤتمر الدولي، حيث تعتبر هذه المنظمات امتداداً لهذا النوع من المؤتمرات، وذلك بسبب قيامها بهدف معالجة المسائل والمشاكل المشتركة بين الدول واتخاذ القرارات الإجماعية بخصوص العديد من الأمور الدولية، حيث تقوم بالبحث عن مواقف من الدول المشاركة من أجل القيام بالممارسات الفعلية، إلّا أنّ هذه المؤتمرات لم تفرض إرادةً خارجية، وهذه المنظمات حصلت على إرادةٍ ذاتية مستقلة من الدول الأعضاء بالإضافة إلى سكرتارية مستقلة، ومجموعة من القرارات، بالإضافة إلى مجموعةٍ من الأشخاص ومن خلال أجهزةٍ مكونةٍ من أشخاص آخرين غير ممثلين للدول, وتتمثل في (الإدارة المدنية للمنظمة الدولية) أو الموظفين الدوليين، وامتلكت المنظمات سلطات ذاتية ناجّة عن تفويضٍ حقيقي من الدول.

ركائز المنظمات الدولية

- خضوع هذه المنظمات إلى قواعد القانون الدولي.
- وجود عضوية المنظمة الدولية.
- وجود قانونٍ خاص بالمنظمة الدولية، بحيث يكون بمثابة معاهدةٍ جماعيةٍ تتضمن التزام المنظمة بالأهداف المتفق عليها.
- وجود مجلسٍ أو هيئةٍ لكلّ منظمة دولية بحيث تحقق النظام الأساسي للمنظمة، ويتم انتخاب الأعضاء بناءً على الإجماع.

"تعتبر المنظمات امتداداً للمؤتمرات، بسبب قيامها بهدف معالجة المسائل والمشاكل المشتركة بين الدول واتخاذ القرارات الإجماعية بخصوص العديد من الأمور الدولية، حيث تقوم بالبحث عن مواقف من الدول المشاركة من أجل القيام بالممارسات الفعلية، إلا أنّ هذه المؤتمرات لم تفرض إرادةٍ خارجية، وهذه المنظمات حصلت على إرادةٍ ذاتية مستقلة من الدول الأعضاء بالإضافة إلى سكرتارية مستقلة"

- مساهمة الدول الأعضاء في المنظمة بتأمين كافة مصاريف ومستلزمات المنظمة من خلال النسب التي يتمّ الاتفاق عليها سلفاً، حيث إنّ مالية المنظمة الدولية تقوم على اشتراكات الدول الأعضاء التي تتحدد من خلال قاعدةٍ تعرف باسم القدرة على الدفع، حيث تقوم هذه القاعدة على بناء معيارٍ مركبٍ للمقارنة بين الدخل القومي للدول الأعضاء وبين متوسط الدخل ومحصلة عملة الدولة من العملات الصعبة، مع مراعاة الأزمات المالية التي تمرّ بها الدول الأعضاء.

أنواع المنظمات الدولية

- **المنظمات الدولية العالمية العامة:** وهي المنظمات التي يتركز نشاطها بشكلٍ أساسي على حلّ كافة أنواع النزاعات والخلافات الحاصلة بين الدول الأعضاء، بالإضافة إلى تدعيم الصلات السلمية بينها وبين المنظمات الأخرى,

مثالها هيئة الأمم المتحدة.

- **المنظمات الدولية الفنية:** وهي المؤسسات التي تُعرف باسم الوكالات، مثل: وكالة العمل الدولية، والتغذية، والزراعة، واليونسكو، ووكالة الصحة الدولية.
- **المنظمات الدولية القضائية:** وهي المنظمات الخاصة بالفصل في المنازعات الدولية بناءً على أساس القانون الدولي, مثل محكمة العدل الدولية، وهيئات التحكيم.
- **المنظمات الدولية الإقليمية:** ومن الأمثلة عليها جامعة الدول العربية، ومنظمة الوحدة الإفريقية، ومنظمة الدول الأمريكية.

أولاً: تعريف المنظمات الدولية غير الحكومية وأهم خصائصها

ليس ثمة اتفاق بين الدارسين حول تعريف محدد للمنظمات غير الحكومية، وإنما تتعدد التعريفات وتتنوع التسميات بتعدد وتنوع الأطر القانونية والثقافية لكل مجموعة منها(٢). وعلى سبيل المثال فقد عرّفها **(مارسيل ميرل)** بأنها **«كل تجمّع أو رابطة أو حركة مشكلة على نحو قابل للاستمرار من جانب أشخاص ينتمون إلى دول مختلفة, وذلك بهدف تحقيق أغراض ليس من بينها تحقيق الربح»**، وعرّفها المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة مستعملاً تعريفاً مختصراً سلبياً يفيد بأن المنظمة الدولية غير الحكومية هي **«أي منظمة دولية لا تنشأ باتفاق بين الحكومات»**، مقارناً إياها بالمنظمات الدولية الحكومية التي تنشأ نتيجة لاتفاقات تعقد بين الحكومات.

ثانياً: تعاظم دور المنظمات غير الحكومية وتطور أهدافها

إذا كان القرن العشرون يُنظر إليه – وبحق – باعتباره عصر التنظيم الدولي الحكومي، نتيجة لبروز وتنامي دور المنظمات الحكومية جنباً إلى جنب مع الدول المستقلة ذات السيادة في إدارة وضبط التفاعلات والعلاقات فيما بين أشخاص المجتمع الدولي ووحداته، فإن العقدين الأخيرين منه وبدايات القرن الحالي قد شهدت وعلى نحو غير مسبوق، تزايداً كبيراً في أعداد وأدوار وأهمّية المنظمات غير الحكومية، إذ لم تعد فحسب فاعلاً أساسياً في القضايا العالمية، وإنما أضحت كذلك شريكاً أساسياً للحكومات وللمنظمات الدولية الحكومية في كثير من المجالات التنموية الداخلية، وعلى الأخص منها ما يتعلق بحقوق الإنسان.

والحق أن استعراض الآراء والاتجاهات المختلفة بشأن تفسير وتبرير الدور المتصاعد للمنظمات غير الحكومية، مع استحضار الطبيعة الخاصة لها من ناحية بساطة الهيكل التنظيمي وسهولة العمل وغياب البيروقراطية، ينتهي بنا إلى القول بأن انتشار هذه المنظمات وتنامي دورها إنما يجد تفسيره في مجموعة من العوامل المتداخلة يمكن جمعها فيما يلي:

أولاً: ما تتمتع به المنظمات غير الحكومية من سمات وخصائص ذاتية تتمثل في العمل الطوعي وما يعنيه من رغبة في الأداء واستعداد وتحمس للمشاركة وقدرة على التعبئة وحشد الطاقات والتعامل مع المشكلات الاجتماعية العاجلة والملحّة، مع التمتع بمصداقية عالية لدى جانب كبير من قطاعات الرأي العام، وذلك في مقابل ما يشوب القطاعين الآخرين الحكومي والخاص، من مثالب وعيوب تحول بدرجة دون إشباع حاجات الأفراد والشعوب وتمتعهم بالحقوق والحريات الأساسية, فالقطاع الحكومي يسوده الجمود والبيروقراطية وبطء الأداء، فضلاً عن الفساد في حالات كثيرة, أما القطاع الخاص فتسيطر عليه الرغبة في تحقيق الأرباح ولو على حساب الاعتبارات الاجتماعية.

ثانياً: ويرتبط بما سبق ما ذهب إليه البعض من أن تنوع وتعقد المشكلات والتحديات الداخلية والعالمية على نحو يفوق قدرات الدول فرادى،

وكذلك المنظمات الدولية الحكومية المقيّدة بالعديد من القيود القانونية والسياسية والعملية، اقتضى الحاجة إلى دور أكبر للمنظمات غير الحكومية التي تتميز بالمرونة والكفاءة والبعد عن التوترات السياسية والتعقيدات الإدارية الروتينية، بما يمكّنها من سرعة التحرك الفعال في مواجهة الظروف الطارئة والكوارث الإنسانية كالمجاعات والكوارث الطبيعية.

ثالثاً: ويرى آخرون أن ما حدث في الفترة الراهنة من تطور النظام الدولي، لاسيما بعد انتهاء الحرب الباردة، من حيث انتشار أعمال العنف والتطرف والحروب الأهلية، وما اقترن بذلك من قيام بعض الحكومات بقمع وإبادة الجماعات العرقية أو السياسية المناوئة، كان مدعاة لبروز دور المنظمات غير الحكومية التي تعمل فيما ينبغي أن يكون بعيداً عن السياسة، وتقوم على أسس إنسانية تبتغي تحقيق الأمن بمفهومه الإنساني، أي ضمان أمن وسلامة الأفراد والجماعات والشعوب، وليس أمن الدول ذات السيادة فحسب.

رابعاً: وثمة من يرى في تفسير الأسباب وراء انتشار المنظمات غير الحكومية وتنامي دورها، أن ذلك إنما يعود في جانب أساسي منه إلى ما تقدمه الدول الغربية المانحة والمنظمات الدولية الحكومية، من دعم وتمويل للمنظمات غير الحكومية الدولية والمحلية.

ومن ثم فإنه يمكن القول إن هذه الأسباب مجتمعة تنهض بالمنظمات غير الحكومية لتجعل منها أداة أو آلية يمكن من خلالها مواجهة المواقف والأزمات الطارئة والتعامل مع المشكلات الاجتماعية العاجلة والملحّة، فضلاً عن الإسهام بدور إيجابي فاعل في تحقيق التنمية المستدامة والشاملة لشعوب الدول النامية والمعرّضة للأزمات.

ومن المعلوم أن المنظمات غير الحكومية، محلية كانت أم دولية، تضطلع بمجموعة متنوعة من الأنشطة والمهام التي تسعى من ورائها إلى إنجاز

"ما حدث في الفترة الراهنة من تطور النظام الدولي، لاسيما بعد انتهاء الحرب الباردة، من حيث انتشار أعمال العنف والتطرف والحروب الأهلية، وما اقترن بذلك من قيام بعض الحكومات بقمع وإبادة الجماعات العرقية أو السياسية المناوئة، كان مدعاة لبروز دور المنظمات غير الحكومية التي تعمل فيما ينبغي أن يكون بعيداً عن السياسة، وتقوم على أسس إنسانية تبتغي تحقيق الأمن بمفهومه الإنساني"

الأهداف التي قامت المنظمة من أجل تحقيقها، وهي الأنشطة والأهداف التي يحددها للمنظمة ميثاقها المنشئ وفقاً للقانون المنظّم لذلك في دولة المقرّ.

ولقد شهدت هذه الأنشطة والمهام تطوراً كبيراً بتطور مراحل النشأة التي مرت بها المنظمات غير الحكومية، حتى صارت ظاهرة شائعة تفرض نفسها على مختلف الأصعدة وفي كافة المجالات. وبصفة عامة فإنه يمكن تصنيف الأهداف التي تنشدها المنظمات غير الحكومية من وراء الأنشطة والمهام التي تقوم بها إلى فئتين رئيسيتين، تتمثل أولاهما في العمل على تحقيق أغراض ذات طبيعة تنموية بمفهومها الواسع، على حين تتمثل الأخرى في الدفاع عن قضايا معينة تؤرّق المجتمعات المحلية أو الدولية أو كليهما معًا، كقضايا تلوّث البيئة ومكافحة الأمية وحقوق الإنسان وغيرها.

وتتسع الفئة الأولى من الأهداف لتشمل العمل من جانب المنظمات غير الحكومية على تحقيق

"تمثل قضية التمويل بالنسبة للمنظمات غير الحكومية، بنوعيها المحلي والدولي، عصب نشاطها، فبدونه لا يتسنى لها القيام بأي عمل ذي قيمة حقيقية من أنشطتها، فقضية التمويل تعد من أهم المشكلات التي تواجه هذه المنظمات، سواء في شقها السلبي المتمثل في قلة مصادر التمويل أو ضآلته، أو حتى في شقها الإيجابي المتمثل في تعدد مصادر التمويل مع ارتباط البعض منها بالمشروطية السياسية".

الرفاهية، وذلك من خلال تقديم الخدمات المختلفة إلى المحتاجين بما في ذلك الخدمات الصحية، إلى جانب تقديم المساعدة وتلبية الحاجات الخاصة للفقراء, مثل توزيع الأغذية والملابس والأدوية وغيرها من أشكال المساعدة, وخاصة في أوقات الكوارث والأزمات، إلى جانب القيام بأعمال إنمائية تركز بصفة أساسية على الجماعات الفقيرة بما يضمن في النهاية تحقيق حد أدنى من التنمية الاقتصادية في الدول والمجتمعات الفقيرة.

أما الفئة الأخرى من الأهداف فتتمثل في التصدي لبعض المشكلات والدفاع عن بعض القضايا ذات الطبيعة الخاصة، كقضايا البيئة والمرأة وذوي الاحتياجات الخاصة وحقوق الإنسان في أوقات السلم والحرب على حد سواء.

والحق أنه إذا كانت الفئة الأولى من الأهداف تحظى على وجه العموم بالتوافق، ولا يثور بشأنها في الغالب الأعمّ من الحالات أية إشكالات من جانب الحكومات في الدول التي تتم على أراضيها أنشطة هذه المنظمات في هذا الصدد؛ فإن الفئة الأخرى منها، على العكس من ذلك، تحوي في طياتها لاسيما فيما يتعلق بالمنظمات غير الحكومية العاملة في مجال حقوق الإنسان، ما يجعلها في كثير من الأحيان محل شك وريبة من جانب هذه الحكومات، نظراً لما قد يكتنف عملها من أهداف سياسية، داخلية أو خارجية غير معلنة، قد تصل في بعض الأحيان إلى حد تهديد الأمن القومي للدول المستهدفة.

أما قضية التمويل فتمثل بالنسبة للمنظمات غير الحكومية، بنوعيها المحلي والدولي، عصب نشاطها، إذ بدونه لا يتسنى لها القيام بأي عمل ذي قيمة حقيقية من أنشطتها, فقضية التمويل تعد من أهم المشكلات التي تواجه هذه المنظمات، سواء في شقها السلبي المتمثل في قلة مصادر التمويل أو ضآلته، أو حتى في شقها الإيجابي المتمثل في تعدد مصادر التمويل مع ارتباط البعض منها بالمشروطية السياسية. ومن المعلوم أن جانباً كبيراً بل ربما أحياناً ما يكون الجانب الأكبر من ميزانية المنظمات الدولية غير الحكومية، لاسيما منها تلك المعنية بحقوق الإنسان، إنما يأتي من الدول الغربية المتقدمة وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية ودول الاتحاد الأوروبي.

حاصل القول بصفة عامة: إنّ قضية التمويل الأجنبي للمنظمات غير الحكومية، محلية أو دولية، تثير العديد من القضايا والتساؤلات حول الاستقلال الذاتي لهذه المنظمات, ومدى قدرتها على إعداد مشروعاتها وبرامجها والقيام بأنشطتها بشكل مستقل عن توجيهات الجهات المانحة، وإلى أي مدى يمكنها بناء شراكات حقيقية متوازنة مع هذه الجهات، وما إذا كان تزايد تدفق التمويل الأجنبي يمثل عاملًا إيجابيًا أم سلبيًا في تطور حركة حقوق الإنسان، وتأثير ذلك كله على استقرار الدول المستهدفة وأمنها القومي.

وإذا كانت الموضوعية والحياد العلمي تستوجبان التمييز بين المنظمات العاملة في مجالات إنسانية بحتة حتى وإن أتاها التمويل من الخارج،

كتلك المنظمات التي تعمل على سبيل المثال في مكافحة أمراض بعينها في مناطق موبوءة بها, وتلك التي تتخذ من الإنسانية غطاءً يخفي أغراضها السياسية, أو بالأحرى أغراض داعميها؛ فإن الواقع يؤكد أن أكثر المنظمات شبهة في هذا المجال هي تلك المرتبطة بالأنشطة السياسية والإعلامية والاجتماعية وحقوق الأقليات. فالتمويل هنا ذو طابع سياسي, وقد يتم توظيفه في سياق الصراع الثقافي والحضاري – ومن ثم السياسي - داخل الدولة المستهدفة. كما قد يصل الأمر إلى حد قيام الجهات المانحة بتكليف المنظمات متلقية التمويل باتخاذ مواقف معينة أو التنديد بسياسات أو قوانين تصدرها سلطات هذه الدولة لا تنسجم مع سياسات الدولة المانحة.

ثالثاً: دور المنظمات الدولية غير الحكومية كآلية لحماية حقوق الإنسان

تقدمت الإشارة إلى أن المنظمات الدولية غير الحكومية باتت تضطلع إلى جانب دورها المتزايد في مجالات التنمية, بدور جديد ومتزايد يتجاوز في كثير من الأحيان حدود الدولة إلى غيرها من الدول, دفاعًا عن قضايا معينة تهم المجتمع الإنساني بأسره, كما هو الحال بالنسبة لقضايا السيطرة على التسلح والمخدرات وخطر الألغام الأرضية, وتحسين ظروف العمل في القطاعين العام والخاص والحفاظ على البيئة وغيرها, وهي قضايا يحظى فيها دور هذه المنظمات بالرضا والقبول في ضوء حقيقة أنها قضايا عامة محايدة لا تحمل في طياتها أية أبعاد أو أغراض سياسية تحكم نشاط المنظمات في صددها.

غير أنه لما كانت قضايا حقوق الإنسان, وهي قضايا قد تحمل في طياتها أبعاداً وأغراضاً سياسية مشروعة أو غير مشروعة لجهات داخلية أو أجنبية, قد أضحت واحدة من أبرز الحقائق التي تفرض نفسها على الرأي العام بكافة قطاعاته واتجاهاته الرسمية والشعبية الداخلية والخارجية, فقد برز دور المنظمات الدولية غير الحكومية كآلية فعالة في سبيل كفالة الضمانات والآليات الوطنية والدولية اللازمة لحماية هذه الحقوق, وتعزيز احترامها على أرض الواقع.

وإذا كانت المنظمات الدولية غير الحكومية على تنوعها وتباين أساليب عملها, تنطلق فيما يتعلق بدورها في مجال حماية حقوق الإنسان, من أرضية واحدة تتمثل في العمل على تحسين حالة حقوق الإنسان إجمالاً, فإنه ثمة تنوعات عديدة بينها من ناحية مجال تركيز كل واحدة منها, ففي حين تعمل بعضها أساسًا في حالات الحرب والكوارث الطبيعية أو غير الطبيعية كاللجنة الدولية للصليب الأحمر, تعمل الأخرى في حالات السلام كمنظمة العفو الدولية وهيومان رايس واتش. وفى حين تهتم بعضها بمجمل أوضاع حقوق الإنسان على مستوى دولة أو دول بعينها أو حتى على المستوى العالمي, تهتم الأخرى بفئة واحدة من فئات هذه الحقوق, كحقوق المرأة أو حقوق اللاجئين أو حقوق العمال أو غيرها.

والحق أنه ثمة آليات عدة تمارس من خلالها المنظمات الدولية غير الحكومية دورها في حماية حقوق الإنسان وترقيتها, من ذلك على سبيل المثال الدور المهم الذي تقوم به في دفع الحكومات في الدول المستهدفة إلى وضع الاهتمام بقضايا حقوق الإنسان ضمن أولويات اهتمامها, سواء على صعيد المجتمع الوطني أو حتى المستوى الإقليمي أو العالمي, من خلال التوصل إلى معاهدات دولية في هذا الصدد. ولعله من المفيد جداً في هذا السياق أن نشير إلى الدور شديد الأهمية الذي لعبته اللجنة الدولية للصليب الأحمر في مجال ترقية قواعد القانون الدولي الإنساني, عبر إعدادها للمشاريع الأولية لاتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩, وبروتوكوليها الملحقين لعام ١٩٧٧, والتي تمثل في مجملها الأساس القانوني الذي ينبني عليه احترام حقوق الإنسان في أوقات الحرب والنزاعات المسلحة غير ذات الطابع الدولي, وهو الدور الذي قدره المجتمع الدولي تقديراً كبيراً, فمنحُ اللجنة الدولية للصليب الأحمر صلاحيات في صدد الإشراف على تنفيذ هذه الاتفاقيات,

> **"في سبيل تحقيق الأهداف في مجال حماية حقوق الإنسان وترقية ظروفها في الدول المستهدفة، تمارس المنظمات الدولية غير الحكومية، بما فيها تلك التي يتسم عملها بالحيادية والموضوعية، ولا يخفي في طياته أغراضًا سياسية مشبوهة، من خلال الضغوط الدبلوماسية على الحكومة المعنية من خلال الاجتماع بها أو التدخل لديها بشأن انتهاكات محددة قبل الإقدام على نشر ما لديها من تقارير حول هذه الانتهاكات"**

لا تعطي أساساً إلا للدول أو المنظمات الدولية الحكومية كالأمم المتحدة. ومنه أيضًا ما تقوم به بعض هذه المنظمات من فضح وإدانة لما قد يقع من انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان في أي دولة من الدول.

كذلك تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن العلاقة بين المنظمات الدولية غير الحكومية وحكومات الدول المعنية أو المستهدفة، وهي العلاقة التي تتباين في طبيعتها وتتعدد في أشكالها من حالة إلى أخري، تؤثر بدرجة أو بأخرى على دور هذه المنظمات في مجال حماية حقوق الإنسان، وتفصيل ذلك أن العلاقة المتبادلة بين المنظمات الدولية غير الحكومية وحكومات الدول النامية والفقيرة بصفة عامة، تختلف في طبيعتها وفي درجتها عن العلاقة بين هذه المنظمات ذاتها وحكومات الدول القوية والمتقدمة, كما تختلف هذه العلاقة بداهة باختلاف طبيعة النظام السياسي الحاكم في الدولة وموقفه من الديمقراطية وحقوق الإنسان.

ومن البديهي أن العلاقة الحسنة بين المنظمات الدولية غير الحكومية وحكومة الدولة العاملة في أراضيها, إنما تعني تأييدًا حكوميًا لعمل هذه المنظمات، ومن ثم نجاحًا لهذه المنظمات في تحقيق أهدافها، والعكس بالعكس، فسوء هذه العلاقة يجعل الحكومة تضع الكثير من العراقيل أمام هذه المنظمات, ما يحول بينها وبين النجاح في تحقيق الأهداف.

رابعًا: المنظمات الدولية غير الحكومية العاملة في مجال حقوق الإنسان وسيادة الدولة

حظيت قضايا حقوق الإنسان بتصنيفاتها المختلفة وفي الأحوال كافة، باهتمام العديد من المنظمات الدولية غير الحكومية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى على أقل تقدير، وهو الاهتمام الذي تضاعف أضعافًا كثيرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، كما تقدمت الإشارة.

وفي سبيل تحقيق أهدافها في مجال حماية حقوق الإنسان وترقية ظروفها في الدول المستهدفة، تمارس المنظمات الدولية غير الحكومية، بما فيها تلك التي يتسم عملها بالحيادية والموضوعية, ولا يخفي في طياته أغراضًا سياسية مشبوهة كاللجنة الدولية للصليب الأحمر، ضغوطًا دبلوماسية على الحكومة المعنية من خلال الاجتماع بها أو التدخل لديها بشأن انتهاكات محددة كخطوة أولى قبل الإقدام على نشر ما لديها من تقارير حول هذه الانتهاكات, ومن قبيل ذلك ما تقوم به اللجنة الدولية للصليب الأحمر من إبرام اتفاقات مع الدول تعمل بموجبها في أراضيها وتحاول من خلالها تحسين وضع حقوق الإنسان، خاصة فيما يتعلق بظروف الاعتقال ومعاملة المعتقلين وأسرى الحرب ومن في حكمهم، وعندما تخفق محاولاتها لدى السلطات المعنية في إيجاد حلول مقبولة لهذه القضايا, تلجأ أحيانًا إلى إصدار بيانات صحفية وبلاغات تحذيرية حولها.

ليس هذا فحسب، بل إنه أحيانًا ما تقوم المنظمات الدولية غير الحكومية بمراقبة مدى التزام السلطات في الدولة باحترام وتطبيق الحقوق والحريات الأساسية المتعارف عليها عالميًا، وكثيرًا ما يلجأ إليها المواطنون لرفع الشكاوى وطلب المشورة في هذا الصدد. هذا فضلاً عما قد تقوم به عند الضرورة من تشكيل وإيفاد لجان لتقصي الحقائق إلى الدول التي تقوم بانتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان، وقيام هذه اللجان بعد انتهاء تحقيقاتها بإصدار تقارير حول حقيقة الوضع محل النظر، وهو ما يسهم – على الأقل – في فضح الانتهاكات والممارسات غير القانونية في هذا المجال.

خامساً: تسييس أنشطة المنظمات الدولية غير الحكومية في دول ما يُعرف بالربيع العربي

شهدت المنطقة العربية على مدى عقود تزايداً مضطرداً في عدد المنظمات غير الحكومية، محلية وعالمية، وفي أنشطتها, وقد اصطبغت هذه الأنشطة في الغالب الأعمّ من الحالات بطابع اجتماعي اقتصادي في بعضها، واستهدفت جوانب الإغاثة والتوعية في بعضها الآخر.

غير أن الأحداث الأخيرة التي شهدتها هذه المنطقة، والتي أنتجت لنا ما يعرف بثورات **«الربيع العربي»**، سلطت الضوء على الجوانب السياسية لأنشطة هذه المنظمات، وأبانت بجلاء بعضًا منها، لاسيما تلك التي تحمل صفة الدولية، فانحسر دور الأمم المتحدة في المساعدات الإنسانية والتي بدورها أضحت ملفّ ابتزاز من قبل الأنظمة وحلفائها في وقت فشل المجتمع الدولي في جعله ملفاً فوق تفاوضي، كما اقتصر هذا الدور على بعض المهام الإحصائية التي تقوم بها المنظمات الخاصة بالأمم المتحدة، كمنظمة اليونيسكو، ومفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، ومنظمة العمل الدولية، وعليه فإن تقييم الفاعلية مرتبط بطبيعة ووظيفة المؤسسة الأمية، فإن تناولنا بالنقد مؤسستي الجمعية العامة ومجلس الأمن, فإنه أسير الانقسام الدولي واختلاف المصالح المرتبطة بالجيوستراتجية السورية, وهو ما عزّز من تسيّد عوامل العطالة وعدم النجاح في أي تقدم سياسي ذي أثر مباشر على النزاع وضرورات حله، وإذا ما قيّمنا أدوار وكالات الأمم المتحدة مثل (**مكتب تنسيق الشؤون الإنسانية، ومنظمة العمل الدولية، واليونسكو، والمنظمات الخاصة باللاجئين والإغاثة**) فإننا نلحظ أدواراً متفاوتة الأهمية والأثر وفق معايير النجاح في تحسين وتغليب الخيارات الإنسانية والإغاثية وسياسات الاستجابة الطارئة, وحتى إن حاولنا إقناع أنفسنا أن المجتمع الدولي يحاول تحسين الوضع الاقتصادي في سوريا من خلال عمل بعض المنظمات في المنطقة, نجد أن تركيا الجارة لسوريا تعرقل هذه التحركات من خلال تهديدها الدائم لشن حملات برية في الشمال الشرق السوري, والذي يهدد أمن وسلامة المنطقة وسلامة كوادر المنظمات العاملة في تلك المنطقة.

الهجرة, التهجير القسري، هجرة العقول

الهجرة غير الشرعية من الشرق الأوسط للغرب

فيان أيوب

تُعرف الهجرة بمدلولها الاصطلاحي على أنَّها تنقّل البشر أفراداً أو جماعات من منطقة إلى أخرى، وقد يكون هذا التنقل ضمن حدود إقليم واحد أو من إقليمٍ إلى آخر، بشكلٍ موسمي موقّت أو بشكلٍ دائم بهدف الاستقرار ونسج السبل لحياة جديدة في المهجر.

كان الهدف من الهجرة تاريخياً البحث عن حياة أفضل، أو هجراتٍ تجارية بهدف التبضّع والمتاجرة بالحاجيات الحياتية الأساسية، وهذا ما كان يُعرف بالهجرات الشرعية، وللحديث عن الهجرات غير الشرعية والتهجير القسري يمكن القول بأنَّها تصنّف ضمن الهجرات الاضطرارية التي كانت تتضمن المتاجرة بالبشر وتهجير البشر من أماكن إقامتهم لأماكن أخرى، بناءً على سياساتٍ ممنهجة تمارس ضد السكان الأصليين فيما يعرف بعملية **«التهجير القسري والتغيير الديمغرافي»** ليحل محلهم مستوطنون جدد، وهم أيضاً يكونون في غالب الأحيان مهاجرين من غير سكان المنطقة الأساسيين، يتم استجرارهم وتوطينهم في غير مناطقهم بهدف تغيير معالم المنطقة اجتماعياً.

الهجرة تاريخياً

هجرات ما قبل الحداثة:

عُرِفت أولى هجرات الإنسان المنتصب من أفريقيا عبر أوراسيا منذ نحو ١,٧٥ مليون سنة بحسب بعض المصادر التاريخية، ويبدو أن الإنسان العاقل قد سكن كلاً من أفريقيا منذ حوالي ١٥٠,٠٠٠ سنة، وتحرك خارج أفريقيا قبل حوالي ٧٠,٠٠٠ سنة، ثم انتشر في جميع أنحاء أستراليا وآسيا وأوروبا قبل ٤٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وبدأت الهجرة إلى الأمريكيتين قبل حوالي ٢٠,٠٠٠ إلى ١٥,٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ثم قبل ٢٠٠٠ سنة أصبحت معظم جزر المحيط الهادئ مستعمرة بفعل الهجرات المتعددة، وكانت تحركات السكان اللاحقة تشمل ثورة العصر الحجري الحديث، وتوسع الهندو أوروبي، وأوائل هجرات القرون الوسطى العظمى بما في ذلك التوسع التركي. حدث في بعض الأماكن تحول ثقافي كبير بعد هجرة نُخَب صغيرة نسبياً من السكان، وكمثال على ذلك تركيا وأذربيجان.

خارطة للهجرات البشرية القديمة

كانت أولى قوافل الإنسان المهاجر نتيجة عوامل عدة مثل تغير المناخ والتضاريس وعدم كفاية الإمدادات الغذائية، وتشير الأدلة إلى أن أسلاف الشعوب الأسترونيزية انتشرت من البرّ الصيني الجنوبي لتايوان في وقت ما منذ حوالي ٨٠٠٠ سنة. والأدلة من اللغويات التاريخية تشير إلى أنه هاجرت من هذه الجزيرة مجموعات البحّارة في شكل موجات كبيرة منفصلة عبر آلاف السنين، إلى كل المنطقة التي تشملها اللغات الأسترونيزية، ويعتقد أن هذه الهجرة بدأت منذ حوالي ٦٠٠٠ سنة.

تم افتراض أن الهجرة الهندية الآرية من وادي السند إلى سهل نهر الغانج في شمال الهند، قد اتخذت مكانها في الوسط إلى أواخر العصر البرونزي، حيث عاصرت أواخر مرحلة الهاربان في الهند (حوالي ١٧٠٠-١٣٠٠ قبل الميلاد). ثم من عام ١٨٠ قبل الميلاد تلتها سلسلة من الغزوات من آسيا الوسطى بما في ذلك تلك التي بقيادة الهندو إغريق، والهندوسكيثيين، والهندوبارثيين والكاشيون في شمال غرب شبه القارة الهندية.

فترة الهجرة من القرن الرابع وحتى القرن السادس

قبل التوسع للغات البانتو والناطقين بها كان يعتقد أن النصف الجنوبي من أفريقيا يسكنه الناطقون بلغة البيجمه والكوزان، واليوم تشغل المناطق الجافة حول صحراء كالاهاري والغابات في أفريقيا الوسطى، وبعد حوالي ١٠٠٠ سنة ميلادية كانت هجرة البانتو قد وصلت إلى زمبابوي وجنوب أفريقيا. في العصر الحديث كان بنو هلال وبنو معقل مجموعة من القبائل البدوية العربية من شبه الجزيرة العربية الذين هاجروا غربا عبر مصر بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر، وساهمت هجرتهم بقوة على تعريب وأسلمة المغرب الغربي الذي كانت تسيطر عليه قبائل البربر حتى ذلك الحين. ويعتبر التوسع الألماني الشرقي (Ostsiedlung) هو هجرة الشرق في القرون الوسطى واستيطان الألمان، وكان القرن الثالث عشر وقت الهجرات الكبيرة للمغول والأتراك عبر أوراسيا.

الحروب العالمية وعواقبها

للحربين العالميتين الأولى والثانية، والإبادات الجماعية والأزمات التي ظهرت بسببها، كان لكل ذلك تأثير كبير جداً على الهجرة، حيث هاجر المسلمون من البلقان إلى تركيا، فيما انتقل المسيحيون في الاتجاه المغاير إبَّان تلاشي الإمبراطورية العثمانية. في العام ١٩١٥ قامت الدولة العثمانية بالقتل المنظّم لسكانها الأرمنيين المدنيين، وتواصل الاضطهاد بدرجات متفاوتة من الشدة حتى عام ١٩٢٣ عندما سقطت الإمبراطورية العثمانية وحلت محلها الجمهورية التركية الحديثة، حيث كان عدد السكان الأرمنيين في الدولة العثمانية نحو مليونين في عام ١٩١٥.

وفي عام ١٩١٨ تم قتل ما يقدر بمليون شخص، في حين أن مئات الآلاف أصبحوا من اللاجئين المشردين بلا وطن. وبحلول عام ١٩٢٣ اختفى السكان الأرمنيون بالكامل تقريباً من الأناضول التركي. انتقل أربعمائة ألف يهودي لفلسطين أوائل القرن العشرين، والعديد منهم لأمريكا كما سبق ذكره. تسببت الحرب الأهلية الروسية بهجرة نحو ثلاثة ملايين من الروس والبولنديين والألمان من الاتحاد السوفيتي الجديد، وأيضاً تسبب إنهاء الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية بالهجرات.

لقد تشكل المجتمع اليهودي في أوروبا والبحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط من المهاجرين المتطوعين وغير المتطوعين. بعد المحرقة (١٩٣٨-١٩٤٥) كانت هناك زيادة في الهجرة إلى فلسطين نتيجة للانتداب البريطاني عليها، ومن ثم قامت الدولة الحديثة «إسرائيل» نتيجة لقرار الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين وتقديمها على طبق من ذهب لليهود.

لقد أدت أحكام اتفاقية بوتسدام عام ١٩٤٥ التي وقّعها الحلفاء الغربيون المنتصرون والاتحاد السوفيتي، إلى واحدة من أكبر الهجرات الأوروبية والأكبر في القرن العشرين، حيث شملت هجرة

> **"الكفاءات والعقول هي القوى الناعمة والثروة الحقيقية للدول والأوطان، فالعقل البشري هو من يصنع الثروة الحقيقية لأي كيانٍ كان وقتما يتمكن من تطوير منتجات عصر العلم، أو تحقيق قيمة مضافة للثروات الطبيعية وتحويلها لما يخدم كافة مجالات المجتمع. فالشرق الأوسط بشكلٍ عام، وسوريا على وجه التحديد، كانت من أكثر الدول التي عانت ومازالت من هجرة العقول والكفاءات"**

وإعادة توطين أكثر من ٢٠ مليون شخص، وكان أكبر الفئات المتضررة هم الألمان (١٦,٥ مليون طردوا من أوروبا الشرقية إلى الغرب). وكانت ثاني أكبر فئة هم البولنديون الذين طُرد منهم الملايين غرباً من منطقة كريسي الشرقية وتوطينهم فيما يسمى بالأراضي المستردّة (انظر الحلفاء يقرون الحدود البولندية على خط أودرنيسي).

تم طرد مئات الآلاف من البولنديين والأوكرانيين (عملية فيستولا)، والليتوانيين، واللاتفيين، والأستونيين وبعض البيلاروس باتجاه الشرق من أوروبا إلى الاتحاد السوفيتي. وأخيراً فإن العديد من مئات الآلاف من اليهود المتبقّين في أوروبا الشرقية بعد المحرقة هاجروا خارج أوروبا إلى إسرائيل والولايات المتحدة.

باكستان - الهند

بعد تقسيم الهند عام ١٩٤٧ انتقل عدد كبير من السكان من الهند إلى باكستان وبالعكس.

بناء على معتقداتهم الدينية.، وتم إقرار قانون التقسيم في استقلال الهند في تشرين الأول عام ١٩٤٧ نتيجة لانحلال الإمبراطورية البريطانية الهندية, وقد أدى قرار التقسيم هذا إلى تشريد ما يصل إلى ١٧ مليون شخص في عهد الإمبراطورية البريطانية الهندية السابقة، مع تقديرات خسائر في الأرواح تتراوح من مئات الآلاف إلى المليون نسمة. هاجر المسلمون القاطنون في الهند البريطانية السابقة إلى باكستان (بما في ذلك شرق باكستان، بنغلاديش حالياً)، بينما انتقل الهندوس والسيخ المقيمون في باكستان والهندوسية من سكان باكستان الشرقية (بنغلاديش حاليا) في الاتجاه المعاكس.

هجرة العقول

الكفاءات والعقول هي القوى الناعمة والثروة الحقيقية للدول والأوطان، فالعقل البشري هو من يصنع الثروة الحقيقية لأي كيانٍ كان وقتما يتمكن من تطوير منتجات عصر العلم, أو تحقيق قيمة مضافة للثروات الطبيعية وتحويلها لما يخدم كافة مجالات المجتمع.

الشرق الأوسط بشكلٍ عام، وسوريا على وجه التحديد، كانت من أكثر الدول التي عانت ومازالت من هجرة العقول والكفاءات, نتيجة لما عصف بها من أحداث دامية دفعت بغالبية النُخَب والكفاءات للهجرة منها والتغرّب عن الوطن, والاستقرار فيما بعد في بلاد المهجر.

كانت سوريا تملك ثروة ضخمة من العقول المبدعة، التي ذاع صيتها واسمها على مستوى العالم في شتّى المجالات، لكن الغالبية من هذه النخب خرجت منها اليوم منذ اندلاع الأزمة السورية صوب الغرب, بحثًا عن خياراتٍ أفضل تناسب كفاءاتهم وتحصيلهم العلمي وتوفر لهم الحد الأدنى من مقوّمات المعيشة.

كما تُعرَّف هجرة الأدمغة على أنها انتقال الأفراد ممن يملكون كفاءات عالية، أي أنهم خريجوا الجامعات والكليات وما فوق ذلك، من بلدهم لبلد آخر، بحثاً عن الإقامة الدائمة والعمل.

هجرة العقول السورية إلى الدول الأوربية والولايات المتحدة وكندا, هي حالة فرضتها الظروف الصعبة، منها الافتقار لحياة علمية ذات ظروف سليمة وحوافز مشجّعة، فضلاً عن السنوات الدموية التي عصفت بالبلاد, حيث أدت إلى تدنّي مستوى المعيشة وافتقار الحياة اليومية لأدنى المقومات المعيشية, فضلاً عن التضخم الكبير الذي حلَّ بالعملة الوطنية.

الهجرة غير الشرعية من دول الشرق الأوسط إلى الغرب

الشرق الأوسط الذي يعاني من صراعاتٍ قديمة - حديثة, كان منذ قديم الزمن أحد أكثر المناطق تصديراً للمهاجرين باتجاه القارة العجوز و إلى الأمريكيتين, ففي الوقت الذي تشتد فيه الصراعات في دولةٍ من دول الشرق الأوسط, تَنشط فيه طُرق الهجرة غير الشرعية التي يكون غالبها عن طريق البحر الأبيض المتوسط الذي يشكل حدوداً طبيعية فاصلة بين الشرق الأوسط و دول الاتحاد الأوربي, ومع تزايد حدة العنف في بعض دول المنطقة, ازدادت عمليات الهجرة غير الشرعية براً و بحراً وجوّاً, علاوة على استخدام بعض الدول ورقة اللاجئين كأسلوب ابتزاز وفرض شروط في أي اتفاقياتٍ عُقِدت أو مازالت في طور الانعقاد, غير الامتيازات التي تحصل عليها لقاء احتوائها للاجئين.

تأتي سوريا في المرتبة الأولى من حيث عدد المهاجرين وفق غالبية منظمات رصد حركات الهجرة العالمية، وبالتحديد كان غالبية المهاجرين يقصدون تركيا كمحطة أولى, ومن ثم اليونان, ومنها إلى دول الاتحاد الأوربي.

أعداد المهاجرين كان يخلّفها تباعاً قوائم لضحايا الهجرة الذين كانوا هدفاً سهلاً لأمواج البحر أينما كانوا، سواء في المسافة الفاصلة بين تركيا واليونان، أو في المسافة التي تفصل بين كل من لبنان وليبيا والجزائر والمغرب عن سواحل دول الاتحاد الأوربي.

البيئة من ريو دي جانيرو إلى دبي

حميد المنصوري

مقدمة

كانت علاقة الإنسان بالبيئة تحمل الكثير من الاحترام وصولاً إلى التقديس منذ البدايات الأولى من حياة البشر على البسيطة، على سبيل المثال، نجد في الحضارة المصرية القديمة وعبر أقدم كتاب في تاريخ البشرية «كتاب الموتى»، بأنّ الحفاظ على البيئة يعتبر أحد الوسائل المقربة إلى الإله، ونكتشف في تعويذة الموتى «البراءة أمام الإله» بأنها تحتوي على قيم التعامل بين البشر والطبيعة، مثل تحريم الغش في الميزان، وعدم قطع أرزاق الفقراء، إلى جانب حقوق الطفل في الرضاعة، علاوة على احترام الحيوانات في مآكلها من العشب، وعدم حبس الطيور . ووصلت علاقة الإنسان القديم بالبيئة إلى التقديس، فقد قدّس المصريون القدماء نهر النيل، وألّهوهُ وأسموهُ «حابي»، وقدموا له الصلوات والترانيم . بينما ربط المفكر المصري القديم «نفرتي» البيئة بقدوم المخلّص، حيث تأتي نبوءتهُ عبر مجيء الملك المخلّص، والذي سيعيد إلى مصر رونقها وجمالها، الحدث الذي سيقود إلى ازدهار الطبيعة وفيضان النيل وحلول السعادة والرخاء على البشر من المصريين وعلى النبات والحيوان والكائنات الحية .

مع تقديس الطبيعة والخوف منها ومن ظواهرها الطبيعية. أخذ الإنسان يتعامل مع البيئة بأشكال وأنماط مختلفة ومتعددة حسب حاجاتهِ ومتطلباتهِ المتزايدة مع أهمية تطور قدراتهِ المعرفية والعلمية والحضارية.

ويمكن وضع مراحل الإنسان الرئيسية مع البيئة في المسارات التاريخية التالية:

أ- مرحلة القنص وجمع الغذاء والزراعة البدائية. وفي هذه المرحلة مارس البشر القنص وجمع الغذاء وعرفوا تربية الحيوانات وزراعة النبات. وهذا النمط استقر لأول مرة سنة ٧٥٠٠ ق م.

ب- الحضارة النهرية وهي اقتصاديات كبرى نهضت على ضفاف الأنهر مثل نهر النيل وبلاد ما بين النهرين.

ت- الإمبراطوريات الزراعية. ويمتد هذا النمط ابتداء من سنة ٥٠٠ ق م إلى الثورة الصناعية في عنفوانها حوالي ١٨٠٠ ميلادية.

ث- العصر الصناعي. وهو الممتد من ١٨٠٠ ميلادية وحتى وقتنا المعاصر, وهو عصر الوقود الأحفوري والنووي وضخامة التصنيع والاستهلاك وكثرة الابتكارات والاكتشافات. وكل ذلك من التطور كان ومازال مصحوباً مع بروز ظاهرة تلوث البيئة. واستنزاف الموارد الطبيعية. وتزايد عدد سكان الأرض بشكل ضخم .

حقيقةً. يمكن الحديث عن تلوث البيئة بدءًا من القرن الثالث عشر حيث احتج المواطنون البريطانيون ضد الدخان والروائح المنبعثة من نيران الفحم. ومن خلال تتبع الرزنامة البشرية وجداول اقتصاديات الدول والأمم. فإن التدهور الكبير والخطير حدث مع الثورة الصناعية الغربية. وكانت أوروبا وأمريكا الشمالية أكثر مناطق العالم تقدماً وتصنيعاً وتلوثاً .

وفي صفحات هذه الدراسة نعرض ونقدم أهم المحطات والتحولات حول البيئة والإنسان، والتي تحتوي على أربعة محاور كالتالي:

المحور الأول: البيئة والاتفاقيات الدولية

أولاً- تعريف البيئة, **ثانياً-** الاتفاقيات الدولية في شؤون البيئة

المحور الثاني: التنمية المستدامة وقمة الأرض ١٩٩٢

أولاً- الفلسفة في شؤون البيئة. **ثانياً-** مفهوم التنمية المستدامة. **ثالثاً-** قمة الأرض ١٩٩٢

المحور الثالث: الإنسان والطبيعة كمحددات

أولا- ظاهرة كبار السن. **ثانياً-** الكوارث الطبيعية والحروب الأهلية. **ثالثاً-** الصراع على الموارد الطبيعية المتجددة وغير المتجددة

المحور الرابع: قمة المناخ Cop٢٨ دبي. **أولاً-** ماهية Cop. **ثانياً-** Cop٢٨ دبي.

المحور الأول: البيئة والاتفاقيات الدولية

شهد العالم في القرن العشرين المنصرم الكثير من الاتفاقيات المختلفة والمتعددة في سبيل الحفاظ على البيئة. ومازال يحاول وضع حدود مقبولة للتعامل مع البيئة, خصوصًا وأن شؤون البيئة أصبحت في إطار العولمة. حيث الكل يؤثر ويتأثر بالتلوث والصراع واستنزاف الموارد الطبيعية. ويواجه ويتعاون في الكوارث الطبيعية. ففي هذا المحور نعرض أدقّ تعريف للبيئة وأهم الاتفاقيات الدولية حول شؤون البيئة المختلفة.

أولاً: تعريف البيئة

رغم تعدد التعريفات حول البيئة. إلا أن أدقّ التعريفات هي التي قسمت البيئة إلى جزأين رئيسين. **الأول «علم الإيكولوجيا»** المتعلق بالتفاعلات والمؤثرات المتبادلة بين جميع عناصر النظام الإيكولوجي من النباتات والحيوانات والتربة والماء والبشر والعوامل الجوية والزمان. **والجزء الثاني** من التعريف. يشمل ما يقوم به البشر من تفاعل وسلوك مؤثر على البيئة .

ولعل من الأمثلة الواضحة على هذا التعريف. هو القانون الإماراتي حول تعريف البيئة لسنة

١٩٩٩، حيث عرف البيئة بأنها: «**المحيط الحيوي الذي تتجلى فيه مظاهر الحياة بأشكالها المختلفة ويتكون هذا المحيط من عنصرين، العنصر الطبيعي، وهو يضم الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات، وغيرها من الكائنات الحية والموارد الطبيعية من هواء وماء وتربة ومواد عضوية وغير عضوية، أما العنصر غير الطبيعي، فهو يشمل كل ما أدخله الإنسان إلى البيئة الطبيعية من منشآت ثابتة وغير ثابتة وطرق وجسور ومطارات ووسائل نقل وما استحدثه من صناعات ومبتكرات وتقنيات**» .

ثانياً: الاتفاقيات الدولية في شؤون البيئة

أدرك العالم التحديات المتعددة والمتزايدة التي تهدد البيئة منذ بدايات القرن العشرين، فمن الاتفاقيات المتعلقة بالحفاظ على الحيوانات والنباتات في وضعها الطبيعي تأتي اتفاقية لندن ١٩٣٣، وتضم هذه الاتفاقية حكومات اتحاد جنوب إفريقيا تحت التاج البريطاني وبلجيكا والمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية ومصر وإسبانيا وفرنسا وإيطاليا والبرتغال والسودان الأنجلو-مصري، وتضع الاتفاقية في اعتبارها أن الحيوانات والنباتات الطبيعية يجب أن تُحفظ في أجزاء معينة من العالم، ولا سيما في أفريقيا، باعتبارها معرضة لخطر الانقراض أو الإصابة الدائمة، ووضعت الاتفاقية طرقاً لحماية الحيوانات والنباتات، مثل إنشاء الحدائق الوطنية والمحميات الطبيعية، والتي يتم فيها تقييد وحظر الصيد أو القتل أو الاستيلاء على الحيوانات أو أخذ النباتات أو تدميرها، ووضعت الاتفاقية بعض اللوائح المتعلقة بالصيد والاستيلاء على الحيوانات خارج هذه المناطق مع حظر بعض أساليب وأسلحة الصيد والقتل والاستيلاء على الحيوانات، إلى جانب وجود منع من استيراد الحيوانات والنباتات على تلك الحدائق والمحميات إلا بإذن رسمي وقانوني .

ومن عالم الحيوان والنبات إلى البحار، فقد خرجت اتفاقية متعلقة بمنع تلوث البحار المتعلق بالنفط عام ١٩٥٤ ، وهذه الاتفاقية عدِّلت في ١٩٦٢، ١٩٦٩، ١٩٧١.

كانت علاقة الإنسان بالبيئة تحمل الكثير من الاحترام وصولاً إلى التقديس منذ البدايات الأولى من حياة البشر على البسيطة، على سبيل المثال، نجد في الحضارة المصرية القديمة وعبر أقدم كتاب في تاريخ البشرية "كتاب الموتى"، بأن الحفاظ على البيئة يعتبر أحدّ الوسائل المقربة إلى الإله، ونكتشف في تعويذة الموتى "البراءة أمام الإله" بأنها تحتوي على قيم التعامل بين البشر والطبيعة

وأصبح العالم مدركاً لتحدي جديد متعلقة بالأسلحة النووية، فأتت معاهدة حظر تجارب الأسلحة النووية في الفضاء الخارجي وتحت سطح الماء الموقعة في موسكو ١٩٦٣، وهذه الاتفاقية تحاول وضع حدّ لسباق التسلح النووي وإجراء التجارب على الأسلحة النووية، وفي الشأن النووي، تميزت معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية لعام ١٩٦٨ في الحدّ من الانتشار مع الحق في استخدام الطاقة النووية في الأغراض السلمية، وحثت الدول النووية على عدم نقل الأسلحة النووية لدول ليست ضمن الدول النووية في تلك الفترة. وبينما تعاظمت مخاطر التلوث البحري بدأت الاتفاقيات الدولية تتزايد على مستوى إقليمي ودولي، على سبيل المثال، ففي المستوى الإقليمي خرجت **اتفاقية حماية البحر المتوسط** المعنية بالتلوث المعتمدة في برشلونة عام ١٩٧٦ ، وتبعتها **اتفاقية الكويت** على مستوى دول منطقة الخليج عام ١٩٧٨ في شأن تلوث مياه الخليج، والتي انبثق عنها المنظمة الإقليمية لحماية البيئة البحرية، ولعل الأمر الذي جعل الكويت من الدول العربية

السباقة في مسألة تلوث البيئة البحرية يرجع إلى مسار من الأحداث المهمة، بدايةً من حادثة ناقلة البترول **«توري كانيون»** البريطانية عام ١٩٦٧، والتي كانت حاملة نفطاً من ميناء الأحمدي بالكويت إلى المملكة المتحدة، وهذه الناقلة النفطية اصطدمت بالشُعَب المرجانية قرابة السواحل البريطانية مما تسبب في تسريب نفطي كبير، وحدوث تلوث بحري ضخم خاصةً مع إغراق السفينة ، وهذه الحادثة قادت إلى **اتفاقية بروكسل ١٩٦٩** المتعلقة بالمسؤولية عن الأضرار الناجمة عن التلوث بالنفط، والتي بدورها توسعت في الاتفاقية الدولية عام ١٩٧٣ في مسألة التلوث الناجم عن السفن, حيث التلوث لا يقتصر فقط على النفط, بل جميع المواد المضرة في البيئة البحرية، ويشمل هذه الأمر كل السفن باختلافها وليس فقط ناقلات النفط ، إلى جانب أهمية **مؤتمر ستوكهولم عام ١٩٧٢** وإنشاء برنامج الأمم المتحدة للبيئة الذي اهتم بالبحار الإقليمية وأهمية دور الدول المطلة عليها.

ومن الاتفاقيات المهمة أيضاً اتفاقية لحماية الحيوانات البرية المهاجرة المعتمدة في مدينة بون الألمانية ١٩٧٩ ، كما شهد العالم اتفاقية فيينا الخاصة بحماية طبقة الأوزون وبروتوكول مونتريال الخاص بالمواد التي تعمل على تآكل طبقة الأوزون عام ١٩٨٥، ويؤخذ على هذه الاتفاقية عدم وجود إجراءات محددة لحماية طبقة الأوزون، إلا إنها كشفت عن خطورة وأهمية طبقة الأوزون وحرارة الأرض بسبب التلوث . في الشؤون البيئية يكمن الحفاظ على التراث الإنساني، حيث أن اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار عام ١٩٨٢ قدمت إطاراً قانونياً للحفاظ على الآثار التاريخية الغارقة في البحار، وتوضح هذه الاتفاقية الآثار التي تعود إلى دول بعينها، مقابل آثار مشتركة للعالم وذلك حسب موقع الآثار من سواحل الدول والمناطق الإقليمية والاقتصادية البحرية ، وفي الآثار والوثائق الإنسانية هناك أهمية متزايدة لهوية وتاريخ الشعوب والمجتمعات، والتي أخذت تتزايد منذ احتلال العراق للكويت، حيث عمد نظام صدام البعثي إلى تدمير وسرقة الكثير من الوثائق التاريخية الكويتية.

المحور الثاني: الفلسفة في شؤون البيئة وقمة الأرض ١٩٩٢

قطعاً لم يؤخذ تلوث البيئة كقضية محورية في الدول الصناعية الكبرى الديمقراطية مثل أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان؛ إلا عندما وصل إلى مرحلة خطرة، على سبيل المثال، اليابان مرت بأحداث مأساوية عرفت بأحداث التلوث الكبرى في أربع مناطق، التسمم بالزئبق الذي قتل وسبب إعاقة لأفراد كثيرة في ميناماتا ونيجاتا، وتلوث الهواء الذي سبب ضيق تنفس في يوكايشي، وهناك أحداث بالتسمم بالكادميوم في مقاطعة توياما المسبب لأمراض في العظام، وهذه الأحداث قادت إلى احتجاج كبير بحركة منظمة من ضحايا الأحداث، وكان من النتائج النهائية بأن شرّعت الحكومة اليابانية أكثر من عشرة قوانين تشمل السيطرة على التلوث, وأوجدت وكالة حماية البيئة . وهناك حوادث خطرة حدثت في هولندا عام ١٩٧٩، ففي قرية هولندية تدعى «ليكركرك Lekkerkerk **« حصلت جماعة من المواطنين على وثائق تظهر بأن حكومتهم المحلية قد سمحت بطمر ودفن النفايات الكيميائية في قريتهم دون تصاريح سليمة، ورغم تعويض السكان وأصحاب البيوت، إلا أن هذه الكارثة شكلت منعطفًا في تعامل الحكومات الهولندية المتعاقبة مع التلوث وخاصة التخلص من النفايات .**

يحتوي المحور الثاني هنا على الفلسفة في شؤون البيئة وبداية خروج مفهوم التنمية المستدامة، كما يتناول قمة الأرض وأهميتها المستمرة.

أولاً: الفلسفة في شؤون البيئة

خرجت فلسفات في عصرنا الحديث والمعاصر حول الإنسان والطبيعة منها الأخلاقية البيئية أو الإيتيقا الأيكولوجية البيئوية، وهي فلسفة أخلاقية تبلورت في منتصف السبعينيات من القرن العشرين، وتقوم على أن الإنسان ملزم أخلاقيًا وقانونيًا بالإحجام عن إيذاء البشر، وبذلك هو ملزم بالإحجام عن إيذاء الكائنات الحية الأخرى

إلا لأسباب ضرورية .

ترى الإيكولوجيا أنّ المعضلة تكمن في علاقة الإنسان السلبية بالبيئة، التي تقوم على المركزية البشرية، أي أنّ البشر مقياس كل قيمة في الحياة، وهذا المنظور يقود دائماً إلى التعامل مع الكائنات غير البشرية على أساس أنّها مجرد مواد ووسائل لإشباع حاجات ورغبات البشر المتزايدة والمتعددة، وتدور الحركة النسوية وفي هذا الإطار، إذْ ترى أنّ الحالة المتردية بين الإنسان والبيئة تنبثق من البطريركية – النظام الأبوي الذكوري، فالتراتبية الاجتماعية الجاعلة من الرجل صاحب ومحتكر السلطة والقرار في العائلة والمجتمع, قادت إلى مختلف الشؤون في الحياة من تلوث البيئة والحروب والدمار والاستعمار والجشع المادي .

وهناك على الجانب الآخر، تكمن الحركة الإصلاحية بأفكارها المرتكزة على أن الإنسان الجاهل والجشع هو المسبب لتردي أحوال البيئة، لذا تؤكد على أهمية التشريعات الرادعة لكبح الممارسات السلبية تجاه البيئة . بينما قدم «هانز أوناس» الأخلاق المسؤولة، وركز على أن الكائنات لها ذاتية وإدراك ومشاعر مع كون الإنسان ينفرد بأنه الكائن الحي الأكثر وعيًا وإدراكًا، وعلى هذا الأمر، فالإنسان هو الذي تقع عليه المسؤولية الأساسية والكبيرة في أحوال وأوضاع وشؤون البيئة والطبيعة، كما وضع «أوناس» الالتزام الخلقي بالمسؤولية تجاه حياة الأجيال القادمة، وهذه النقطة المحورية أكد عليها «جون رولز» الأمريكي بدعوته إلى إقامة عدالة بين الأجيال وتعاقبها .

وإلى جانب علوم البيئة، هناك علم الجغرافيا السلوكية والذي يأخذ بأثر العوامل العقائدية والصور الذهنية في سلوك الإنسان مع البيئة، أما علم النفس البيئي فيركز على المدركات والعواطف والاتجاهات التي تؤثر على الإنسان وتعمل على تقويم سلوكه في تحقيق التوازن البيئي، ومن العلوم الأكثر أهمية في البيئة نجد علم التربية البيئية، والذي ينطلق من ضرورة إكساب الأفراد والمجتمع القيم والمبادئ والحقائق حول أهمية وكيفية حماية البيئة والتعامل معها، وهذا العلم تأكدت أهميتهُ في مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية الذي انعقد في استوكوهم عام١٩٧٢ .

”شهد العالم في القرن العشرين المنصرم الكثير من الاتفاقيات المختلفة والمتعددة في سبيل الحفاظ على البيئة، ومازال يحاول وضع حدود مقبولة للتعامل مع البيئة، خصوصاً وأن شؤون البيئة أصبحت في إطار العولمة، حيث الكل يؤثر ويتأثر بالتلوث والصراع واستنزاف الموارد الطبيعية، ويواجه ويتعاون في الكوارث الطبيعية. ففي هذا المحور نعرض أدق تعريف للبيئة وأهم الاتفاقياتّ الدولية حول شؤون البيئة المختلفة“

ثانياً: مفهوم التنمية المستدامة

في علاقة الإنسان بالبيئة نجد أن كل أعمال التنمية الصناعية والسكنية والزراعية وغيرها من شؤون التنمية كانت تؤثر على البيئة مخلّفة تزايداً عالياً في التلوث في البحر واليابسة والسماء والهواء، علاوة على استنزاف الموارد الطبيعية المتجددة وغير المتجددة، ومن هذه المنطلقات، كان يجب ضبط عمليات التنمية بين مختلف الدول ومستوياتها التنموية وقدراتها المادية والمعرفية، فكان العالم في نقطة تحول كبيرة في شؤون البيئة مع الشخصية السياسية والطبية النرويجية «غرو هارلم برونتلاند-Gro Harlem Brundtland»، والتي تولت منصب رئيسة الوزراء النرويجية لفترتين، فقد قامت عام ١٩٨٣ من خلال الأمين العام للأمم المتحدة بتأسيس ورئاسة اللجنة العالمية المعنية بالبيئة والتنمية WCED»»، وعملت هذه اللجنة عام ١٩٨٧ بتحديد مفهوم التنمية المستدامة على أنه التقدم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي

> **تميزت قمة الأرض في مدينة ريو دي جانيرو البرازيلية بحضور دولي ضخم وصل إلى ١٧٧ دولة وتمثيل عالٍ من رؤساء الدول، عكست الإدراك الدولي الكبير حول مخاطر البيئة والذي ترجمته بالصمت في دقيتين للأرض في بداية القمة. القمة حملت الكثير من محاور الجدل بين الدول المتقدمة والنامية في خصوص البيئة ومخاطر التلوث عبر المسؤولية التي تقع على الدول**

الذي يلبي احتياجات الحاضر دون المساس بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتهم الخاصة، وتلخّص تقرير اللجنة حول التنمية المستدامة إلى أن التنمية المستدامة تتطلب سبعة تدابير: نظام سياسي يسمح بمشاركة المواطنين في صنع القرار، ونظام اقتصادي يولد الفوائض إلى جانب المعرفة التقنية على أساس الاعتماد على الذات والمسار المستدام، ونظام اجتماعي يسمح بتحديد حلول للتوترات المجتمعية، ونظام إنتاج يتوافق مع الحفاظ على قاعدة الموارد المتاحة، وأخيراً نظام تجارة وتمويل دولي مستدام ونظام إداري يسمح بالتصحيح الذاتي . ودفعت اللجنة العالمية المعنية بالبيئة والتنمية WCED››› والتي تعرف أيضاً ب Brundtland Commission نسبة إلى السياسية والطبيبة النرويجية غرو هارلم برونتلاند إلى عقد قمة الأرض ١٩٩٢ والتي كان لها دور دولي كبير، ورغم ذلك فقمة الأرض ١٩٩٢ بمدينة ريو دي جانيرو البرازيلية، لم تأخذ التنمية المستدامة في إعلان القمة بالتفصيل، بل اكتفت بذكر أنه يجب الوفاء بالحق في التنمية من أجل تلبية الاحتياجات الإنمائية والبيئية للأجيال الحالية والمقبلة بشكل منصف .

ثالثاً: قمة الأرض ١٩٩٢

تميزت قمة الأرض في مدينة ريو دي جانيرو البرازيلية بحضور دولي ضخم وصل إلى ١٧٧ دولة وتمثيل عالٍ من رؤساء الدول، عكست الإدراك الدولي الكبير حول مخاطر البيئة والذي ترجمته بالصمت في دقيتين للأرض في بداية القمة. القمة حملت الكثير من محاور الجدل بين الدول المتقدمة والنامية في خصوص البيئة ومخاطر التلوث عبر المسؤولية التي تقع على الدول.

ونضع هنا أهم نقاط الجدل هذه في التالي:

أ- ضريبة الكربون على النفط: بينما كانت الدول المتقدمة الغربية مع اليابان تقترح فرض ضريبة، فإن الدول المصدرة للنفط رفضت ذلك بشكل قاطع . ومن الأهمية بمكان ذكر بأن الدول الغربية والمتقدمة تفرض ضرائب على النفط في القوانين الداخلية، وتحقق مدخولاً يفوق جميع الدول المصدّرة للنفط، على سبيل المثال، وعبر الإحصائية الحديثة، كشفت بيانات منظمة الدول المصدرة للبترول "أوبك" أن مجموعة السبع الصناعية G٧ «الولايات المتحدة وكندا واليابان وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والمملكة المتحدة»، حصلت على إيرادات من الضرائب على النفط تفوق إيرادات ١٣ دولة مصدرة للنفط في أوبك «وهي السعودية والعراق والكويت، الإمارات، نيجيريا، أنجولا، الجزائر، فنزويلا، إيران، ليبيا، الجابون، كونغو، غينيا» .

ب- التنمية بين الدول المتقدمة والنامية وتلوث البيئة

كانت هناك جدلية كبيرة بين من هي الدول المسببة للتلوث، كما أن في هذه القمة دافعت الهند عن تطورها والتنمية، فهي لا تستطيع التقيد بمعايير الحفاظ على البيئة، بل ترى الهند الدول المتقدمة والغنية تستطيع ذلك مع مستوياتها العالية في التنمية .

ج- ولادة Cop كوب، هي اختصار «Conference of the Parties» أو

مؤتمر الأطراف، ويعد المؤتمر جزءاً من اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن التغير المناخي، وهي معاهدة دولية وقعتها معظم دول العالم عام ١٩٩٢ بهدف الحد من تأثير النشاط البشري على المناخ، وتعود بداية قمة المناخ إلى مسيرة المفاوضات الدولية لمكافحة التغير المناخي في قمة الأرض التي عقدت في ريو دي جانيرو عام ١٩٩٢، والتي أعقبها الدورة الأولى لقمة المناخ «Cop١» كوب١ في برلين عام ١٩٩٥، وصولاً إلى كوب٢٨ في مدينة دبي في نوفمبر ٢٠٢٣، والذي سنتناوله في المحور الثالث.

رابعًا: تطور التنمية المستدامة

لقد اعتمدت الجمعية العامة الوثيقة الختامية التالية لمؤتمر قمة الأمم المتحدة ٢٠١٥، التي تتضمن خطة التنمية المستدامة لعام ٢٠٣٠ :

١. القضاء على الفقر بجميع أشكاله في كل مكان.

٢. القضاء على الجوع وتوفير الأمن الغذائي والتغذية المحسّنة وتعزيز الزراعة المستدامة.

٣. ضمان تمتع الجميع بأنماط عيش صحية وبالرفاهية في جميع الأعمار.

٤. ضمان التعليم الجيد المنصف والشامل للجميع، وتعزيز فرص التعلّم مدى الحياة للجميع.

٥. تحقيق المساواة بين الجنسين وتمكين كل النساء والفتيات.

٦. ضمان توفر المياه وخدمات الصرف الصحي للجميع بإدارة مستدامة.

٧. ضمان حصول الجميع بتكلفة ميسورة على خدمات الطاقة الحديثة الموثوقة والمستدامة.

٨. تعزيز النمو الاقتصادي المطّرد والشامل للجميع والمستدام، وتوفير العمل اللائق للجميع.

٩. إقامة بنية تحتية قادرة على الصمود، وتحفيز التصنيع المستدام الشامل للجميع، وتشجيع الابتكار.

١٠. الحد من انعدام المساواة داخل البلدان وفيما بينها.

١١. جعل المدن والمستوطنات البشرية شاملة للجميع وآمنة وقادرة على الصمود ومستدامة.

١٢. ضمان وجود أنماط استهلاك وإنتاج مستدامة.

١٣. اتخاذ إجراءات عاجلة للتصدي لتغيّر المناخ وآثاره.

١٤. حفظ المحيطات والبحار والموارد البحرية واستخدامها على نحو مستدام لتحقيق التنمية المستدامة.

١٥. حماية النظم الإيكولوجية البرية وترميمها وتعزيز استخدامها على نحو مستدام، وإدارة الغابات على نحو مستدام، ومكافحة التصحر، وتدهور الأراضي، ووقف فقدان التنوع البيولوجي.

١٦. التشجيع على إقامة مجتمعات مسالمة لا يُهمّش فيها أحد من أجل تحقيق التنمية المستدامة، وإتاحة إمكانية وصول الجميع إلى العدالة، وبناء مؤسسات فعالة وخاضعة للمساءلة وشاملة للجميع على كافة المستويات.

١٧. تعزيز وسائل التنفيذ وتنشيط الشراكة العالمية من أجل تحقيق التنمية المستدامة.

المحور الثالث: الإنسان والطبيعة «الأطوار والكوارث والموارد الطبيعية»

هذا المحور يتناول كيف أن أطوار الإنسان وتحديدًا انتشار فئة كبار السن أثّرت على التنمية، كما نتطرق إلى حقيقة كون الكوارث الطبيعية تعدّ سببًا لانتهاكات جسيمة تقع على الإنسان، وأخيراً معضلة الموارد الطبيعية مع الإنسان.

أولا: ظاهرة كبار السن

عرف العالم بعد الحرب العالمية الثانية ظاهرة

”تتعدد وتتنوع الأزمات والكوارث، وترتبط فيما بينها، على سبيل المثال، الكوارث الطبيعية تمثل فترة زمنية قصيرة مخلفةً أزمات متعددة ومتداخلة تطّول فترتها الزمنية عن الكوارث كالفيضانات والزلازل، والتي تخلف وراءها دماراً في البنية الأساسية والمساكن وتشريد وموت واختفاء الناس، وهذا المثال يرتبط بالكوارث الطبيعية المناخية والجيولوجية، فهناك أيضاً الكوارث البيولوجية كالأوبئة والكوارث الكونية كالنيازك“

أُطلق عليهاBaby boomers فهذا المصطلح يشير إلى أولئك الذين ولدوا بعد الحرب العالمية الثانية حتى منتصف الستينيات من القرن الماضي، حيث ضخامة عدد المواليد من آباء شباب، وذلك بسبب الدعم الكبير في سياسات الحكومات، التي تكبدت خسائر بشرية هائلة مع الدمار في البنية التحتية جرّاء أكبر حرب شهدتها البشرية, لكن الأمر لا يقتصر على تلك الدول، بل جُلّ الدول بدأت تُطَور الخدمات الحكومية في الصحة، والتعليم، والاقتصاد والتنمية, ففي فترة الستينيات وفي الغرب تحديدًا والذي يشهد التقدم والنمو الاقتصادي وظاهرة Baby Boomers خرجت حالة ما بعد المادية Post Materialism، ويدور هذا المفهوم حول أن جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية عاش ونما في عصر الثورة المادية, حيث الوفرة في السلع والخدمات المادية، لذا في فترة الستينيات من القرن العشرين أصبح الكثير من المجتمعات الغربية تتجه نحو جوانب متعددة أهمها شؤون البيئة والجانب المعنوي الروحي والرغبة في التعبير عن الذات والإنجاز والمساواة بين الجنسين .

وعلى مسار العولمة والتطور في الصحة، أصبح العالم أقل طفولةً، فقد سجل عام ٢٠١٨ لأول مرة في التاريخ وعلى المستوى الدولي العالمي، أن زاد فيه عدد المسنين فوق سن ٦٥ عن عدد الأطفال دون الخامسة، وبحسب البيانات الواردة فمع حلول عام ٢٠٥٠ سيكون ١٦٪ من عدد سكان العالم (واحداً من كل ستة أفراد في العالم) أكبر من سن ٦٥ سنة . لذا ليس غريبًا بأن تضع منظمة الصحة العالمية اهتماماً بكبار السن, حيث أخرجت دليلاً لمعايير المدن والمجتمعات الصديقة للمسنين . Age-Friendly Cities and Communities، وفتحت AFCC مجالاً للتعاون بين الدول والشعوب والمنظمات والهيئات حول إيجاد وابتكار أفضل السبل والسياسات لفئة كبار السن, من تصميم المنازل ومعايير الطرق والدمج والمشاركة والعمل التطوعي وتوفر السلع والخدمات الصحية, وغيرها الكثير من الأمور المتعلقة بكبار السن. وفي إطار AFCC خرجت Dementia-friendly initiatives مبادرات صديقة للخرَف، مثلاً في المملكة المتحدة تم إنشاء «مجتمعات صديقة للخرف» (DFCs .

ثانياً: الكوارث الطبيعية والحروب الأهلية

تتعدد وتتنوع الأزمات والكوارث، وترتبط فيما بينها، على سبيل المثال، الكوارث الطبيعية تمثل فترة زمنية قصيرة مخلّفةً أزمات متعددة ومتداخلة تطول فترتها الزمنية عن الكوارث كالفيضانات والزلازل، والتي تخلف وراءها دماراً في البنية الأساسية والمساكن وتشريد وموت واختفاء الناس، وهذا المثال يرتبط بالكوارث الطبيعية المناخية والجيولوجية، فهناك أيضاً الكوارث البيولوجية كالأوبئة والكوارث الكونية كالنيازك، وهي تعتبر خارجةً عن الإرادة الفعلية البشرية، وعلى الجانب الآخر، هناك كوارث بفعل الإرادة البشرية من الأعمال الإرهابية وجرائم التخريب والحروب الدولية والأهلية إلى أحدث الأعمال المتعمدة كالهجوم على الأمن السيبراني. وتكمن أزمات أخرى ليست ناجمة عن عمل متعمد كالحرائق والحوادث المرورية الكبيرة والتسريب الإشعاعي وتلوث التربة. ومن الأهمية بمكان ذكر أن قوة الأزمات

تعتمد على عناصر متعددة، أهمها عنصر المفاجأة، وحجم الشريحة والقطاعات المتأثرة، وعمر الأزمة، والآليات والسياسات المستخدمة في مواجهة الأزمة، ومدى توفر إدارة وقيادة تجمع مختلف المؤسسات والقطاعات والمجتمع في مواجهة الأزمة واتخاذ وتطبيق القرارات الحاسمة . ومن الأمثلة المهمة عن أثر الكوارث على الإنسان، فهناك حاليًا تبعات زلازل المغرب وإعصار دانيال في ليبيا، والتي صاحبتها تحذيرات عن التجارة بالبشر، حيث مع فقدان مقومات الحياة والتشرد وفقدان الأسرة، يصبح الناجون من الكوارث الطبيعية عرضة لعصابات الإتجار بالبشر، نظراً لوضعهم المعيشي الهشّ وتشرّد الأسر ودمار المنازل وضعف الأداء الأمني الداخلي، ومن مؤشرات ذلك، صور وتسجيلات أخذت تنتشر على مواقع التواصل الاجتماعي من المناطق المنكوبة في المغرب، والتي احتوت أفعالاً أو عبارات تندرج تحت إطار التحرش أو الاستغلال الجنسي والإتجار بالبشر . والأمثلة كثيرة في ذلك، على سبيل المثال، في أغسطس/آب ٢٠٠٥، بعدما ضرب إعصار كاترينا ولاية لويزيانا الأمريكية، وقع بعض الناجين ضحايا للإتجار بالبشر .

جدير بالذكر بأن بعض الكوارث والأوبئة قد تقيد الحركة الدولية في التجارة والتواصل والاتصال، على سبيل المثال، حادثة بركان آيسلندا ٢٠١٠ شلّ حركة الملاحة الجوية الأوروبية لمدة بسيطة، وبدأ معه العالم يتحدث عن تزايد أهمية السفن، وكلنا شهدنا أحداث وتبعات فيروس كورونا كوفيد ١٩.

حقيقةً، إدارة الأزمات والكوارث أصبحت تحتاج إلى تعاون دولي من منطلقات الواقع الذي يعكس حقيقة بأن لا توجد دولة تستطيع الاعتماد على قدراتها في توفير حاجاتها الأساسية من سلع ومواد وخدمات متعددة ومختلفة، فالعالم بدولهِ وشعوبهِ وصناعاتهِ ومواردهِ يعيش في حلقات من الاعتماد المتبادل المتعدد والمتشعّب.

ثالثاً: الصراع على الموارد الطبيعية المتجددة وغير المتجددة

هذا الحقل طويل، ونكتفي فقط هنا بالتأكيد على أن الموارد الطبيعية المتجددة وغير المتجددة مازالت تمثل سببًا رئيسيًا للصراعات والتحالفات الدولية، إلى جانب كونها محددًا لقوة الدول وقدرتها على التطور وحماية مصالحها وأمنها.

المحور الرابع: قمة المناخ Cop٢٨ دبي

أولاً: ماهية Cop

Cop كوب، هي اختصار «Conference of the Parties» أو مؤتمر الأطراف، الذي يعتبر جزءًا من اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن التغير المناخي، وهي معاهدة دولية وقعتها معظم دول العالم عام ١٩٩٢ بهدف الحد من تأثير النشاط البشري على المناخ . وتعود بداية قمة المناخ إلى مسيرة المفاوضات الدولية لمكافحة التغير المناخي في قمة الأرض، التي عقدت في ريو دي جانيرو عام ١٩٩٢، والتي أعقبها الدورة الأولى لقمة المناخ «Cop١» كوب١ في برلين عام ١٩٩٥، ثم كوب٢ جنيف ١٩٩٦، ثم بروتوكول كيوتو كوب٣ باليابان عام ١٩٩٧، وإلى أمريكا الجنوبية حل كوب٤ في بيونس آيرس ١٩٩٨، وبعد الرجوع إلى ألمانيا في كوب ٥، تعددت المحطات من هولندا والمغرب والهند وكندا وكينيا حتى قطر وإندونيسيا ومصر وأخيرًا ليكون كوب ٢٨ في الإمارات بمدينة دبي في نوفمبر ٢٠٢٣، كل تلك المحطات تهدف إلى تحقيق إطار ملزم للدول الصناعية والنامية بتخفيض انبعاثات الغازات الدفيئة المسببة للاحتباس الحراري, والمخلفة لزيادة حرارة الأرض وحدوث الفيضانات والكوارث كالحرائق، ناهيك عن تلوث المياه والأرض والهواء .

ثانياً: Cop٢٨ دبي:

وصلت أهداف قمة الأرض في ريو دي جانيرو إلى محطة مدينة دبي بعد فترة ممتدة بين ١٩٩٢ حتى ٢٠٢٣، فقمة كوب ٢٨ تحمل آمالاً وتحديات كبيرة. وفي سياق التمهيد لمؤتمر المناخ العالمي كوب ٢٨ والذي تستضيفهُ دبي خلال الفترة من ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر حتى ١٢ كانون الأول /ديسمبر .

جرت اجتماعات تحضيرية للقمة في مدينة بون الألمانية، وعكست تلك التحضيرات مؤشرات بأن قمة دبي كوب٢٨ ستواجه

تحديات صعبة أهمها التالية:

١. إنشاء صندوق «الخسائر والأضرار» المناخية، ففي مؤتمر المناخ «كوب ٢٧» في شرم الشيخ، تم الاتفاق على إنشاء صندوق **«الخسائر والأضرار»** المناخية لدعم الدول الفقيرة المتضررة من تغير المناخ، وحقيقةً يعود مصطلح **«الأضرار والخسائر»** إلى عام ١٩٩١ حيث صاغهُ تحالف الدول الجزرية الصغيرة خلال مفاوضات المناخ في جنيف، مع اقتراح خطة تأمين ضد ارتفاع منسوب مياه البحر بما يشمل تحمل الدول الصناعية التكاليف، غير أنه لم يؤخذ هذا الأمر على محمل الجدّ إلا في عام ٢٠١٣ خلال قمة المناخ التاسعة عشرة في بولندا, حيث جرى إنشاء الآلية الدولية للخسائر والأضرار المرتبطة بآثار تغير المناخ بهدف مواجهة ومعالجة هذه القضية .

٢. سيشهد COP٢٨ أول تقييم عالمي لمراجعة التقدم الجماعي العالمي الذي تم إحرازه نحو تحقيق أهداف اتفاقية باريس لعام ٢٠١٥ للحد من الاحتباس الحراري .

٣. مسألة الوقود الأحفوري، لعلّ خروج ناشطين يدينون تعيين مسؤول نفطي إماراتي بارز رئيسًا لكوب٢٨، يجعل من مسألة الوقود الأحفوري مسألة محورية أصبحت تتزايد أهميتها .

٤. دولة الإمارات النفطية والفاعلة في العلاقات الدولية تحاول الاستثمار في الطاقة النظيفة عالميًا، حيث تستثمر الإمارات في الوقت الحالي ما يزيد عن ٥٠ مليار دولار بمشروعات الطاقة المتجددة في نحو ٧٠ دولة حول العالم، وتستعد إلى مضاعفة هذا الرقم بحلول عام ٢٠٣٠ ، وهذا الأمر يخفف من الاحتباس الحراري وتلوث البيئة، طبعًا هذه الاستثمارات ستشجع دولاً ومستثمرين وشركات وصناعات في الدخول إلى الطاقة النظيفة والاستثمار في التكنولوجيا التي لا تُصدر انبعاثات الكربون, ولعل أفضل الحلول المتوفرة اليوم هي استخدام المولدات النووية والعمل على التوسع في طاقة الشمس والرياح واستخدام البطاريات.

٥. ولكن حتى الطاقة النظيفة تحمل ملوثات ومواد غير متجددة مثل الليثيوم في البطاريات.

الخاتمة

مازال العالم لا يستطيع وقف ظاهرة الاحتباس الحراري وخفض مستويات التلوث، وذلك لأن الدول والأمم والشعوب تتزايد في استهلاك الطاقة الأحفورية وتعتمد على الصناعات ذات المداخن لتلبية حاجاتها المتزايدة، ناهيك على التزايد في عدد السكان، كما أن دول العالم باقية ومستمرة في الصراع على الموارد الطبيعية غير المتجددة كالنفط والغاز والليثيوم وغيرها، بل وقد اتجهت إلى أعالي البحار للبحث عن الطاقة الأحفورية، وحتى صناعات البطاريات اليوم المعتمدة على معدن الليثيوم غير المتجدد فتحت آفاقاً للصراع والتنافس الدولي على أماكن الليثيوم في أمريكا اللاتينية وأفغانستان وغيرها، وهي أفريقيا اليوم تعكس بوضوح صراعات دولية على مواردها الطبيعية.

يبدو بأن قمة كوب٢٨ في دبي ربما تحاول إيجاد شراكات وأطر دولية حكومية وغير حكومية، بل والإعلان عنها، بين دول وشركات ومؤسسات، في سبيل الاستثمار في الطاقة النظيفة حول العالم، وسوف نرى قريباً «في هذه القمة القادمة بنوفمبر٢٠٢٣» ماذا ستقدم لوقف حرارة الأرض والاحتباس الحراري والحد من الفقر والانتهاكات الجسيمة التي يتعرض لها الإنسان، وعلينا أن لا نغفل، بأن هناك دول وأمم تتوق للتطور والتقدم والأمن وحتى الاستقلال, قبل الحديث عن التلوث الناجم عن التطور السريع ذي السحب الكربونية.

المراجع:

- مصطفى النشار، «مدخل إلى فلسفة البيئة: المذاهب الإيكولوجية المعاصرة، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، يناير 2015، ص 137.
- نفسر المرجع، ص 26.
- نفس المرجع، ص 26.
- إيان ج. سيمونز، «البيئة والإنسان عبر العصور»، ترجمة: السيد محمد عثمان، الكويت، عالم المعرفة، العدد 222، الكويت، 1997، ص 16.
- آرنولد.ج. هايدنهايمر، هيوهيكلو، كارولين تيس أدامز، «السياسة العامة المقارنة: سياسات الخيار الاجتماعي في أمريكا وأوروبا واليابات، ترجمة أمل الشرقي، مراجعة د فاروق منصور، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 1999، ص 455.
- -- إيان ج. سيمونز، مرجع سابق، ص 72.
- القانون الاتحادي رقم «34» لسنة 1999 في شأن حماية البيئة وتنميتها. https://laws.uaecabinet.ae/ar/law/1146

University of OSLO, The Faculty of Law, ‹›Convention relative -
to the Preservation of Fauna and Flora in their Natural Stat,
-01-In force: 1936 ,08-11-Done at: London, Date enacted: 1933
https://l8.nu/qyrw ,‹›14

Paul Stephen Dempsey, “Compliance and Enforcement in -
International Law--Oil Pollution of the Marine Environment by
Ocean Vessels”, Northwestern Journal of international law,
.486-p481

https://scholarlycommons.law.northwestern.edu/cgi/
viewcontent.cgi?referer=&httpsredir=1&article=1176&conte
xt=njilb

https://www.ecolex.org/details/treaty/international-convention-
for-the-prevention-of-pollution-of-the-sea-by-oil-1954-as-
/amended-in-1962-and-1969-tre-000135

Journal on Environmental, policy and law in Latin America -
.114-and Caribbean, 1995, p 107

Mediterranean Action Plan Barcelne Convention, UN -
.Environment Programme, https://www.unep.org/unepmap/ar

A Report by the Plymouth Laboratory of the Marine Biological -
Association of the United Kingdom, ‹›Torrey Canyon Pollution
and Marine life›, Edited by J. E. Smith›, Cambridge university
.press 1968, https://l8.nu/qyt2

- سجل المعاهدات الدولية والاتفاقيات في البيئة الصادر عن برنامج الأمم المتحدة للبيئة، نيروبي وثيقة UNEP/GC.16/INF ص144-145.

Convention on the Conservation of Migratory Species of -
Wild Animals (CMS), Secretariat provided by the United
Nations Environment Programme (UNEP), https://www.
ascobans.org/sites/default/files/basic_page_documents/
cmsMembership_howTo.pdf

- سجل المعاهدات الدولية، مرجع سابق، ص 60.

- غسان الجندي، «الوضع القانوني للتحف التاريخية الموجودة في أعماق البحار، مجلة دراسات، الأردن، العدد الثالث 1995، ص 168-170.

-آرنولد.ج.هايدنهايمر، هيوهيكلو، كارولين تيس أدامز، مرجع سابق، ص467.

- مصطفى النشار، مرجع السابق، ص 467-468.

- نفس المرجع، ص 60.

- نفس المرجع، ص 61.

- المرجع نفسه، ص 61.

- المرجع نفسه، ص 107 — 109.

- الدكتورة رجاء وحيد دويدري، «البيئة: مفهومها العلمي المعاصر وعمقها الفكري التراثي» دار الفكر، دمشق، 2004، ص 429-452.

Nico Schrijver and Friedl Weiss, ‹› International Law and -
Sustainable Development Principles and Practice›, (Leiden/
.Boston: Martinus Nijhoff Publishers, 2004), p254

.Ibid, 255 -

- ماجد راغب الحلو، «قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة»، المعارف، الإسكندرية، 2002، ص20، ص23.

- طلال الصباح، «إيرادات ضرائب دول الـ G7 من النفط تفوق إيرادات أوبك .. أعلى من سعر بيع البرميل 240%»، 25 أكتوبر 2022، https:// l8.nu/qfLW

- ماجد راغب الحلو، «قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة»، المعارف، الإسكندرية، 2002، ص20-23.

- الجمعية العامة للأمم المتحدة، الدورة السبعون: البندان ١٥ و ١١٦ من جدول الأعمال قرار اتخذته الجمعية العامة في ٢٥ أيلول/سبتمبر 2015 ، https://l8.nu/qfMX

:See both -

THE Invertopedia Team, Baby Boomer: Definition, Age Range, -
Characteristics, and Impact, https://www.investopedia.com/
.terms/b/baby_boomer.asp

Baby Boomers, https://www.history.com/topics/1960s/baby- -
.boomers-1#section_6

- «العولمة المفاهيم الأساسية»، تحرير أنابيل موي وبيتسي إيفانز، ترجمة آسيا دسوقي، مراجعة سمير كرم وزينب ساق الله، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2009، ص 241.

- الأمم المتحدة، https://www.un.org/ar/global-issues/ageing

World health organization, National programs for age-friendly -
.cities and communities: a guide “AFCC”, https://l8.nu/t9M8

Judith A. Davey, “Summery of Age-Friendly Cities and -
Communities: World experience and pointers for New Zealand”,
February 2017, p 9. https://officeforseniors.govt.nz/assets/
documents/our-work/age-friendly/Age-friendly-Cities-and-
Communities-world-experience-and-pointers-for-New-Zealand-
summary-.pdf

-الأزمات والكوارث: الإدارة والمنظمة الدولية، 9 نوفمبر 2022، https://2u. pw/obNobID

-كيف يصبح الناجون من الكوارث الطبيعية فريسة للاتجار بالبشر ؟، 14 سبتمبر 2023، BBC. https://2u.pw/gHnM8jX

- المرجع السابق.

- لورانس بواسون دي شلزورن، اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية المتعلقة بتغير المناخ، كلية الحقوق، جامعة جنيف، https://2u.pw/NgSdjX0

85%D8%A9-%82%D9%https://www.dw.com/ar/%D9 -
86%D8%A7%D8%A%85%D9%84%D9%%D8%A7%D9
E/t-18900595

- كوب 28 — نتائج غير مشجعة في المفاوضات التمهيدية في بون، 15.06.2023، https://2u.pw/o6lzJMU ، DW

- المرجع السابق.

- نفس المرجع.

- قمة المناخ كوب 28.. الإمارات تستثمر إمكاناتها لتنفيذ التعهدات العالمية، https://2u.pw/UTFc5br

الكون المتكامل

عواس علي

بداية عزيزي القارئ قبل أن ترهق نفسك في هذا البحث؛ لا بُدَّ أن تكون لديك قاعدة في معرفة الفيزياء والكيمياء. فالفيزياء تعتبر أساس العلوم الكونية؛ تقوم على دراسة مكونات الكون وكيفية عمل هذا الكون المترامي الأطراف، ويضاف لها الكيمياء التي تبحث في تركيب المواد الكونية وتحاليل تلك المواد. والجانب الأهم في بحثنا يعتمد على فيزياء الميكانيك.

يقال إن دكتوراً في مادة فيزياء الميكانيك دخل على طلابه في أول فصل دراسي لهم في الجامعة وقال لهم: لدي خبران لكم، الأول محزن والثاني مفرح. أما الأول؛ فأنكم لن تفهموا شيئا من مادة فيزياء الميكانيك مهما بذلتم من جهد. والثاني لا تخافوا من الاختبار؛ لأنني أنا مثلكم لا أفهم من فيزياء الميكانيك أي شيء.

ولابد من التنويه لأنواع من العلوم التي تعتبر بالنسبة لك ولي، عبارة عن خُرافة وأوهام وطلاسم. والحقيقة أن بعض تلك العلوم هي حقيقة وواقع موجود، ولكن يتم إخفاؤها عن العالم، ويعمل بها ضمن نطاق محدد لصالح دول محدودة جداً، هي موجودة ضمن مكان مغلق تماماً أمام جميع الناس باستثناء أفراد محدودين يتمتعون بقدرة معينة.

ويُقال بأن الفلسفة أم العلوم، لماذا؟ لأنها كانت أول العلوم التي بدأت بالسؤال لماذا، وكيف، ودرست الواقع الكائن، وما يجب أن يكون.

ممَّ يتألف الكون؟

في الحقيقة أول من تنبه لموضوع الكون وأصله هو الفيلسوف «طاليس» عام ٧٠٠ ق.م، وهو الذي رد أصل الاشياء المتعددة لمنبت واحد، وبأن كل ما في الكون يعود لأصل واحد، أي أن هذا الكون تكوَّنَ من بنية وحيدة وسرعان ما تمدد وما زال يتمدد.

قال العالم «ستيفن هوكينغ» عن البنية الوحيدة للكون وأطلق عليها اسم «بوزون هيغز»، وهو عبارة عن جسيم افتراضي يندمج مع جسيمات أخرى فينتج المادة، أي كحالة التلقيح التي تحصل في الطبيعة.

ووجد العلماء ثلاثة أنواع من المادة المتكونة من الـ»بوزن هيغز»، وهي:

١ – المادة المظلمة:

وهي المادة التي ساهمت في ظهور الكون. وهي مادة مبهمة تماماً وليس فيها إشعاع ولا ضوء، وسبقت ظهور الطاقة المظلمة.

٢ – الطاقة المظلمة:

وهي الطاقة التي وضعت النظام الكوني في اندفاع الأجسام باتجاهات محددة، ووفق قانون محدد.

٣ – المادة الطبيعية:

وهي المادة المؤلفة من إلكترونات ونترونات، أي من الذرات.

والحقيقة هذه النظرية هي مجرد فرضية ولا ترتقي إلى مستوى النظرية، وليست مقولة علمية للحد الفاصل بالتفكير اليقيني، فهي مجرد افتراض. ولكن ما يهمنا هو ما توصل إليه العلماء بشكل يقيني من خلال التجربة والملاحظة، وهو «الفوتون» أو «الكوانتم» الذي يعتبر أصغر جزيء في الكون ويدخل في تركيب الكون كله؛ أي أن الكون برمته يتألف من هذه الجزيئات، وعندما نقول الكون نقصد كل ما فيه من مادة وضوء وطاقة وإنسان وحيوان.

ومن خصائص هذا الجزيء أنه يتصرف بعقلانية، أي يتصرف بطريقة محترمة وليست جنونية، وذلك في حركته وتحوله وتنافسه، أي أنه يمتلك عقلاً يجعله يعمل ضمن نظام محدد نظام محترم وعقلاني ولا يسيء في تصرفه.

ولنتطرق لبعض الخصائص لهذا الجزيء الذي يدعى بـ «الفوتون» أو «الكوانتم» الكائن العقلاني من خلال تجارب أجراها العلماء على هذا الجزيء.

جاء العلماء بعدد محدود من الفوتونات، عشرين فوتوناً، بالمقابل وضعوا ثقباً لا يتسع سوى لعشرة فوتونات، وأطلقوا العشرين فوتون باتجاه ذلك الثقب، كانت النتيجة أن الفوتونات

العشرين تصرفت بإنسانية وعقلانية ولم يتم حجز المكان من قبل عشر فوتونات، بل كانت الفوتونات العشرين تتناوب على هذا الثقب بدخولها وخروجها أي أنها أعقل من الإنسان وأقل أنانية منه. ولو أجرينا تلك التجربة على الإنسان؛ لوجدنا أن العشرة الأوائل احتلوا المكان ولم يفسحوا مجالا للعشرة الباقية. أليس من حقنا أن نقول إن الفوتونات أكثر إنسانية من الإنسان وأكثر عقلانية منه.

من تلك الخصائص أيضاً أنه لدى الفوتون القدرة للتغير من حالة لحالة أخرى من خلال المراقبة، وذلك ما أطلق عليه قانون «التغير اللحظي عند الفوتون»؛ أو «نظرية الانهيار الموجي». وجد العلماء بأن الفوتون يتغير من الحالة الموجية إلى الحالة المادية من خلال المراقبة، أي أنه يعي ويدرك ويحس بالمراقبة التي تُجرى عليه من قبل البشر، وهذا ما جعل العلماء يرون بأن رقابتنا للأشياء أو الكون تترك أثرها فيه، وقال في ذلك العالم «ستيفن هوكينغ» (التفاعل عبر المراقبة يلعب دوراً فعالاً من خلال مراقبتنا له، فهو يتبادل التأثير بيننا وبين الكون من خلال المراقبة)، أي أن ما تراه أمامك مادة قد تتحول لموجة لو شُحت بنظرك عنه، وهذه الخاصية في الكوانتم جعلت العلماء يبحرون في التفكير، منها الوعي الكمي الناتج عن ميكانيك الكم، والتي بحث فيها العالم «شتوغر»، أي درس تأثير الوعي على الكون وأطلق عليه اسم «الوعي الكمي» الذي يعمل عكس المنطق تماماً، أي ينجز عملية الرصد التي نقوم بها ويدرك تأثيرها على الأشياء أو على الكون برمته. وما يدفعهم إلى القول هو «إن كل الأشياء حتى الإنسان موجود في إدراكنا أو وعينا فقط».

ولو قضينا النظر عنه فهو غير موجود على الشاكلة التي نحن نراها، لماذا؟ لأن الكون كله يتألف أو يتركب من الفوتونات، وحتى نحن كبشر أجسامنا تتألف من الفوتونات والتي تعتبر أصغر مكون في الكون حتى الآن، وهذا المكون المدعو «فوتون». ووجد العلماء أنه يغير من خاصيته

"ما توصل إليه العلماء بشكل يقيني، ومن خلال التجربة والملاحظة، أن "الفوتون" أو "الكوانتم" يعتبر أصغر جزيء في الكون ويدخل في تركيب الكون كله؛ أي أن الكون برمته يتألف من هذه الجزيئات، وعندما نقول الكون نقصد كل ما فيه من مادة وضوء وطاقة وإنسان وحيوان"

الموجية إلى خاصة جديدة وهي المادة، أي يتحول من موجة غير ملموسة إلى مادة ملموسة من خلال مراقبتنا له، وبالتالي أن ما نراه أمامنا ونحن نراقبه نجده في حالته، ولكن لو ابتعدنا عن مراقبته؛ فإنه سيتحول إلى خاصية ثانية، إلى موجات تسبح في كل مكان ومنتشرة في كل مكان، وبالتالي فإن الأشياء التي نراقبها ونراها أمامنا هي غير الأشياء التي نشيح بنظرنا عنها، وهذه حقيقة مطلقة، أي أن الأشياء التي نراها لأول مرة تأخذ لها طابعاً معيناً، وتحافظ عليه خلال مراقبتنا لها ورؤيتنا لها، ولكن في الواقع لو بعدنا بنظرنا عنها؛ فإنها ستكون على حالة أخرى، وتكون منتشرة في كل مكان، ومنها بعض الأشخاص نراهم لأول مرة نشعر بأننا رأيناهم من قبل، والحقيقة أننا رأيناهم من قبل، ولكن عندما راقبناهم وتمعنا فيهم تغير فيهم شيء بسيط.

والاسوأ من ذلك أن العلماء يجدون بأن كل ما في الكون هو عبارة عن أشياء مرسومة في وعينا لها، وهي ليست إلا عبارة عن أشياء يتم بثها لنا

عبر وعي كلي للكون في مكان ما، مازال مجهولاً للبشر، أي أن ما نراه أمامنا وندركه هو غير الذي لا نراه، ويمكن أن يتغير من الحالة المادية للحالة الموجية من خلال مراقبتنا له ويغير من خواصه. وتغير الأشياء لخاصيتها يجده العلماء بأنه عبارة عن خاصية تكمن في وعينا فقط، ويمكن أن نغير من خاصية ذلك الشيء من خلال وعينا وإدراكنا له. تعال لنرى الأشخاص الذين يسيرون فوق النار حفاة، ولا يتأثرون بخاصية النار الحارقة، ألا يعني أنهم استطاعوا أن يغيروا من خاصية النار في وعيهم؟ وإلا لكانت أحرقتهم، أي أن الأشياء ربما موجودة في وعينا فقط، ولدينا القدرة على التحكم بخاصيتها من خلال مراقبتنا لها، فالفوتون عندما نراقبه يتحول لمادة، وحين نشيح بنظرنا عنه يتحول لموجة متناثرة في كل مكان.

وهناك نظريات يصعب الخوض فيها، كنظرية تأثير الزمان والمكان في وعينا وإدراكنا للأشياء، ونظرية الكون الدائم التمدد، هناك أمور عدة لا نريد الخوض فيها، لأنها تعتبر بالنسبة لنا ضرب من ضروب الجنون.

ومن خواص الفوتون أنه متشابك مع جزيئاته بشكل عقلاني، أي أنه مدمج معها بالوعي العقلاني. وجاءت هذه الخاصية من تجربة **«الشق المزدوج»** التي قام بها العلماء على الفوتون أثناء تجزئته، فكل جزء منه كان يدور بشكل مغزلي عكس الجزء الآخر، وأثناء تحريض أحد الأجزاء؛ لوحظ أن الجزء الآخر غيَّر من حركته المغزلية بعكس الاتجاه الذي كان عليه. وذهب العلماء إلى أبعد من ذلك؛ فقد قاموا بإحداث تباعد بين الجزأين لمسافات تمتد لآلاف الكيلو مترات، وأعادوا التجربة على تحريض أحد الأجزاء ليغير حركته المغزلية، كانت النتيجة هي ذاتها، فقد غيّر الجزء الآخر حركته المغزلية في لحظة تتجاوز الزمن. والذي حيَّر العلماء في ذلك هو معرفة الشيء الذي نقل الأوامر من جزيء لآخر بهذه السرعة عبر الفضاء؟ وما هي المادة التي تم النقل بواسطتها؟ وهذا ما دفع العلماء للتوصل إلى خاصية **«الكون المتشابكة»** وأن الكون يعمل وفق عقلانية من أصغر جزيء فيه إلى أكبر جرم سماوي، بناء على خاصية «التشابك العقلاني» لدى «الفوتون».

كان العلماء يرون بأن الفوتون لا يتشابك مع فوتون آخر، وبالتالي هو قابل للانشطار أو التجزئة ويبقَ محافظاً على التشابك مع جزئه، ولكن في آخر المطاف توصل العلماء بأن بعض الأنواع من الفوتونات يمكن لها أن تتشابك مع عدد آخر من الفوتونات حتى الخمسة، وهذا قادهم إلى اكتشاف ما ندعوه بـ **«وهم التخاطر أو التأمل»**، وبأن بعض الأشخاص لديهم القدرة على التشابك مع بعض الأشخاص في الوعي ونقل ما يريدونه من مشاعر كالفرح والحزن، إلى الطرف الآخر المتشابكين معه، كما هي حال بعض الأنواع من الفوتونات.

لماذا نشعر بفرح أو حزن شخص ما؟ نشعر بحبه وكرهه لنا، تلك الأمور ليست هي مصادفة أو حظ، بل هي عبارة عن قوانين تعمل وفق عقلانية بموجب قانون **«التشابك الكوني»**.

أما الأصعب من كل تلك الخصائص؛ فهو قانون **«السببية الرجعية»**، وهو يعني أن المستقبل يؤثر في الماضي، وكلنا يعرف بأن الزمن هو ماض وحاضر ومستقبل ولا يمكن أن يعود الزمان إلى الوراء. تم التوصل إلى أن الحاضر يؤثر في الماضي ويغيره عبر تجربة تم إجراؤها على الكوانتم. ولتبسيط التجربة سنعطي مثالاً على ذلك. تم تجزئة كوانتم إلى جزيئين وقلنا سابقاً إن الكوانتم متشابك مع جزيئاته وأي تغير في جزيء سيتم التغير اللحظي على الجزيء الآخر عبر قانون **«التشابك الكمي»**، ومن خلال ما ندعوه باللا زمان، ومهما كانت المسافة بينهما، كانت التجربة كما يلي: تم إطلاق جزيئين الأول قبل الثاني ولمسافة ولنقل عشرة أمتار، وتم مراقبته، ونحن نعلم أن مراقبة الجزيء تجعله يغير من خاصته الموجية إلى المادية، واصطدم الجزيء بالحاجز فتحول إلى جزيء يدور بشكل مغزلي على اليمين، وبعده فوراً تم إطلاق الجزيء الثاني ولمسافة خمسة امتار فاصطدم بالحاجز، ومن خلال المراقبة تحول لمادة ووجد أنه يدور على

اليمين، فما كان من الجزيء الذي سبقه إلا أن غير حركته إلى اليسار أي عاد إلى الماضي الذي كان عليه قبل أن يتحول إلى مادة.

ونورد مثالاً مبسطاً آخراً؛ هناك شخصان يتأثران بحالة بعضهم البعض، الأول سار قبل الثاني بخمسمئة متر ووصل إلى النهر وسبح بملابسه التي حتماً ستتبلل بالماء، والثاني المتأخر عنه بمسافة خمسمئة متر جلس في مكانه وراح ينزع ملابسه ويتعرى، ويرقص، فوجد العلماء بأن الثاني عاد إلى حالته، لباسه الجاف، وإلى المكان المساوي لمكان الرجل الراقص، أي أنه عاد بالزمن إلى الوراء وغيّر من حالته المستقبلية وغير ماضيه أيضاً، أي أن المستقبل يؤثر في الماضي ويغيره وسمي ذلك بـ «**القرار الرجعي**» أي القرار الذي اتخذه الجزيء عاد به إلى تغير ماضيه برمته.

وربما الأشياء التي نبحث عنها ونريدها هي الأخرى تدرك ذلك، فنجدها تختفي عنا ونبذل مجهوداً للعثور عليها. وقال العلماء بأن الإلحاح في طلب الذكريات يزيدها غموضاً، لماذا؟ ألا يعني بأن تلك الذكريات الموجودة في وعينا تعي ذلك فتختفي من وعينا لحين كف النظر عنها، فنجدها تعود لنا بكل سهولة وبساطة.

ما هي حقيقة وجودنا البشري؟

سنبدأ من مقولة الدكتور «طوني أبو ناضر»، حيث يقول «**الإنسان كائن كوني، أي أن الوظائف الفيزيولوجية البشرية تعمل بشكل مشابه تماماً مع القانون الطبيعي الميسر للكون بأسره**». وحسب مقولة الدكتور «طوني أبو ناضر» يمكن أن نقول:

إن الكون متكامل وليس الإنسان إلا جزء منه، والتركيبة الفيزيولوجية للإنسان ليست إلا جزءاً من تركيبة الكون برمته.

فالإنسان كائن بشري يقف بين العوالم المتداخلة والمتباينة بشكل نسبي، فهو كون هائل الاتساع غير مدرك بالنسبة للباكتيريا أو الخلية التي

> **لطالما كل ما في الكون يتغير ويتبدل من حالة إلى حالة أخرى كما في الفوتونات؛ فإن الطاقة أيضاً متغيرة من حالة لحالة أخرى، من السالب للموجب، ومن الموجب للسالب، وهي دائمة التغير، ونحن الذي نعكس تلك الطاقة في وعينا الباطن. فكل المشاعر والأحاسيس هي عبارة عن طاقة تبث حسب الحالة التي نشعر بها في عقلنا البطن.**

تعيش في جسده. وهو جزيء غير مدرك بالنسبة للكون وما بعد الكون.

وهناك أدلة على أن الخارطة التي تعمل بها النواقل العصبية في خلايا الإنسان، فثبت أن تلك الخلية هي الأخرى تأكل وتشرب وتتنفس كما هو الإنسان.. الخ. وذلك برهان على أنها تتطابق بقوانينها مع الخارطة الكونية التي يعمل وفقاً لها الكون المتكامل، والذي هو الآخر يعمل وفق عقلانية الكوانتم، وهذا يوصلنا إلى «فيثاغورس» ونظريته عن «التماثل والانسجام الكوني» (الهارموني) المشابه لمعزوفة متقنة تصدر عن قيثارة ذات ترابط رياضي وتكامل هندسي ما بين أوتارها وهيكلها.

الكون يعمل وفق نظام، والنظام لا يوجد بدون عقل، أي أن أصغر جزء في الكون وأكبر جزء فيه يعمل وفق عقلانية.

وهنا تبحث الدراسات الكونية عن كل ما هو مادي وروحي مادي أو معنوي، فالعواطف ليست

”كل ما في الكون له صفات ذكورية وأخرى أنثوية، أي ذو قطبين سالب وموجب، ويحدث التجاذب بينهما حسب الحاجة الكونية او الطبيعة الكونية، حتى في الطاقات هناك طاقة روحية وعقلية وسلبية وإيجابية، وربما هذا القانون هو الأقرب لقانون القطبية. وهناك أنواع من القوانين التي تعمل وفقها فيزيولوجية الإنسان، منها ما هو مُدرك ومنها ما هو غير مُدرك كما هو الكون“

بعيدة عن الدراسة والأحلام والتخاطر والتأمل والجوع والخوف والحرب والسلم والحزن والخير والشر. والإلكترونات والنترونات والفوتونات كل تلك هي أشياء مادية أو طاقية، وهي تعمل وفق قوانين كونية متناسقة مع الكون برمته ولا يمكن فصلها عن الكون وقوانينه.

وحتى الآن توصل العلماء إلى اثني عشر قانون، يُعتقد بأنها تتحكم في الكون برمته، وهي قوانين عرفها المصريون القدامى والهنود، ومنها قانون الجاذبية لـ «نيوتن» والقوانين الثلاثة للحركة وقوانين العرض والطلب.

١ – قانون الوحدانية:

وهو القانون الذي برهن على وحدانية أصل الكون وقوانينه، أي يربط بين الأشياء في الكون، أي أن الكون متصل ببعضه البعض في جميع مكوناته، ويمكن أن يتشابك أي مكون مع مكون آخر بعقلانية.

٢ – قانون الاهتزاز:

وهو القانون الذي يتمحور حوله الكون، أي أن جميع الأشياء في الكون تهتز بترددات معينة، بكل خواصها سواء مادية أو معنوية «موجية» من الأحجار للعواطف والرغبات والأصوات، كلها تتردد وفق اهتزازات معينة، كما هي القلوب حين تنبض بشكل مفاجئ فإنها تُصدر اهتزازات معينة باتجاه أشخاص معينين حسب الحالة العاطفية، وهو ما قد يقودنا إلى قانون «التخاطر أو التأمل».

٣ – قانون المراسلات:

وهو قانون الانسجام ما بين العالم الروحي والمادي، أي التبادل ما بين الوعي واللا وعي، وأن واقعنا ليس إلا هو انعكاس لما هو في داخلنا، ويأتي ذلك من خلال الواقع المعكوس بداخلنا وشعورنا به، فأنت تخاف من السير فوق النار؛ لأنك تدرك خواصها الحارقة المُخزَّنة في وعيك، ولكن غيرك لا يتأثر بها لأنها غيَّر من خاصيتها في وعيه الباطني، فكل ما يدور في داخلنا ينعكس على الواقع كالخوف أو الشعور بالراحة من بعض الأشخاص أو المواد أو الحالات.

٤ – قانون الجذب:

وهو القانون الذي يقودنا إلى أن وعينا وإدراكنا يؤثر في الأشياء من حولنا ويحركها، أي يجذبها لنا أو يباعدها عنا في كافة حالاتها المادية أو المعنوية «الموجية»، حتى ظهور الأشخاص في حياتنا ناتج عن ذلك القانون، فأنت عندما تبحث عن شخص أو أي شيء؛ يجب أن يكون لديك اليقين التام بأنك ستجده، وإلا لن تجده ما دمت غير مقتنع بوجوده، وقيل عن ذلك القانون إنه يعمل وفق أنواع من الطاقة، الطاقة السلبية والطاقة الإيجابية.

٥ – قانون العمل الملهم:

وهذا القانون هو قانون مرادف لقانون الجذب في

تحقيق الرغبات والطموحات، فما نرغب به أو نطمح به لن يأتيك زاحفاً، فهو بحاجة لمجهود، فكل قانون يحتاج لمجهود لتفعيله أو كسره أي تجاوز خاصيته. فأصل قانون الجذب هو بُعدُ الأشياء عنك، وهو يحتاج إلى مجهود لكسر ذلك القانون الخاص بالأشياء وجذبها لك. هذا القانون أيضاً يجعلنا نتقرّب من نظرية **«الوعي الكمي»**، أي أن الأشياء موجودة في وعينا وإدراكنا لها، فهي تنجذب لنا وتنفر منّا حسب رغباتنا الباطنية، أي في الوعي الباطني.

٦ – قانون التحول الدائم للطاقة:

لطالما كل ما في الكون يتغير ويتبدل من حالة إلى حالة أخرى كما في الفوتونات؛ فإن الطاقة أيضاً متغيرة من حالة لحالة أخرى، من السالب للموجب، ومن الموجب للسالب، وهي دائمة التغير، ونحن الذي نعكس تلك الطاقة في وعينا الباطن. فكل المشاعر والأحاسيس هي عبارة عن طاقة تبث حسب الحالة التي نشعر بها في عقلنا الباطن، وربما الكل يعرف بأن العقل الباطني هو مجموعة المُدركات في الواقع الذي نراه ونحسه وينعكس، فبعضها يظهر وبعضها نكبتها في أعماق الوعي الباطني، وربما يشكل لنا عقدة مخفية تنعكس بشكل لا شعوري على أحاسيسنا على شكل طاقة.

٧ – قانون السبب والنتيجة:

ربما هو من القوانين التي لا تخفى على أحد، أي أن لكل سبب نتيجة مؤكدة، فلا وجود للصدف في قانون الكون أو ضربة الحظ، فكل شيء هو عبارة عن فعل وردة فعل لذلك الشيء، وما يُدعى بالحظ ما هو إلا عبارة عن جهلنا ببعض القوانين الكونية.

٨ – قانون التعويض:

وهو القانون الذي يؤكد على أن لأي فعل مهما كان صغيراً أثر يتركه في الكون الذي نحن جزء منه، فأي عمل أو فعل لا بُدَّ وأن ينعكس أثره علينا سواءً سلباً أو إيجاباً، وذلك بالتفاعل مع قانون السبب والنتيجة وقانون الجذب يلعب دوره هنا، فما نريده إيجابياً سيتحقق بشكل إيجابي بشرط أن تكون قناعتنا بذلك وحدسنا لا يدخله أي شك حتى لو كان واحد بالمئة.

٩ – قانون النسبية:

ويعتبر هذا القانون هو قانون القناعة التي تولد السعادة، أي قناعتنا بما نملك هو سبب سعادتنا. فالشيء الذي نملكه، ومهما كان كثيراً وبدون قناعة؛ فإنه يجعلنا نفقد السعادة، ومهما كان قليلاً مع القناعة؛ فإنه يجعلنا سعداء، والسبب الأساسي في انعدام القناعة هو دخولنا في عالم المقارنة مع البعض الذين يملكون الأكثر أو الأجمل، يجعلنا نفقد السعادة، فالسعادة تكمن في تقدير وتقديس ما نملكه في الكم والكيف.

١٠ – قانون القطبية:

يجب أن نعلم لكل قانون في الكون قطبان، سالب وموجب، أي قطب ضار وقطب نافع، وكل القوانين الكونية تم تركيبها على أساس النفع، وكلها متناغمة مع بعضها البعض، وأي تلاعب في هذه القوانين؛ من المؤكد ستنتج عنه سلبية، وتلك السلبية مدمرة، جميع السموم في الكون في حدها الذي يحتاجها الجسم تكون نافعة، ولكن لو زادت عن كميتها المطلوبة ستؤدي إلى الهلاك، الجوع هو قانون خاص بحاجة الجسم، ولكن لو وقفنا في وجه هذا القانون حتماً هو الآخر سيؤدي إلى الهلاك، قانون حركة الذرة قانون مستديم؛ ولكن التلاعب به سيخرجه إلى القطب السالب وهو الانفجار النووي المدمر، ونلاحظ بعض الأفعال الغريبة من الطبيعة، وتلك الافعال ما هي إلا التلاعب بقوانينها في أقطابها الموجبة وتحويلها لأقطابها السالبة المدمرة، أي أن التلاعب بالقوانين الكونية نتيجته الحتمية الهلاك والدمار، وخاصة تلك القوانين المتعلقة بالتوازن البيئي.

”معهد ماساشوستس، هو أحد الفروع الموجودة في جامعة "كامبريدج" لدراسات علوم الدماغ والأعصاب والفلك وعلم الفضاء في الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا المعهد ما زال مخفياً على عدد غير محدود من البشر، كما أن البرامج وطرق التدريس فيه أيضاً مخفية على العالم، وكل ما عُرِف عن هذا المعهد هو دراسة الطاقة المتجددة عند الإنسان“

١١ – قانون الإيقاع:

أي أن كل ما في الكون يعمل وفق إيقاع معين، وحتى ما بداخلنا من عواطف تعمل وفق قانون متناغم وإيقاع كوني وهي جزء من هذا الكون، ويمكن من خلال هذا القانون التعرف على إيقاعنا الداخلي والتعامل معه بشكل إيجابي بدل محاربته وكبته في الباطن والوقوع في عقدة ترتد لعقلنا الباطن وتحدث ضرراً في حياتنا على المدى الطويل، أي التعامل مع الإيقاعات العاطفية والعقلية بشكل إيجابي، ومهما كانت دوافعها، وهو ما يؤدي إلى إقناع تلك العواطف بطريقة عقلانية والتعامل معها بالشكل الذي لا يجعلها عقدة مخزَّنة في الباطن.

١٢ – قانون النوع الاجتماعي:

كل ما في الكون له صفات ذكورية وأخرى أنثوية، أي ذو قطبين سالب وموجب، ويحدث التجاذب بينهما حسب الحاجة الكونية او الطبيعة الكونية، حتى في الطاقات هناك طاقة روحية وعقلية وسلبية وإيجابية، وربما هذا القانون هو الأقرب لقانون القطبية.

هناك أنواع من القوانين التي تعمل وفقها فيزيولوجية الإنسان، منها ما هو مُدرَك ومنها ما هو غير مُدرَك كما هو الكون، وهناك قوانين ندركها وهناك قوانين ما زالت غير مدركة ومجهولة. كما أن هناك قوانين تمت السيطرة عليها والتحكم بخواصها كقانون الجاذبية التي استطاع الإنسان النفاذ منها، وهناك قوانين ما زالت مستعصية على الإنسان ولم يستطع التحكم بها.

وهناك قوانين تحكم جميع تصرفات الإنسان، وبعض منها تم التعامل معها بشكل إيجابي وأضحت تسير وفق رتيبة معينة طبقاً لقطبية القانون الإيجابية، والبعض منها تم التعامل معها بشكل سلبي، ليغدو القطبية السالبة، ولأسباب تكمن في طبيعة الشخص الذي هو صورة عن المجتمع والقيم الاجتماعية التي تتفاوت من مجتمع إلى آخر، ويمكن إخفاؤه في العقل الباطن، وهذا ما يدعى بـ»العقد النفسية». ومهما كانت تلك الأفعال الخارجة عن قوانين طبيعة الإنسان؛ فإنها تولّد أثراً سلبياً في سلوكنا بالتعامل مع تلك القوانين بطريقة ما، وبالتالي الوصول للقطبية السالبة لتلك القوانين. وهنا نعود إلى العالم «كارل يونغ» في بناء الشخصية من خلال البيئة الاجتماعية وحسب طبيعة كل شخص، فهناك الشخصية التي تتعلم الحفاظ على القيم الاجتماعية بكل مفاهيمها، عبر الضغط الدائم على القوانين الطبيعية للإنسان في قوانين فيزيولوجية الطبيعة الإنسانية، بعضهم ينسجم معها بأريحية ويبدي انفتاحاً عليها، ويتعامل مع تلك القيم بكل حكمة، فيما البعض الآخر يضغطها؛ فتنتج عنها شخصية انطوائية غير منبسطة تحمل في وعيها الباطني مئات العقد التي تُظهِر الجانب القطبي السلبي لقانون تلك الشخصية، وهو الشر بدل الخير، ويطلق على تلك الطبيعة

السالبة والموجبة لكل قانون بـ»قانون كارما».

أي أن هناك قانون لكل فعل مهما كان نوعه، ولكل قانون أثر سلبي وإيجابي، وهذا ما يُدعى بـ»قانون كارما». وربما يتحدث هذا القانون بالدرجة الأولى حول ما ندعوه بالقضاء والقدر. فالحقيقة العلمية أثبتت بانتفاء ما ندعوه قضاء وقدر، وحتى الرسول «ص « نوه عن ذلك في حديثه الشريف حين قال «اعقل وتوكّل». فلو نُمتَ في مكان تكثر فيه الضباع والذئاب؛ من المؤكد أنك تعرض نفسك لقانون الطبيعة الحتمي وهو الخطر والفناء، ولكن لو نمت في مكان أنت تعلم علم اليقين بأنه خال من الوحوش؛ من المؤكد بأنك في مأمن من الخطر. فالقضاء والقدر هو تفسير للجانب السلبي لأي قانون طبيعي أنت تقف بالقرب منه وتعلم سلبيته، وربما تلك القواعد الطبيعية في بعض القوانين هي نسبية، فما هو خيرٌ لك، ربما هو شَرٌّ لغيرك في الطبيعة، والعكس صحيح، ما تعتبره فناء لحصانك؛ فهو غذاء للوحوش، وبالتالي فهو خيرٌ لها، ولكنه بالنسبة لك هو شَرٌّ مطلق.

بعض العلوم المخفية عن البشرية:

وهي من أنواع العلوم التي تعتمد بالدرجة الأولى على نظرية «أينشتاين» في «الكم الفيزيائي» و»نظرية التشابك» لدى خاصية الكوانتم أو الفوتون.

١ – علم التأمّل التجاوزي:

ظهر هذا العلم على يد العالم الهندي «مهاريشي ماهش»، ويقصد به الوصول إلى الوعي الصافي والنقي من كل العوالق، والوصول للوعي الصافي عادة، وهو يتمثل بتجاوز اللا وعي أو الوعي الباطني الذي يحتوي على العقد النفسية. وحالما يصل الإنسان إلى الوعي الصافي؛ فإن وعيه يصبح كوعي طفل خال من أي ضغوط أو عقد نفسية، وبالتالي تلك العملية تعتبر عملية لتجديد الوعي وتنظيفه من كل العوالق.

٢ – معهد ماساشوستس:

وهو أحد الفروع الموجودة في جامعة «كامبريدج» لدراسات علوم الدماغ والأعصاب والفلك وعلم الفضاء في الولايات المتحدة الأمريكية.

الحقيقة هذا المعهد ما زال مخفياً على عدد غير محدود من البشر، كما أن البرامج وطرق التدريس فيه أيضاً مخفية على العالم، وكل ما عُرِفَ عن هذا المعهد هو دراسة الطاقة المتجددة عند الإنسان.

في النتيجة نستطيع أن نقول هناك عقل كوني بموجبه تتصرف جميع مكونات الكون اللا نهائي وفق قوانين عقلانية نسبية، ولا يمكن أن تخرج عن طورها العقلاني، وبمجرد التلاعب بتلك القوانين فإن الكارثة حُلّ، لذلك تبقى قوانين الكون عصية على الإنسان، فكما أن الكون لا متناهٍ؛ كذلك له قوانين لا متناهية ترتبط بتمدده الدائم والأبدي، ومهما بذل الإنسان من جهد فلا يمكنه أن يصل إلى اللا نهاية.

أهم المراجع:

1 – تاريخ الفلاسفة – طاليس المليطي – ترجمة السيد أحمد عبد الله – مكتبة الكتب.

2 – ستيفن هوكينغ – التصميم العجيب – ترجمة أحمد عياد – دار سومر.

3 – تاريخ موجز للزمان – ستيفن هوكينغ – ترجمة «مصطفى إبراهيم فهمي» – دار سومر.

4 – حساب الكون بالأرقام – إيفان ستيورات – ترجمة الزهراء سامي.

5 – ثماني احتمالات مستبعدة – جون جريبين ترجمة «ديانا عادل غراب».

6 – كون أينشتاين – ميشو كاكو – ترجمة «مؤسسة هنداوي».

تحديات تغير المناخ والتغيرات البيئية على دول الشرق الأوسط وآثارها المختلفة والحلول الممكنة

يوسف وهيب

مخطط البحث

مقدمة

المحور الأول: التغيرات المناخية وعلاقتها بالسياسة والتحديات أمام الدول للحد منها

المحور الثاني: الإشكاليات المناخية والبيئية الناتجة عن تزايد الأنشطة البشرية

المحور الثالث: العدالة المناخية كرؤية لحل الآثار الناتجة عن التغير المناخي

الخلاصة

مقدمة

تركز معظم الدراسات التخصصية التي تنشرها مراكز الأبحاث والمؤسسات المعنية بالتغيرات المناخية والبيئية والناشطين البيئيين وآراء من يعتبرون أنفسهم حماة البيئة والأرض, تركز على أن التغير المناخي لم يبقَ مجرد مصطلح يدل على ارتفاع حرارة الأرض أو توسع ثقب الأوزون فحسب. فالعالم يعيش تغييرات كبيرة وواسعة تشمل الغلاف الجوي, والغلاف الأرضي المتمثل بالقشرة الأرضية وأيضاً الغلاف المائي, والمحيطات والمناطق الثلجية, فجميع تلك المظاهر تعكس الصورة الملخصة عن طبيعة التغيرات المناخية التي نلاحظها وتؤثر في بقية مظاهر الحياة على الكرة الأرضية.

و تعتبر التغيرات المناخية من أكثر التحديات التي تواجه الدول, حيث لا يوجد هنالك بلد متمتع بالحصانة ضد هذا التحدي الذي أضحى قضية بيئية وحياتية هامة وحقيقة علمية ومشكلة عالمية طويلة الأجل, تنطوي على تفاعلات معقدة لها تداعيات مختلفة ومتنوعة سياسية, اجتماعية, بيئية واقتصادية, وهو ما أكدته الأمم المتحدة بقولها:

«إن التغير في المناخ العالمي هو حقيقة لا لبس فيها, وأنه من المرجح جداً أن تكون معظم الزيادات الملحوظة في متوسط درجات الحرارة عالمياً منذ منتصف القرن العشرين, ناجمة عن الزيادة الملحوظة في تركيزات الغازات الدفيئة الناتجة عن الأنشطة البشرية».

ما المقصود بالتغيرات المناخية؟ وما آثارها المختلفة على دول الشرق الأوسط؟ وما علاقة السياسة بالبيئة؟ وما الحلول الممكنة؟ وكيف تتعامل المجتمعات مع هذه الظاهرة في ظل التحديات التي تفرضها؟

للإجابة على هذه الإشكالية نطرح الفرضيات التالية:

١ـ تطرح قضية تغير المناخ في الشرق الأوسط رهانات كبيرة أمام المجتمعات والدول, وبالتالي ضرورة التصدي لها.

٢- لعبت السياسة الدور السلبي على البيئة والقضايا البيئية في ظل تزايد حدة الحروب الصراعات والعنف وعمليات ضرب البنية التحتية البيئية, والمساهمة في ارتفاع درجات الحرارة عبر التسبب في الحرائق والكوارث والتغيرات المناخية.

المحور الأول: التغيرات المناخية وعلاقتها بالسياسة والتحديات أمام الدول للحد منها

عرف المشهد الدولي عموماً وفي منطقة الشرق الأوسط على الوجه الخصوص خلال السنوات الماضية, تغيرات كبيرة طرأت على البيئة والمناخ معاً, بسبب الحروب والصراعات وممارسات المنخرطين في تلك الصراعات, فقد أصبحت ظاهرة التغيرات المناخية على نحو متزايد خلال العقود الخمسة الماضية , وحدوث هذه التغيرات يعزى بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى النشاط البشري, الذي يفضي إلى تغير في تكوين الغلاف الجوي العالمي, بالإضافة إلى أن كل أشكال التغيرات التي يمكن التعبير عنها والتي ممكن أن تستمر لعقود متوالية, ناجمة عن التفاعلات الداخلية لمكونات النظام المناخي.

لقد تعددت التعاريف التي قيلت بشأن مصطلح التغير المناخي, ولكن دون الدخول في تفاصيل هذه التعاريف, إلا أنه يمكن القول بأنه تم تعريف مصطلح التغير المناخي في اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ, حيث عرفته بأنه «التغير في المناخ يعزى بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى النشاط البشري الذي يفضي إلى التغير في تكوين الغلاف الجوي العالمي والذي يتم ملاحظته, بالإضافة إلى التقلب الطبيعي للمناخ, على مدى فترات زمنية مماثلة».

غدا الوضع البيئي اليوم خلافاً لما كان عليه قبل مئة سنة, قضية سياسية جدية في العديد من مناطق العالم, بل ثمة حركات سياسية ذات

ثقل سياسي مهم تتمحور وتنتظم اهتماماتها المركزية حول قضية الدفاع عن البيئة, وحمايتها من المزيد من التردي وإعادة الأوضاع قدر الإمكان إلى ما كانت عليه.

إن السمومٍ ظواهر طبيعية بالقدر نفسه, وقد لعبت دوراً في التوازن البيئي قبل أن يدخل الكائن البشري الصورة بوقت طويل, ومن المؤكد أننا نعرف عن الكيمياء والبيولوجيا أكثر بكثير مما عرف أسلافنا بحيث غدونا أكثر وعياً للسموم في بيئتنا, وربما كان الأمر غير ذلك لأننا نعلم في هذه الأيام كذلك مدى التقدم في معرفة الشعوب غير المتعلمة بالسموم ومضادات السموم, ونحن نتعلم هذه الأشياء كلها أثناء تلقينا العلم في مدارسنا ومن خلال ملاحظتنا الحياة اليومية, بيد أننا نميل إلى تجاهل هذه التقييدات الواضحة عندما نناقش الأبعاد السياسية في قضايا البيئة.

في بحثنا سنسلط الضوء فقط على الأسباب البشرية الاصطناعية، فهي تلك المسببات الناجمة عن الأنشطة البشرية, وترتبط بالنمو السكاني المتزايد بالعالم, مثل الغازات المنبعثة من الصناعات المختلفة, كتكرير النفط وإنتاج الطاقة الكهربائية ومعامل إنتاج الإسمنت ومصانع البطاريات، وعوادم السيارات والمولدات الكهربائية، و نواتج الأنشطة الزراعية كالأسمدة وعمليات إزالة الغابات والأشجار التي تعتبر أكبر مصدر لامتصاص غازات الاحتباس الحراري, وخاصة غاز ثاني أكسيد الكربون والغازات المنبعثة من مياه الصرف الصحي خاصة الميثان, الذي يعتبر أكثر خطراً بعشرة أضعاف من غاز ثاني أكسيد الكربون.

تغير المناخ يُعتبر القضية الحاسمة في عصرنا, حيث إن تأثيرات تغير المناخ عالمية النطاق وغير مسبوقة من حيث الحجم، وبدون اتخاذ إجراءات صارمة اليوم سيكون آثارها كبيرة جداً في المستقبل و أكثر صعوبة ومكلفة، حيث أصاب التلوث كل عناصر البيئة المحيطة بالإنسان بعد أن ضل الطريق من أجل ما يصبو إليه من مكاسب.

فالأرض التي نأكل من نتاجها والهواء الذي نحيا

> **تركز معظم الدراسات التخصصية التي تنشرها مراكز الأبحاث والمؤسسات المعنية بالتغيرات المناخية والبيئية والناشطين البيئيين وآراء من يعتبرون أنفسهم حماة البيئة والأرض، على أن التغير المناخي لم يبقَ مجرد مصطلح يدل على ارتفاع حرارة الأرض أو توسع ثقب الأوزون فحسب، فالعالم يعيش تغييرات كبيرة وواسعة تشمل الغلاف الجوي، والغلاف الأرضي المتمثل بالقشرة الأرضية والغلاف المائي، والمحيطات والمناطق الثلجية**

به والماء الذي يعتبر من أهم مقومات الحياة, وبما أن قضية التغير المناخي ذات طابع عالمي، فإن أي جهود لصيانة البيئة داخل إقليم الدولة سوف تبقى محدودة الفاعلية، ولذلك فإن عملية حماية البيئة تتطلب مجهودات دولية من خلال التعاون بين كافة المجتمعات والدول, للتقليل من الآثار السلبية والحدّ من التغيرات المناخية التي تغير الحياة وديمومتها.

المحور الثاني: الإشكاليات المناخية والبيئية الناتجة عن تزايد الأنشطة البشرية

- إن ظاهرة التغُّير المناخي من أهم المشكلات المتجددة التي تهدد البشرية, فالزيادة الكبيرة في استهلاك مصادر الطاقة غير المسؤولة بات لا يمكن تجاهله, حيث يعتبر تغيّر المناخ أمراً أشبه بخطر الحروب على البشرية، الأمر الذي يمكن معه القول بأن قضية التغيرات تؤثر على السلم والأمن الدوليين.

- إن قضية التغير المناخي ذات طابع عالمي، ومن ثم

فإن أي جهود لصيانة البيئة داخل إقليم الدولة سوف تبقى محدودة الفاعلية، ولذلك فإن عملية حماية البيئة تتطلب مجهودات أكبر من خلال التعاون بين كافة الدول فضلاً عن الجهود المحلية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الجهود الدولية.

- إن غالبية المفاوضات والمؤتمرات الدولية بشأن البيئة والتي جرت, قد فشلت بنسبة ما إلى التوصل لقواسم مشتركة كافية لخروج المؤتمرات بالتزامات حقيقية تجبر الدول الكبرى على تحقيق التزاماتها تجاه البيئة والمناخ.

بدأت إرهاصات تغير المناخ في الظهور في أعقاب الثورة الصناعية عندما بدأ العلماء يحذرون من اختلال المعادلة المناخية لكوكب الأرض، وذلك بزيادة نسبة الغازات الدفيئة، وارتفاع تركيزها في الغلاف الجوي بكميات تفوق ما يحتاجه الغلاف الجوي للحفاظ على درجة حرارة الأرض، نتيجة اعتماد الإنسان على الوقود الأحفوري كمصدر رئيسي للحصول على طاقة بنسبة ٧٨٪ من الطاقة المستخدمة في العالم، والذي ينتج عن احتراقه انبعاث كميات هائلة من هذه الغازات، وأهمها غاز ثاني أكسيد الكربون المسؤول الأول عن ظاهرة الاحتباس الحراري.

حل المشكلة البيئية والتغيرات المناخية والحفاظ على النوع الحيوي والطبيعي للكائنات والبيئة, هو حل متعلق بقدرة الكيانات والمجتمعات والدول على تقدير هذه التهديدات التي تبدو أنها تفوق قدراتنا الثقافية حتى عن إدراك المشكلة, و بالتالي لا تستطيع المجتمعات أن تبتكر قدرات أخلاقية جديدة لمواجهة الإشكاليات البيئية.

المحور الثالث: العدالة المناخية كرؤية لحل الآثار الناتجة عن التغير المناخي

المقصود بالعدالة المناخية هو تحقيق عدالة كونية تتحمل المسؤوليات من انبعاثات الغازات الدفيئة, وهي تقع على عاتق الدول الصناعية في المركز الرأسمالي العالمي، وتمثل العدالة المناخية رؤية لحل وتخفيف الأعباء غير المتعادلة الناجمة عن التغير المناخي، وتظهر عادات الإنتاج والاستهلاك للدول الصناعية مثل الولايات المتحدة وأوروبا الغربية, والتي تستمر في تهديد بقاء البشرية والتنوع الحيوي.

لقد استعمل مصطلح العدالة المناخية لدراسة التغير المناخي كقضية أخلاقية, ولا يوجد تعريف جامع مانع لمصطلح العدالة المناخية، ولكنها تندرج تحت مفهوم العدالة البيئية، ولقد تعددت التعاريف التي قيلت بشأن مصطلح العدالة المناخية، وذلك على النحو التالي:

«تحمل الأعباء والتكاليف بين مختلف الأجناس والأمم والأفراد والفئات والأقاليم تبعًا لأماكن وجود البنيات التحتية الملوثة للبيئة وأساليب مجابهة هذا التلوث».

إن آراء بعض الباحثين في قضايا البيئة والمناخ والتدخلات السياسية, أكدت أن العدالة المناخية قد تأسست في الضرورات القانونية والأخلاقية لحقوق الإنسان واحترام كرامة الشخص، مما جعلها أساسًا لا غنى عنه للعمل في مجال تغير المناخ.

تعتبر العدالة المناخية هي أفضل طريقة لتوزيع أعباء تغير المناخ على البشر من الأفراد والجماعات, أي العدالة في توزيع الأعباء وتكاليف التخفيف بالتساوي لحماية حقوق الإنسان، خاصة بالنسبة للفئات الضعيفة في المجتمع.

واعتماداً على ما سبق نستطيع القول إن العدالة المناخية تعدّ مزيجًا بين حقوق الإنسان وتغير المناخ، حيث تهدف في المقام الأول إلى حماية حقوق الإنسان التي قد تتأثر من جراء التغيرات المناخية، ولذا فإن العدالة المناخية تعد أفضل وسيلة لتحقيق توزيع عادل في الأعباء والتكاليف بين الدول المتقدمة والصناعية والدول الفقيرة الأكثر تضرراً من جراء التغيرات المناخية، والتي تعد الدول الصناعية المتسبب الأول في هذه التغيرات.

علاقة العدالة المناخية بالتغير المناخي

إن تغير المناخ قضية بيئية اجتماعية اقتصادية سياسية أمنية وإنسانية، لها تداعيات عميقة على البشر وعلى التمتع الفعلي بحقوق الإنسان، وعواقب وخيمة على العدالة الاجتماعية. فعلى المستوى الفردي سيشعر بآثار تغير المناخ الأفراد الذين تكون تدابير حماية حقوقهم غير قوية أصلاً بسبب عوامل محددة مثل السن والإعاقة والجنس ووضع الشعب الأصلي ووضع المهاجر ووضع الأقلية والفقر. وعلى المستوى العالمي ستكون أقل البلدان نموّاً والدول الجزرية الصغيرة التي ساهمت بشكل أقل في الانبعاثات العالمية للغازات الدفيئة, ستكون هي الأكثر تضرراً من تغير المناخ. في حين ستتطور العديد من الآثار الأخرى ببطء أكثر لتصبح قضايا واسعة وشاملة.

إذا نظرنا إلى قضية التغير المناخي, لا نلاحظ وجود عدالة بين الدول الصناعية الكبرى المتسببة في الاحتباس الحراري، وبين الدول الفقيرة التي تعاني أصلاً من التغيرات المناخية بصورة قد تفوق ما تعانيه الدول المتسببة في هذه الظاهرة. ومن ثم فلا يوجد عدالة توزيعية بين الدول الكبرى والدول الفقيرة. ولا عدالة تعويضية, فعلى الرغم من أن الدول الكبرى هي المتسببة في حدوث الظاهرة. ومع ذلك فإن الدول الفقيرة هي التي تتحمل العبء الأكبر.

قضية العدالة الاجتماعية

يشكل تغير المناخ تحديًا صعباً للعدالة الاجتماعية, فالأشخاص ليسوا متساوين في التأثر بتغير المناخ. خاصة الفئات الأكثر ضعفًا في الدول النامية «النساء. الأطفال. الفقراء. ذوو الاحتياجات الخاصة والشعوب الأصلية «: لأنها الأقل جاهزية ماليًا واقتصاديًا لمواجهة آثار تغير المناخ. فالدول النامية هي الأكثر تضرراً من تغير المناخ بسبب انخفاض نصيب الفرد من الدخل, وانتشار الأمية والأمراض المنتشرة وانخفاض

" قضية التغير المناخي ذات طابع عالمي، لذلك فإن أي جهود لصيانة البيئة داخل إقليم الدولة سوف تبقى محدودة الفاعلية، لذلك فإن عملية حماية البيئة تتطلب مجهودات أكبر من خلال التعاون بين كافة الدول فضلاً عن الجهود المحلية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الجهود الدولية. فغالبية المفاوضات والمؤتمرات الدولية بشأن البيئة والتي جرت، قد فشلت بنسبة ما إلى التوصل لقواسم مشتركة "

متوسط العمر والبنية التحتية المحدودة والهشاشة الاقتصادية والزراعة التقليدية.

يمكننا القول إن تغير المناخ في حد ذاته قضية غير عادلة لثلاثة أسباب:

أولاً: ليس كل شخص مسؤولاً بنفس القدر عن تغير المناخ. والبلدان ذات الناتج المحلي الإجمالي الأكبر والأفراد ذوو المستوى الأعلى, هم الأكثر مساهمة في انبعاثات الغازات الدفيئة.

ثانيًا: ليس كل البشر عرضة للخطر على قدم المساواة, فأولئك الذين هم أقل مسؤولية عن المشكلة, هم من يتحملون العبء الأكبر من الآثار السلبية الناجمة من التغيرات البيئية والمناخية.

ثالثًا: ليس كل شخص على قدم المساواة مع الأشخاص الآخرين لتمكينه من المشاركة في عملية صنع القرار التي ستؤثر على كيفية توزيع الموارد المحدودة للتكيف, واستخدام الوسائل

”أكد «موراي بوكتشين» بقوله إن المجتمع الصناعي شرير، تسيطر فيه الآلات على الإنسان، وهذا يؤدي إلى نزع صفة الإنسانية عنه، وتفكك شخصيته وخنق الإبداع لديه“. وعلى هذا الأساس فإن ما يحدد على نحو واضح اجتماعية الإيكولوجيا الاجتماعية، هو أن جميع مشاكلنا البيئية تم تغافلها في الوقت الحالي، ولا يمكن بأي حال من الأحوال إدراك المشكلات البيئية في الوقت الحالي بوضوح“

المناسبة للإنتاج.

لا نستطيع أن نؤكد على أن للدول الصناعية السبق التاريخي في التصنيع، وبالتالي الإضرار بالغلاف الجوي، ولكنها تتحمل معظم المسؤولية عن توليد الانبعاثات، في حين تعتبر الدول النامية الأكثر عرضة لتبعات ارتفاع درجة حرارة الأرض، وهي الأقل قدرة على الوصول إلى الموارد والتكنولوجيا للتكيف مع عواقب التغيرات المناخية، ومن ثم ينبغي أن تتحمل الدول المتقدمة عبئاً أكبر من الدول الفقيرة في التصدي لتغير المناخ، وهو ما يُعرف بمبدأ المسؤولية المشتركة، ولا يوجد اتفاق دولي حتى الآن على كيفية ترجمة هذا المبدأ لتوزيع المنافع والأعباء المرتبطة بتغير المناخ بشكل عادل ومنصف، وتطرح العدالة المناخية بعض المقاربات والرؤى بشأن كيفية الاستجابة لتغير المناخ، سواء عن طريق خفض الانبعاث «التخفيف» أو عن طريق التكيف معه بطريقة منصفة مما يتطلب معرفة كيف تتحقق العدالة المناخية.

أكد «موراي بوكتشين» بقوله إن المجتمع الصناعي شرير، تسيطر فيه الآلات على الإنسان، و هذا يؤدي إلى نزع صفة الإنسانية عنه، وتفكك شخصيته وخنق الإبداع لديه».

على هذا الأساس فإن ما يحدد على نحو واضح اجتماعية الإيكولوجيا الاجتماعية، هو أن جميع مشاكلنا البيئية تم تغافلها في الوقت الحالي، ولا يمكن بأي حال من الأحوال إدراك المشكلات البيئية في الوقت الحالي بوضوح، ناهيك عن إيجاد حل لها، دون التعاطي مع تلك المشكلات داخل إطارها الاجتماعي.

بالإضافة إلى ذلك، المشاكل البيئية لا يمكن أن تكون مفهومة دون فهم دقيق لفكرة اللاعقلانية التي تهيمن على المجتمع، والتي نراها في أمور عدة اقتصادية، وعرقية، وثقافية، و خلال النزاعات بين الجنسين، و أمور أخرى كثيرة، والتي تكون جميعها في جوهرها معبرة عن أكثر وأخطر الاضطرابات البيئية التي نواجهها اليوم، بصرف النظر عن تلك الناجّة من الكوارث الطبيعية.

بحسب ”موراي بوكتشين“ فإن النأي بالمشكلات البيئية عن المشكلات الاجتماعية – أو حتى الإقلال منها، أو القبول الرمزي بهذه العلاقة المتداخلة ـ سوف يعني بالتأكيد سوء فهم كبير لروافد الأزمة البيئية المتنامية، فالأسلوب الذي تتعامل به الكائنات البشرية مع بعضها البعض، أمر أساسي للبحث في الأزمة البيئية، وإذا لم نقرّ بهذا الأمر بوضوح تام فسوف نفشل بشكل مؤكد في فهم أن العقلية التراتبية الهرمية للعالقات القائمة على الطبقية التي تنتشر بعمق كبير داخل المجتمع، هي التي تتسبب في ظهور فكرة الهيمنة على عالم الطبيعة، فمثلاً بالنسبة لمشكلة الزيادة السكانية، ترى الحركات البيئية التقليدية أن الناس يتكاثرون بلا هدف مثل ذباب الفاكهة، وهو ما يضرّ بالبيئة ويستنزف المواد بشكل متلاحق، بيد أنها مشكلة ثقافية واجتماعية من الأساس، فقد وُجد أن مستويات المعيشة اللائقة لها دور في تلك المسألة.

ومن الناحية التطبيقية، لا يمكن تحقيق الطبيعة الحرة دون إلغاء مركزية المدن بهدف إيجاد مجتمعات موحدة مرتبطة بشكل حيوي بالمناطق الطبيعية الكائنة فيها, كما يعني ذلك استخدام تقنيات إيكولوجية، مثل الطاقات الشمسية، والرياح)طواحين الهواء وغاز الميثان، والمصادر الأخرى) بجانب الاستفادة من أشكال الزراعة العضوية وعلى إنتاج بضائع ذات جودة عالية.

والواضح هنا أن إدراك اللبنة الأولى لبناء مجتمع إيكولوجي تكون عبر مجال أقل اتساعاً، عبر الانتقال من مركزية المدن إلى تكوين تجمعات مركزية بهدف أن يعيش الناس فيها بشكل يستطيعون من خلاله ممارسة الديمقراطية المباشرة وحكم أنفسهم بأنفسهم، بجانب استخدام الطاقة النظيفة، وسهولة ممارسة زراعة محلية ومن ثم تحقيق الاكتفاء الذاتي, مع الأخذ في الاعتبار أن "موراي بوكتشين" يميز بشكل كبير بين المدينة والتمدن, ذلك أن تفشي الأخير يعني تهديد ما تملكه المدينة من مقومات عبر ما يسميها التقنية التحويلية.

الخاتمة

لقد أصبحت قضية العدالة المناخية من أهم القضايا, بل وفي مقدمة القضايا التي تطرح بشدة على صعيد الأجندات الدولية, لا سيما تلك التي تتعلق بقضايا تغير المناخ.

و يُعد مصطلح العدالة المناخية مصطلحاً حديثاً, حيث ظهر في الآونة الأخيرة ضمن أولويات العمل المناخي والتنموي، ولكن على الرغم من ذلك ينبغي أن نشير إلى أن تحديد المصطلح على نحو واضح لم يتم إلا في الاتفاقيات الدولية منذ عام ١٩٩٢م، وتحديدًا من خلال اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ.

تعد العدالة المناخية مزيجاً بين حقوق الإنسان وتغير المناخ، حيث تهدف في المقام الأول إلى حماية حقوق الإنسان التي قد تتأثر من جراء التغيرات المناخية، ولذا فإن العدالة المناخية تعدّ أفضل وسيلة لتحقيق توزيع عادل في الأعباء والتكاليف بين الدول المتقدمة والصناعية والدول الفقيرة الأكثر تضرراً من جراء التغيرات المناخية، والتي تعد الدول الصناعية المتسبب الأول في هذه التغيرات.

لا يوجد اتفاق دولي حتى الآن ينص على كيفية ترجمة مبدأ توزيع المنافع والأعباء المرتبطة بتغير المناخ بشكل عادل ومنصف، وتطرح العدالة المناخية بعض المقاربات والرؤى بشأن كيفية الاستجابة لتغير المناخ, سواء عن طريق خفض الانبعاث «التخفيف» أو عن طريق التكيف معه بطريقة منصفة, ما يتطلب معرفة كيف تتحقق العدالة المناخية.

و في النهاية نستنتج أننا لا نستطيع أن نتخلص أو نتهرب من اهتمامنا بالبيئة, والذي يلزمنا بواجبات أخلاقية نحوها.

إن التحديات التي يواجهها الإنسان تدعو إلى خطورة القضايا البيئية والمناخية, وتلزم الدول والمجتمعات للعمل على سياسات الحفاظ على البيئة.

المراجع :

1- عبد الله الدروبي، إيهاب جناد ومحمود السباعي، التغُّير المناخي وتأثيره على المائية في المنطقة العربية، المركز العربي للدراسات ، أكساد، المؤتمر الوزاري العربي للمياه، القاهرة 2008م .

2- إيمانويل والرشتاين ،كتاب نهاية العالم كما نعرفه ، ترجمة فايز الصباغ ، هيئة البحرين للثقافة والآثار ، المنامة 2017م

3- موراي بوكتشين، ما هي الإيكولوجيا الاجتماعية ؟، مقال في كتابل الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، الجزء الثاني، تحرير مايكل زيمرمان، ترجمة معين شفيق رومية، سلسلة المعرفة، العدد ،888 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2002م

4- أنجي أمحد عبد الغني مصطفى، الإدارة الدولية لقضية التغيرات المناخية مجلة كلية السياسة والاقتصاد ، القاهرة 2019م.

التدخل العسكري في السياسة

ولاء عبدالله أبوستيت

تسمية (التدخل العسكري في السياسة) مسألة حديثة، فالوقائع تشير إلى أن الحكم على مدار التاريخ ذو طابع عسكري، فغالبية قادة الدول هم شخصيات عسكرية أو يمتلكون سمات عسكرية بصيغة ما. والحقيقة أن علاقة ما هو عسكري بما هو سياسي تتباين بتباين الفترات والمحددات التي تحكم كل فترة.

وإذا رأينا أن المسألة في العصر الحديث تختلف في الغرب عنها في الدول النامية، أو بلدان العالم الثالث، فذلك يعود لسبب رئيسي هو أن علاقة الجيوش بالسياسة في دول العالم الثالث لا ترتبط فقط بعوامل داخلية وحسب، إنما ترتبط بعوامل خارجية أيضاً، يأتي في مقدمتها التوسع الاستعماري.

يمكن القول إن الحالة التي وصل إليها العالم الثالث، الذي ظل

تحت الاستعمار بمختلف صوره، أدت إلى صعود القوة المجتمعية الأكثر ثقلاً في مواجهة الوضع الخاص بالاستعمار وغيره مع الأحداث المتوالية، وقد شهدت دول العالم الثالث في خمسينيات القرن الماضي توجهاً عسكرياً متنامياً مع حركة الضباط الأحرار في مصر، التي ما لبثت أن ألهمت عدداً كبيراً من دول العالم الثالث فكرة الثورة على الاحتلال، وسارت على خطاها.

وللتذكير نشير إلى أن قيام تلك الحركة العسكرية التي قدّر لها النجاح بصورة غير متصورة، جاء على خلفية ما جرى من فضيحة في حرب ١٩٤٨، والتي بسببها ضاعت رقعة عزيزة من الأرض العربية ما نزال نسعى لاستعادتها؛ أو بالأحرى استعادة جزء يسير منها لإعلان دولة فلسطين التي قضت هذه الحرب على وجودها.

الوظيفة العسكرية في مجال السياسة

وإن كان السائد في بلدان الشرق حكم القادة العسكريين، وبروز نفوذهم في أروقة الحكم؛ وقد ذكرنا مثالاً حالة محمد علي باني الأسرة العلوية في مصر، وهو جندي قدم من ألبانيا ضمن قوات الدولة العثمانية، واستطاع الانفراد بالحكم ليشكل حالة ممتدة؛ فإن الاتجاه المعارض للتواجد العسكري في البناء السياسي برز من خلال أفكار الفيلسوف والاقتصادي الفرنسي سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥) أحد منظري ومفكري الثورة الفرنسية، فهو من دشّن لفكرة الطبقات، وكان انحيازه للطبقة العريضة من الشعب، وقد شنَّ هجوماً على طبقة المشرّعين الحاكمة، والطبقة الأرستقراطية، ورجال الجيش، وكان يرى أنها تملك القوة وصناعة القرار، وتشغل أهم الوظائف الحكومية. ويدعو إلى وجوب تسليم السلطة للصناعيين؛ لأنهم هم الرؤساء الحقيقيون للشعب، كما دعا لإلغاء الجيش النظامي واستبداله بجيش الشعب.

وللمفارقة أن أنصار «سيمون» رأوا في دولة مصر، وحكم محمد علي فرصة لتطبيق أفكارهم، لذا فقد سافر الكثير منهم إلى مصر للمساهمة في نهضتها.

هذا مروراً بـ «كانت» الذي تحدث عن علاقة النظام العسكري بالنظام السياسي، وغيره من المفكرين في السياقات المختلفة، وصولًا إلى «مانهايم» الذي اعتبر أن القوات المسلحة من أعظم التنظيمات المعروفة للقوة، لكنه اعتبر أن ضبطها كان يمثل تحديًا للديمقراطية.

ويتحرك الجيش لاستخدام قوته ليصبح قوة سياسية خلال أزمات سلطة الدولة واختفاء الولاء القومي، وهو ما يراه «مانهايم».

لكن متى اهتم العالم بمسألة توغل التدخل العسكري في الحياة السياسية؟

إن شيوع التدخل العسكري في الحياة السياسية في دول العالم الثالث، دفع العلماء والباحثين في العلوم الاجتماعية إلى دراسة الدور ما فوق العسكري للجيش، وتحليل الظاهرة العسكرية التي تجاوز تأثيرها البيئة المحلية والإقليمية، **ومع نهاية الثمانينات شهدت الساحة السياسية الدولية ثلاثة أحداث تاريخية كبرى غيرت مجرى الأمور ، وهي:**

- **الموجة الديمقراطية الثالثة.**
- **انهيار المعسكر الشرقي.**
- **نهاية الحرب الباردة.**

والحقيقة أن هذه الأحداث المترابطة غيرت جذريًا السياسة الداخلية لدول كثيرة، مما جعل مسألة العلاقة بين السلطة السياسية والجيش تعود للواجهة مجددًا.

وقد نتج عن تزايد الاهتمام العلمي بالظاهرة العسكرية توظيف الانقسام الإيديولوجي في تفسير التدخل العسكري في الشؤون

السياسية، وتراوحت الأطروحات بين من يبررها ويريد توظيفها في تحقيق أهداف اقتصادية وسياسية معينة، وبين من يرفضها نظرًا لتعارضها مع مصالح اقتصادية وسياسية أخرى.

لماذا يتدخل الجيش في السياسة؟

لا يأتي التدخل العسكري فجأة، وإنما يرتبط الأمر بالوضع المعاش، أو الظواهر الأخرى التي يمكن تفسيرها في هذا الإطار، وهو ما يؤكده علم الاجتماع العسكري:

حيث يختلف تدخل القوات المسلحة في الشأن العام تبعا لعدة عوامل منها:

- تصور الضباط للأوضاع السائدة في المجتمع ودرجة إدراكهم للتهديد الخارجي والداخلي الذي يتعرضون له.

- درجة ثقتهم في السياسيين، إلا أنه من الصعب أن يتحقق الضبط المدني السياسي فوق القوات المسلحة في الدول حديثة النمو؛ لعدم اندماج معيار الضبط المدني في الأخلاقيات العسكرية، ومنه فإن المؤسسة العسكرية تعمل على ممارسة دور فعال في الشأن السياسي خاصة إذا تهددت مصالحها.

لقد أجريت الكثير من الدراسات والبحوث عن المؤسسة العسكرية في العالم الثالث، والدور السياسي العسكري أو النزعة العسكرية على وجه الخصوص، ولم يتم التوصل حتى الآن إلى اتفاق حول خصائص هذه الظاهرة أو العوامل الدافعة التي حدوثها.

وفي هذا السياق يأتي تدخل الجيش في السياسة لأسباب أبرزها:

أولا: عوامل سياسية

ثانيا: عوامل اجتماعية ومجتمعية

”هذه الأحداث المترابطة غيرت جذريا السياسة الداخلية لدول كثيرة، مما جعل مسألة العلاقة بين السلطة السياسية والجيش تعود للواجهة مجددا. وقد نتج عن تزايد الاهتمام العلمي بالظاهرة العسكرية توظيف الانقسام الإيديولوجي في تفسير التدخل العسكري في الشؤون السياسية، وتراوحت الأطروحات بين من يبررها ويريد توظيفها في تحقيق أهدّاف اقتصادية وسياسية معينة، ومن يرفضها لِتعارضها مع مصالح اقتصادية وسياسية أخرى“

ثالثا: عوامل عسكرية داخل سياق الجيش ذاته

رائد علم الاجتماع العسكري موريس جانويتز (١٩١٩ - ١٩٨٨) ربط التدخل السياسي للجيش بالظروف السياسية التي نشأ في ظلها، حيث يرى أن التشكيلات العسكرية التي نشأت أثناء الكفاح المسلح، من أجل التحرير الوطني، قد تدخلت في الحياة السياسية بصورة واسعة، ويمكننا هنا أن نذكر تمثيلاً لذلك حالة الجزائر، ومصر، وحتى اليمن.

وهنالك من ربط التدخل العسكري في الشؤون السياسية بالبيئة السياسية وصراع «القوى الاجتماعية» والسياسية المختلفة على السلطة، وذلك ناتج عن ظاهرة التسييس العام للقوى الاجتماعية بسبب غياب المؤسسات السياسية الدستورية الوسيطة التي تقنن التنافس على السلطة، حيث تعبر القوى الاجتماعية المختلفة عن مواقفها من الحكم بطرق مختلفة، فيتظاهر الطلاب، ويضرب العمال، أما العسكريون فإن

الانقلاب العسكري هو الوسيلة التي تمكنهم من السيطرة والنفوذ، لا بصفتهم المؤسسية ولكن باعتبارهم إحدى القوى التي تعكس البنيان السياسي للمجتمع.

وعن علاقة التدخل العسكري في الشأن السياسي بالحراك الاجتماعي، يؤكد عالم السياسة الأمريكي «روبرت بوتمان» وجود علاقة عكسية، فكلما زاد الحراك الاجتماعي زادت القيود على احتمالات تدخل العسكر في السياسة.

وهناك بحث مميز عن الظاهرة العسكرية في إفريقيا للباحث الجزائري «مولود حمروش» يحدد فيه عدة عوامل للتدخل العسكري، أهمها:

- ضعف البنى الاجتماعية والسياسية بسبب التنوع العرقي والصراعات الجهوية، والتدخلات الخارجية في هذه الصراعات، لأن ضعف المجتمعات يكمن في تفككها وعدم استقرارها لانعدام الارتباطية الاجتماعية الصلبة التي تصمد أمام الأزمات السياسية والعرقية والاقتصادية.

- غياب أطر وقنوات للمشاركة السياسية.

- استخدام الجيش ضد معارضي الحكومة للدفاع عن مصالح الحكام؛ بأن تطلب الحكومة من الجيش التدخل للقضاء على المعارضة، كما حدث في سيراليون عندما طلب رئيس الدولة السيد «مارقي» من الجنرال «لانزانا» أن يتدخل لمنع السيد «استيفنس» زعيم المعارضة من استلام السلطة.

وأخيرًا تظل تلك المسألة شائكة ومحور حديث وجدل وربما صراعات، ومنها تأتي كل محاولات التدخل في الشؤون الداخلية لدول العالم الثالث التي ما تزال مسلوبة الأمر والقرار رغم ما قد يبدو غير ذلك، ليبقى الباب مفتوحاً أمام المطلوب من تلك الدول وشعوبها ومفكريها ومنظّريها ومسؤوليها، في وقت يعيش العالم إرهاصة تحول جديد مرتقب وواضح للعيان، لا سيما في جغرافية الشرق الأوسط الراهنة والتي يراد لها التغيير منذ وقت في إطار ما يسمونه الشرق الأوسط الجديد، وهو شرق مفروض فرضًا، لكن يبدو أن المسألة لن تكون بالسهولة التي يتصورونها.

العمارة الطينية «القبّة» أنموذجاً

محمد عبد الله العزو

نشأت العمارة عندما اقتضت حاجة الإنسان أن يحمي نفسه من الأخطار التي كانت تحيط به، فبنى لنفسه مسكناً وفق ما كان متاحاً، بمعنى أنه استخدم الموجود أمامه من إمكانات السكن، فاستعمله كمأوى، فبدأ اللاقطون الأوائل إلى اتخاذ الكهوف والمغاور الصخرية سكناً لهم .

بعد انحسار الجليد من على وجه الكرة الأرضية قبيل نهاية العصر الحجري القديم. في سنة/١٦٠٠٠/ ق.م خرج الإنسان من مخابئه في الكهوف والمغاور, وبدأ برحلة معرفية طويلة حتى اهتدى إلى معرفة البناء فوق سطح الأرض, فكانت البداية في «تل المريبط» على الفرات الأوسط حيث كان أول ظهور للعمارة الطينية, حيث استطاع الإنسان هناك بناء أول بيت دائري كبير وفق تقنية ملائمة للبيئة والمكان. و حفر هذا البيت على منحدر التل الغربي المطلّ على نهر الفرات, وتبيّن أن الجدار الشرقي لهذا البيت بكامله من الطين, وتم تثبيت التربة الطينية من داخل البيت بواسطة أعمدة خشبية من شجر الحور الذي كان ينبت بكثرة في حوائج الفرات القريبة من التل, رصفت هذه الأعمدة بجانب بعضها البعض وكُسيت بمادة الطين, أما جدار البيت من جهة الغرب فكان بكامله تقريباً فوق سطح الأرض وقد شُيّد من الطين المدكوك, وتم تدعيمه من الخارج بالأعمدة, وكانت تقسيمات هذا البيت من الداخل قد قسِّمت بجدران بُنيت من الطين تتخللها ألواح خشبية, وفيه يُلاحظ بداية بناء منزل طيني متعدد الأجزاء منفصلة بعضها عن بعض وفق وظائفها المختلفة. أما سقف البيت فكان يتكون من دعامات خشبية مغطاة بطين مدكوك, وفي البرح الفاصلة بين البيوت وُجدت حفر للمواقد شبه دائرية (كوش) وفسحات عمل مرصوفة بالحجارة الصوّانية بشكل منتظم. حين اكتشفت هذه البيوت الطينية إنشائياً لفت الانتباه إلى أن هناك لمسة جمالية في فن العمارة ورقياً ملحوظاً في بناء هذه المنازل, وكانت بعض جدران هذه البيوت مزينة برسوم ذات أشكال هندسية محورة عن الطبيعة. في مرحلة لاحقة لوحظ تغير هادف على أشكال البيوت هندسياً, إذ أثار الانتباه ظهور غرف مستطيلة الشكل لكنها قليلة العرض عرضها بحدود مترين اثنين, وبعض هذه الحجر استخدمت للمؤونة, لكن مع ازدياد عدد أفراد الأسرة وعدد الحيوانات المدجّنة كانت هناك ضرورة لبناء بيوت أكبر سعة ومستطيلة الشكل, ولاحقاً شيدت بيوت مربعة الشكل أكثر دقة من الناحية الهندسية لاستيعاب عدد أفراد الأسرة وعدد الحيوانات المهجنة مع لوازم البيت.

في الفترة التاريخية التي بدأت فيها تتكون حضارات وثقافات جديدة, كانت العمارة من أهم الثقافات المادية للإنسان, كما أن المسكن كان يمثل نمط حياة هذا الإنسان ودرجة تحضّر المجتمعات, ولذلك لجأ الإنسان إلى إعادة ترتيب الحيّز المكاني - المعاشي المحيط به باستمرار, وكانت العمارة هي النتاج المباشر للجهود الإنسانية وكانت تعبيراً عن البيئة الطبيعية التي كانت دائماً المصدر الأساسي للمواد التي تم استخدامها في العمارة. وقد أبدع الإنسان في تشييد مبانٍ حضارية خلال المرحلة الكتابية ومن ثم في المرحلتين المسيحية والإسلامية. ظلت العمارة الإسلامية سائدة طيلة القرون الوسطى حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي, ففي هذه الفترة أعيد إنتاج بناء القبب الطينية في أنحاء كثيرة من بلاد الشرق الأوسط وخاصة في شمال وشرق سوريا. إن أول القباب في سوريا وكذلك في منطقة الشرق الأوسط شيدت بمادة اللبن المجفف تحت أشعة الشمس, لا سيما في منطقة الجزيرة الفراتية في شمال وشرق سوريا وشمال العراق, وكانت هذه الديار قد عرفت بناء القبة منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد أي قبل الحضارة السومرية. وتعد العمارة الطينية فناً يعكس تاريخ الشعوب وثقافتهم وظروف معيشتهم, ويمكن القول إن لبيوت الطين في سوريا وخاصة البناء المقبب؛ انعكاس لتراث المنطقة وعمق تاريخي يظهر تفاصيل صعوبة الحياة في الفترات الصعبة التي واجهها الناس بحلول ذكية ضمنت استدامة الحياة وتسهيلها, عبر بيوتهم الطينية ذات الحلول الذكية التي استخدم الطين فيها كمادة أساسية وتتميز بأنها مادة عازلة للحرارة أثناء فصل «الكيض» أي الصيف.

يكون بناء البيت الطيني على شكل مداميك مشيدة من مادة اللبن والواحدة منه تسمى لبنة, وشكل بناء القبة يتميز بقاعدتها المنخفضة, إذ أن القبة تبدأ بقاعدة مربعة منخفضة وقريبة من مستوى الأرض لتتحول بسلاسة إلى الشكل

الدائري. وتتمتع القباب في كافة أشكالها ببنية إنشائية رائعة، وبعض القباب خاصة في منطقة حماة مزودة بدرجات من الحجر من الخارج وليس من الداخل تساهم في أعمال الترميم والصيانة. أما عن شكل بناء البيت الطيني الذي شيد في منطقة الرقة بدءاً من بداية القرن التاسع عشر ميلادي في المدينة والريف؛ فإما أن يكون مستطيل الشكل أو مربعاً أو يبنى على شكل قباب. وكانت البيوت الطينية نوعاً من المنازل تضم غرفاً مستوية الأسطح أو مخروطية، أو مقببة، وجميعها مشيدة من مادة اللبن المجفف تحت أشعة الشمس المصنوع من التراب والقش. كانت منازل المدينة المبنية من الطين في بدايات الإعمار والاستقرار تتوزع بحسب مخطط شطرنجي، له حوش يحتوي على كافة ضرورات الحياة. أما بيوت القرى والأرياف فأغلبها مقببة، فهي تتوزع حول فناء داخلي محوّش بسور، وكانت هذه المنازل واسعة نسبياً وتحتوي على بئر وحظيرة حيوانات للخيل والبغال والحمير والأبقار، وعربة النقل الخشبية، وفضاءات أخرى مسوّرة مثل «الصيرة» لتربية الأغنام والماعز والدواجن. العمارة الطينية تعد ارتقاء ورمزاً لأجدر استخدام جائز لمادة التراب، خاصة في طريقة بناء البيوت المقببة والقبة حصراً.

ريف وقرى الرقة يزخران بمجموعة هائلة من المباني المقببة، ولهذا النوع من المنازل المخصصة للسكن مظاهر وأبعاد مغايرة. لا شك أن نمط بناء القبب للسكن يُشاهد في المناطق الريفية الفقيرة، كون هذا النمط يتلاءم مع الظروف المناخية والبيئية والاقتصادية. معمارياً يصل بعض القبب السكنية بحدود خمس أمتار، وكل قبة لها شبّاكان (نافذتان) يطلان على الفناء وشبّاك آخر يطل على جهة الشمال، ولكل قبة باب خشبي، وأحياناً كل قبتين تشتركان بباب خشبي واحد، وكل قبة مزوّدة بفتحات صغيرة في الأسفل تسمح بالتهوية الطبيعية. أما على سطح القبة الخارجي، فيشاهد بروز حجارة مسطحة على مسافات منتظمة، تسهل الوصول إلى القسم العلوي إذ تساعد الساكنين في عمليات الصيانة وترميم القبة وطلائها بالوحل، خاصة في الشمال والشمال الشرقي لسوريا. أما في الجنوب فالسكان يطلون القبب من الخارج بمادة الكلس الأبيض لحمايتها وتجميلها، وريف حماة مثال على ذلك.

ومن خلال التقصي والمشاهدة لمنازل القبب وبشكل عام، فإن معظمها بيوت متواضعة من الداخل والخارج. وتعد القباب من الناحية الإنشائية حلاً نموذجياً وتحدياً لمواجهة المناخ شبه الصحراوي كما في الرقة والجزيرة الفراتية، فالقبب أقل امتصاصاً للحرارة إذا ما قورنت مع المنازل ذات الأسطح المستوية، فشكلها الدائري يساعدها على التخلص من الحرارة التي خُزّنت في النهار ، ليلاً، إضافة إلى (عدم انتظام توزع الإشعاع الشمسي على كامل سطحها ليبقى جزء من القبة مظللاً دائماً)، وهذا الجزء المظلل يساهم بشكل محسوس في تخفيض درجة الحرارة داخل القبة، كما أن القبة في هذه الحالة تضفي المزيد من الفراغ الداخلي، مما يساهم في دفع الهواء الساخن ليتجمع في الأعلى، ويظل الهواء البارد قليلاً في القسم السفلي من الفراغ.

مثل هذه التقنية التي أطلق عليها العلماء تبريد المسكن بالهواء البارد، تم اكتشافها في موقع «تل حمو كار» الواقع بالقرب من بلدة اليعربية عند الحدود العراقية - السورية، وكذلك تم الكشف عن هذه الطريقة في قصر البنات في مدينة الرقة الإسلامية التي على الفرات.

فلسفة القانون ومبادى الأخلاق

القوانين الطبيعية المجتمعية والوضعية في الشرق

عبد الرحمن الحمادة / سوريا

مقدمة

القوانين هي العمود الفقري للحياة لأنها تنظم الحياة بتنظيم مصالح الناس ورعايتها، فالناس فيهم القوي والضعيف وفيهم العاقل والجاهل وفيهم الشرير والخيّر، وبدون القوانين يصطدم الناس ببعضهم أثناء سيرهم في طرق الحياة المختلفة، لذا نخلص إلى حقيقة أن القوانين هي الناظم الحضاري لحياة المجتمع بأي مكان أو زمان، وهي المحدد لمستوى التحضر بين مجتمع وآخر فالالتزام بالقوانين في مجتمع ما يرفع من شأنه وينظم العلاقات فيما بين أفراد هذا المجتمع، والمجتمعات المتقدمة تنتج قوانينها بما يتناسب مع طبيعتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبعضها الآخر يستعين بذلك، وقد حصلت في كثير من المجتمعات الناهضة أن استعانت بدساتير أو قوانين وضعية مطبّقة لدى مجتمعات أخرى لقصورها عن إنتاج قانون بذاتها.

نشأة القوانين

لقد أنتج الإنسان القوانين قبل التحضّر وقبل التنظيم تحقيقاً لمبدأ الردع أولاً, حيث إن القوانين أول ما تهدف إلى الحدّ من قسوة القوي وسلب حق العنف منه لصالح الضعيف, لكي يستطيع الجميع العيش تحت وصايته ـ أي القانون ـ وحمايته, وذلك تقديراً من الإنسان لحق الحياة وتقديس هذا الحق أولا, والعمل على حمايته بكل الطرق وأولها القانون, حيث أن طبيعة هذا الإنسان متشابكة ومتداخلة ومعقدة أحياناً وهو محكوم بقوانين طبيعته نفسها, مثل الغريزة والحب والكره والتضحية والانتقام والعنف واللطف, وكثير من هذه المفردات التي تحكم سلوكنا وطبيعتنا كبشر, أما الأخلاق فهي قيم معنوية أنتجها الإنسان وتعارف على مبادئها من خلال التجارب, وتطورت إدراكاته العقلية والحسية مع الزمن وحاجاته الضرورية في مسيرة الحياة الموغلة في الزمن, فالصدق مثلاً قيمة أخلاقية ويتمثل أكثر ما يتمثل في الخصائص على الوعود وتنفيذها, وهذا يقدم منفعة كثيرة له وللمجتمع, حيث تسود الثقة بين أفراده فتزدهر التجارة مثلاً ويغتني الناس من أعمالهم وينعكس عليهم بالخير, وإذا فقدت المجتمعات الثقة؛ ساد فيها الاحتيال وكسدت الأعمال واستشر الفقر والعوز بينهم.

المبادئ الأخلاقية والقيم

إن جميع المبادئ الأخلاقية تقاس بهذا المقياس, فهي إما جالبة للخير أو مانعة للشر مثل الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف والتعاون والصدق والكذب, ولكن باعتبار أن الأخلاق معنوية فإن عقوبتها أيضاً معنوية ويمكن أن تؤثر ولكنها لا تردع.

يعني لو أن شخصاً كذاباً آثار مشاكل كبيرة في مجتمعه مثل الافتراء على أبرياء أو شهد شهادة زور أو شوّه سمعة إنسان صالح بالكذب, وتم اكتشاف كذبه وافترائه, فإن عقوبته هي تجنب الناس له واعتباره غير مقبول اجتماعياً, بينما لو نظرت في تلك الأعمال التي قام بها من إيذاء, فستجد أنها يمكن أن تكون كبيرة ولا تتناسب مع هذه العقوبة, وكذلك أفعال الخير فإن جزاءها يكون رفع هذا الإنسان إلى مرتبة الشرف والسمو في المجتمع, ويمكن أن توصل صاحبها إلى ثقة المجتمع ويصبح من أصحاب الثقة والمشورة والسيادة, فتجد أن الأول يعني الطالح لو عاملته بالقانون يسجن على الافتراء ويغرّم, وكذلك بشهادة الزور يعاقب بالحبس لمدة يمكن أن تصل إلى سنوات في حالة شهادة الزور في موضوع جنائي الوصف, ولكنه أخلاقياً لا يعاقب سوى بما ذكرنا سابقاً من النبذ الاجتماعي مع إعطائه الفرصة لإصلاح نفسه وبعض المواعظ, والإنسان الصالح كذلك لا يكافأ على خيره وصلاحه معنوياً كما ذكرنا بالمثال السابق, ولكنه أمام القانون ليس لفعله أي تقدير لأن القوانين لا تكافئ المحسن, من حيث هي طبيعتها التنظيم والحد من الشر وسلب قوة القوي ودعم الضعيف لكي يتوازن المجتمع.

قِدَم الأخلاق والقيم

الأخلاق سلوك بشري تطور مع الزمن حسب الحاجة, وقد عرف الإنسان اللذة وأدرك ضعفه تجاهها وأنه يمكن أن يتجاوز القوانين والأخلاق للحصول على مزيد منها, لذلك قام بالبحث عن مبادئ أخلاقية عامة تحد من طمعه باللذة, فأوجد قيَماً نبيلة مثل الشرف والعفّة مقابل اللذة غير المشروعة, وأوجد القناعة لمقاومة الطمع والالتزام بالصدق لمقاومة الكذب, وهذا ينطبق على كل القيم من حيث أنها أدوات عقلية وسلوكية الغاية منها سلامة الإنسان وسعادته في المجتمع, والحدّ من غرائزه وتوجيهها إلى مستوى وجودي راقٍ, ثم إن سلامة المجتمع لا تنحصر في الأفراد فقط بل تتجاوز ذلك إلى بيئته التي يعيش فيها مثل النباتات والمخلوقات الأخرى التي تعيش في بيئته مشتركة, وقد عرف الإنسان تقنين الصيد في البر والبحر وعدم إحراق النباتات والأشجار, ولاحظ أنه كلما ارتقى بسلوكه الأخلاقي تحسنت بيئته أفراداً.

القانون الطبيعي

عرف الإنسان القانون الطبيعي قبل عصر المعرفة العلمية وآمن به رغم أنه لم يجد تفسيراً له, ولكنه تعامل معه كواقع وقدّسه أحياناً, حيث أن الإنسان لاحظ احتراق النباتات اليابسة نتيجة اقتراب النار منها, فعرف أن الأخشاب قابلة للاحتراق دائماً, ولاحظ أن الماء يغلي عند درجة معينة دائماً وأن السقوط من مرتفع يؤدي إلى الموت, وأن الرجال ينجذبون للنساء والنساء ينجذبن للرجال, وأن الغرق في الماء العميق المانع للتنفس يؤدي إلى الاختناق, والموت دائماً وكل فعل ينتج عنه تكرار, يُعتبر قانوناً طبيعياً.

فالبذور إذا أصابها الماء نبتت وعادت للحياة بعد يباس, والذكر إذا اتصل بالأنثى أنتجت نسلاً جديداً, وكل ذلك يجري أمام عيونه وهو يتفكر في هذه الظواهر ويفهمها, ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن الفيزياء, فكان ينسب هذه الظواهر إلى قوى غيبية إلى عهد قريب, ومن خلالها توصل الإنسان إلى المعتقدات الدينية الأولى(غير السماوية) فمارس الطقوس لإبعاد الشرور وإبعاد الحيوانات المفترسة, وإنزال المطر وطلب الصفح والرضا واستقدام الخير, واخترع القوانين الأولى البسيطة مثل طاعة الكاهن أو الشامان, وتقديم الولاء لهم لمصلحة عموم الجماعة, ولتسهيل القيادة والسيطرة والبعد عن النزعة الفردية, لأنها تمثل الموت غالباً. وقوانين الطبيعة أو القانون الطبيعي عرِّف لاحقاً بعد عصر العلم بأنه مبادئ الفيزياء المعروفة والداخلة في جميع الظواهر التي نوّهنا إلى بعضها.

القانون الطبيعي والقانون الوضعي

لقد طور الإنسان مفاهيمه القانونية متماشياً بذلك مع القانون الطبيعي, وأخذ بعين الاعتبار أن لا يخالف القانون الوضعي, حيث أن الطبيعة قالت بغليان الماء عند درجة محدودة, وأن الرجل ينجذب إلى المرأة والسقوط من مكان مرتفع يؤدي إلى الموت, فجاء القانون الوضعي بزواج الرجل من المرأة وليس من رجل آخر لأنه مخالف

"عرف الإنسان القانون الطبيعي قبل عصر المعرفة العلمية وآمن به رغم أنه لم يجد تفسيراً له، ولكنه تعامل معه كواقع وقدّسه أحياناً، حيث أن الإنسان لاحظ احتراق النباتات اليابسة نتيجة اقتراب النار منها، فعرف أن الأخشاب قابلة للاحتراق دائماً، ولاحظ أن الماء يغلي عند درجة معينة دائماً وأن السقوط من مرتفع يؤدي إلى الموت، وأن الرجال ينجذبون للنساء والنساء ينجذبن للرجال"

للقانون الطبيعي, وأن السقوط بفعل فاعل يُعتبر قتلاً إذا أدى إلى الموت, لأن القوانين تدافع عن الحرية ولا يمكن أن تسمح بالقتل, لأن ذلك اعتداء على الحياة واعتداء على الطبيعة والقوانين التي وُجدت لاحترام الحياة والدفاع عنها وعدم الاعتداء عليها. وهناك أمثلة كثيرة ولكن سأكتفي بما ذكرت في هذا الباب.

القيم الأخلاقية لا تحل محل القانون في العصر الحديث

إن القيم الأخلاقية في أصلها هي قيم نفعية مبنية على الأنانية حتى وإن كانت حميدة في أغلبها, وتعتبر قيَماً عليا يسعد بها الإنسان مثل الكرم, حيث أن الكرم هو الجود بما تملك للآخرين والعناية بهم من إطعام وإيوائهم وبذل المال لهم, وسبب ذلك أن الصحراء بيئة قاسية جداً ويمكن للإنسان أن يفقد حياته فيها بسهولة, حيث أن الماء قليل والطعام كذلك والحرارة مرتفعة, ولا توجد طرق يهتدي بها الإنسان المسافر ولا

مطاعم يلجأ إليها لسد حاجته أو فنادق, فكان البدوي يطعم ضيفه ويبالغ في إكرامه لتسود هذه الفضيلة بين جميع الناس, ليس ليتخلص من ماله والمال أعز ما يملك الإنسان, وقد يضحي بحياته في طلب المال, ولكنه يخشى في أعماق نفسه أن يكون هو المسافر وأن لا يجد من يطعمه أو يسقيه أو يأويه, وبذلك هو يقدم للناس كأنه يعتبر ذلك ما يقدمه لنفسه, وهنا تتحد الفضيلة والأنانية والمنفعة.

وكذلك قيمة الشجاعة بالدفاع عن النفس والمال وإغاثة الملهوف وحماية النساء والأطفال وفضيلة العدل, حيث يسعى المجتمع كله لتحقيقها خوفاً من وقوع الظلم على الأفراد, وبذلك كأنهم يدافعون عن أنفسهم بالعدل ليعيشوا بسلام وسعادة, ولكن مع تطور الحياة وتعقيداتها وتطور عقل الإنسان أدرك أن الأخلاق نظام قاصر وغير ملزم رغم أنه وازع ذاتي ينشأ بالسلوك التربوي, ولكنه يُخترق بسهولة ذاتياً واجتماعياً, خاصة أن النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تغيرت وتعقدت, فكان لابد من تطوير القوانين لكي تقوم بتنظيم تلك المجتمعات وردع المعتدين فيها على الحقوق واتساعه العدل, ولا يفوت أحدكم أن مبدأ العدالة نسبي وليس مطلقاً, وأن القيم الإنسانية بالأعم الأشمل يحددها الإنسان, وهي التي تشمل الأخلاق والقوانين والمصالح والفضائل وهي في خلاف بين مجتمع وآخر.

هنا في الشرق مثلاً تنتشر قيم مثل تغطية المرأة والغيرة الشديدة عليها, وتقييد حريتها خوفاً عليها, بينما في مجتمع آخر تخرج المرأة شبه عارية أمام زوجها وأبيها, ولا يعتبر ذلك أمراً مهيناً لديهم, وأذكر هنا قصة الأعرابي الذي زُفّت إليه عروسه على حصان وقام بقتل ذلك الحصان خشية أن يركبه أحد فيجد حرارة مكانها, وهذا ما يضرب فيه المثل بالغيرة عند أهل الشرق من عرب وفرس وغيرهم, وهذا الأمر يعود إلى هاجس الدفاع عن المرأة التي تعتبر حامية للشرف والعرض وحارسة له, وارتبطت هذه المفاهيم عند الرجل بقضية التصورات الجنسية قصوراً منه, لأن الشرف لا يرتبط بالمرأة فقط, فالشرف والصدق والوفاء والتواضع والعدل والشجاعة والإيثار والتسامح, وكل هذه القيم لا تتعارض مع حق الإنسان المشروع في الجنس الحلال, وضمن الشرائع المتعارف عليها, ولكن المبالغات البشرية المبنية على الأحاسيس والمشاعر ليس لها حدّ باعتبار أن الاحاسيس متغيرة بين سخط ورضا وقبول ورفض, وبين العقول نفسها, ففيها الضعيف والقوي والذكي والغبي, لذلك تجد الأفكار بين الناس وما يتعاطون مختلفاً.

ولهذا السبب أيضاً كان لابد من وضع القوانين الوضعية لكل عصر من العصور بما يتناسب مع حركة إيقاع المجتمعات وضبطها على أفضل وأقوى القوانين التي تحقق الفائدة أكبر عدد من الناس, وتحد من الضرر كذلك على أكثرهم, وسلب قوة القوي بواسطة هذه القوانين والتقليل من سطوته وفائض القوة لديه, وتوجيهها إلى قوة اجتماعية عامة من خلال المساواة وتحقيق العدالة في الحقوق.

وتقوم السلطات والدول على انتقاء خيرة العقول والأشخاص الأسوياء لتنفيذ هذه القوانين, ويعدّ القضاة والمحامون والعاملون في هذا الحقل التشريعي أو التنفيذي هم صفوة المجتمع ونخبته, إذ أنهم وُضعوا في مكان لا يمكنهم فيه التهاون أو التعاون مع الفاسدين أو التواطؤ معهم, بل الوقوف بلا ضغينة بوجوه الفاسدين وإلزامهم بالقانون بلا شعور بالانتقام, ولكن تحت شعور تحقيق العدالة, وهذا مكان من النبل بحيث أعجز عن وصفه بعبارات قليلة, ويكفي أن أشير إلى أن القاضي لا ينام الليالي الطوال خشية الظلم لأحد, وأنه محروم من الحياة الطبيعية والتواصل مع المجتمع بسبب وظيفته, وهذا ما أفهمه عن هذه الوظيفة, أما ما أراه فهو يعكس صورة المجتمع بشكل عام, حيث الحديث عن المجتمعات المتقدمة التي نأخذ منها المثال والعبرة والتي نسعى لتقليدها.

للتشريع الديني سؤال سنحاول الإجابة عليه

إن التشريعات الدينية هي الخلاصات, وهي تمثل

الخير المحض, وهي تعبّر عن عقل السماء وليس عقل الإنسان, فلماذا تصطدم فيما بينها وتحصل الحروب والاختلافات, ومحاولات إلغاء المختلف أيا كان.

إن السبب في ذلك من وجهة نظري هو الاختلاف في خيرية الأفعال الأخلاقية وشرّيتها ونفعها وضررها بموجب أداة القياس التي يستعملها كل مجتمع, وأقصد بأداة القياس أخلاق وأعراف ومعتقدات تلك المجتمعات قبل الأديان, والتي من شبه المستحيل أن تستطيع تغييرها والانقلاب عليها, فالماء يأخذ شكل الإناء وغالباً ما تكون أعرافنا هي الإناء, والأفكار اللاحقة أيا كانت تأخذ شكل هذه الأعراف والتقاليد, وأقوى الأمثلة على هذه الفكرة هو المجتمع العربي الإسلامي حيث إنه يعتقد بخيرية التطبيق المثالي لمبادئ الدين نظرياً, ولكنه عندما يقوم بممارسة حياته اليومية يقلد الآخرين ويضرب بالمثل الدينية عرض الحائط, ويبرر ذلك بقوله كل الناس تفعل ذلك ولست الوحيد.

مثال: يقول الله سبحان وتعالى في محكم التنزيل (تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) صدق الله العظيم.

فهل ترى النداءات العشائرية حين تحصل مشاجرة بين عشيرتين كيف أن الناس تتعاون على الإثم والعدوان وليس على البر والتقوى, ذلك لأن فعل الدفاع المشترك للعشيرة قديم ومتأصّل من وقت أن كان الإنسان يسكن الكهوف ويدافع عن نفسه ضد الوحوش والمفترسات والمجموعات الأخرى المعادية, واستمر هذا السلوك الاجتماعي وهو يحظى بالإجماع, بينما يأتي السلوك الديني من قبل مجموعة صغيرة أخرى تبحث عن الآخر فتندب نفسها لإصلاح ذات البين بين المختلفين, تطبيقاً للآية الكريمة (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) والآيات الأخرى المتعلقة بإصلاح ذات البين الذي هو سلوك عقلي نابع من الضمير, والأمر الثاني المؤثر بشدة في سلوكنا الاجتماعي هو المنفعة, كما تقدم أن السلوك الاجتماعي في المثال الأول أخذ شكل الإناء والمعتقد الديني أخذ شكل الماء, كذلك في موضوع المنفعة حيث

> **يجب على البشرية أن تعتمد منهجاً مدنياً عقلياً يجمع كل البشر ويعتبر ديناً إنسانياً عاماً لا يفرق بين البشر على أساس الطائفة والعرق والقومية والجغرافيا، وهذا الدين الإنساني المقصود يجب أن يبنى على محبة الإنسان للإنسان والدفاع عن حرية معتقده أياً كان، وحقه في العيش الكريم، فكما أن الضمير في الإنسان هو صوت الله الذي نقيس به أعمالنا**

أنها مقدمة على التفكير المثالي أياً كان دينياً أو فلسفياً أو أخلاقياً, فالمنفعة هي أداة قياس عامة, فلا يمكن أن تبني فريضة على أذى للنفس أو للآخرين, فإذا خفت من أمر تجنبته حتى إن كان مفروضاً عليك دينياً, وهذا الأمر يقاس في كل مجتمع حسب ثقافته وأعرافه الاجتماعية.

ونتيجة هذا البحث وخلاصة له

يجب على البشرية أن تعتمد منهجاً مدنياً عقلياً يجمع كل البشر ويعتبر ديناً إنسانياً عاماً لا يفرق بين البشر على أساس الطائفة والعرق والقومية والجغرافيا, وهذا الدين الإنساني المقصود يجب أن يبنى على محبة الإنسان للإنسان والدفاع عن حرية معتقده أياً كان, وحقه في العيش الكريم, فكما أن الضمير في الإنسان هو صوت الله الذي نقيس به أعمالنا؛ كذلك يجب أن يكون هناك تشريع إنساني راقٍ مبنيّ على القانون والضمير معاً يكون مظلة ينعم إنسان العصر الحديث بظلها وخيرها, بدل التناحر والحروب والتهجير

واحتلال الأوطان, وهناك إمكانية إذا نظرنا إلى هذا البعد نظرة عميقة استراتيجية بعيدة المدى, حيث أن المنفعة يمكن أن تأتي من خلال فعل سريع ومباشر, ولكنها تكون سريعة وغير كافية, وإذا عمل كل منا لوحده ولمصلحته فقط, فغالباً هذا الأمر يحدث تضارباً بين المصالح, وبالتالي التضارب بين الأشخاص. أما العمل ذو البعد الاستراتيجي كما أسلفت فهو يعطي ولو بعد حين وبقليل من الجهد فوائد كبيرة جداً, لأن المجتمع البشري لديه مشتركات كثيرة جداً حتى لو كان هناك خلاف في اللغة والمعتقدات, وأن الاعتقاد بأن هناك شعوباً أفضل من شعوب أخرى كما جرى قديماً في اليونان الذين كانوا يظنون بأنهم من نسل الإله وأنهم أسياد البشر وليسوا مثلهم, ما لبث أن تغير هذا المفهوم بعد حملة الإسكندر المقدوني وخروجه لفتح العالم, حيث رأى شعوباً لا تقل عن الشعب اليوناني, وتلاشت معتقداته وعرف أن الإنسان يتقدم بالمعرفة وليس بالعرق والمعتقد, وأن الإنسان هو الإنسان ولكن الظروف تختلف وتؤثّر على حياته وسلوكه.

القانون والأخلاق والعنف

إن أي استخدام للقوة من طرف على طرف آخر يسمى عنفاً, وقد تستغربون أن العنف موجود في حياتنا حيث ما تحرّكنا, وحتى في الحب وتربية الأطفال وممارسة السلطة لمهامها ضمن القانون وحماية المجتمع, هناك عنف, فأنت إذا منعت طفلك من أكل المثلجات شتاء أو ضربته لكي يتدارك تقصيره في المدرسة أو أجبرته على لبس الملابس الثقيلة, يعدّ ذلك عنفاً ولكنه ناتج عن حبك له وخوفك عليه, وكذلك العنف ضد النفس لتهذيبها في الصيام ولبس الخشن لدى الصوفية والرهبان, وسلوكهم وترويض نفوسهم ومنعها من الملذات, كله يعتبر عنفاً ولكنه عنف مشروع لأنه جالب للخير ومبعد للشر, وكذلك الدفاع عن النفس والمال والأوطان وخوض الحروب وتعريض الإنسان نفسه للخطر والموت, هو أيضاً عنف ولكنه عنف مشروع ومبرر أمرته كل الشرائع والقوانين واعتبرته من قيم النبل والشرف.

إغاثة الملهوف والتضحية من أجلهم بإخماد حريق أو نصرة ضعيف أو إنقاذ غريق, هو نوع من العنف المشروع.

عنف السلطات والأنظمة

اذا اعتبرنا أن الدولة أرادت إقامة سدّ مثلاً, وأن هناك مجموعة من السكان والقرى ستغرق في المكان المستهدف لبناء السدّ, فإن السلطة ستقوم بإجبار السكان بالتخلي عن بيوتهم وأراضيهم خوفاً على حياتهم, والتخلي عن كل ما لا يمكن نقله يعتبر هذا عنفاً, ولكنه عنف محمود ومشروع وهي ـ الدولة ـ تنقلهم ولا تهجّرهم اعتباطاً, وكذلك الحكم على المجرمين وإصدار القوانين من أبسطها إلى حكم الإعدام, هو عنف ولكنه عنف مشروع لحماية المجتمع من جرائمهم, كذلك الحظر الذي تفرضه السلطات أثناء الجوائح المرضية (كورونا مثلاً) هو من حيث الظاهر عنف, ولكنه عنف مشروع لمصلحة الناس, وهذه الأنواع من العنف المشروع والإيجابي وغيرها تختلف عن العنف غير المشروع وغير المبرر.

مثل العنف الجرمي الذي يكون بالاعتداء على أموال الناس وحياتهم والتعذيب وحجز الحرية لمصلحة شخصية تخص المعتّف أو جهة تستخدمه, هذا يعتبر جرائم يعاقب عليها القانون, ولكنه يعاقب عليها ضمن منظومة قانونية تعطي حق الدفاع عن النفس في عدة مراحل متتالية تمكّن المتهم من استدراك ما فاته من وسائل حتى يصدر بالنتيجة الحكم المبرم النهائي القابل للتنفيذ

أخيراً أقول

إن القانون هو حدّ من حدود الدفاع عن الحياة, وإن الأخلاق هي حدّ من حدود الدفاع عن الحياة.

وإن الحدود الدينية والقوانين جميعها وُجدت لحماية الحياة والدفاع عنها, وأن الأشخاص الذين يعتدون على القانون يعتدون على الحياة, والذين يعتدون على الأخلاق يعتدون على الحياة, والحياة مقدّسة والدفاع عنها حق مقدّس.

الإرهاب أحد أهم المقومات الفكريّة الأساسيّة لحكومة نتنياهو

أنمار نزار الدروبي

وما بعد بن غوريون وشارون وباراك وغيرهم، جاء نتنياهو من مهد البيئة التي أنتجت الأسطورة، وهي أسطورة الإرهاب والإجرام المتوّجة بشمعدان الصهيونية البربرية، وربهم الأعلى (ثيودور هرتزل) مُنظّر الصهيونيّة السياسيّة المعاصرة ومؤسّس دولة إسرائيل، فهم يتقنون دورهم الإجرامي في قتل أبناء الشعب الفلسطيني. لاسيما يمكن القول إنه ليس في العالم القديم أو المعاصر تراث عسكريّ أو سياسيّ لأيّ شعب من الشعوب يشبه التراث الصهيونيّ والإسرائيليّ عن الإرهاب. فالمذابح الجماعيّة التي تحدثت عنها كتب اليهود القديمة في أكثرَ من موضع تمثل النموذج الذي استخدمته، وسارت على هديه فيما بعد المنظمات الصهيونيّة وإسرائيل في دير ياسين، وصبرا وشاتيلا، وكفر قاسم، وفي الجنوب اللبنانيّ وسواها. وهي المذابح التي تمت كلها لتحقيق هدف واحد، هو إبادة الشعب الفلسطينيّ وتصفيته جسديًّا بالقتل والتهجير.

بلا شك أن تاريخ الحركة الصهيونيّة وإسرائيل حافل بسلسلة طويلة من أعمال الإرهاب والقتل الجماعيّ. كما أن التراث الفكريّ الصهيونيّ والإسرائيليّ غنيٌّ بالأعمال الفكريّة

التي تُعبّر عن العنف والإرهاب عقيدةً ووقائع، وكان لكتابات قادة الصهيونيّة وزعماء إسرائيل ومفكريها مؤلفاتٌ كثيرة بحثوا فيها الإرهاب كعقيدة وسياسة ووسيلة، وتحدثوا عن المنظمات الإرهابيّة وأيديولوجيتها ونشوئها وتنظيمها وأهدافها وإنجازاتها والجرائم التي ارتكبتها، بدليل حلم مشروعها التوسعي الاستيطاني كان شعاره (**يا اسرائيل حدودك من الفرات الى النيل**) وضمن هذا الشعار أصبح الإنسان في الشرق الأوسط قرباناً لنيرانهم التي لا تخمد بوجوب تعاليم معتقداتهم العنصرية اللاهوتية. أما التراتيل فهي تمتزج بين صخب أفكار زعماء الصهاينة، تلك الأفكار الملطخة بالدماء على نعي المظلومية في شوارع الديمقراطية التي عبدتها الصهيونية خلال ملحمة تدمير كل آثار الحضارات التي شيدها الإنسان العربي.

هذا ما يحصل في استراتيجيات العهد الاستبدادي الديكتاتوري الذي تعيشه الإنسانية حاليا. فالعقلية التوسعية الاستبدادية للصهاينة قد تجاوزت حدود الممارسة الفردية لتعبر عن طبيعتها في عقيدة تشتمل على جملة أفكار شاذة عن الفطرة الإنسانية ومنطق الأشياء، وكذلك ما حدث مع النازية وما تكرسه الحركة الصهيونية في الوقت الحاضر. فالخطر في هذه الحالة لا يقف عند حدود الفرد الدكتاتور الذي تفرض حالته ظروف معينة تنتهي مع هلاكه أو سقوطه بسبب تصرفاته الشاذة واستهتاره بالقيم الانسانية. عليه فإن مثل خطر عصابة بني صهيون وقادتها قد استشرى كالوباء لأنهم لا يطيقون التعاطي مع متطلبات التقدم الحضاري. لاسيما أن الشعب الفلسطيني كان ومازال يتطلع الى الرقي الإنساني ويحلم بالتحرر من الاحتلال الإسرائيلي الذي عانى منه لعقود. فهو يناضل من أجل نزع سلطة القمع والاستبداد الصهيوني، واستيلاء عصابة متعفنة في دهاليز أفكارها المتطرفة التي سلبت جميع مقدرات الفلسطينيين، ذلك الحلم الذي لم ولن يتبدد وإنما تحول الى كابوس مرعب على الصهاينة.

ومن خلال اغتصاب ومصادرة حقوق الشعب الفلسطيني تم إعلان تصدير الإرهاب الصهيوني والذي يعد أحد أهم المقومات الفكريّة الأساسيّة للحركة الصهيونيّة، لذا فقد اقترن إنشاء دولة إسرائيل بأبشع أشكال العنف وأفظع أنواع الإرهاب. وعندما فكرت الصهيونيّة في إقامة دولة يهودية خالصة في فلسطين علمت أن ذلك لن يتم إلا بإبادة سكان البلاد الأصليين، أو طردهم باستخدام شتى طرق العنف والإرهاب. وهذا هو ما يمثل صلب الخطة الصهيونيّة الرامية إلى احتلال فلسطين، فقد اتبعت الصهيونيّة في غزوها لفلسطين، ومن ثم تثبيت دولة إسرائيل كيانها وتوسيع حدودها وتفريغ فلسطين من أهلها مختلف الأساليب الإرهابيّة، استمدتها من الفكر الصهيونيّ والتقاليد الموروثة في هذا الفكر.

ومن كتاب (**أفيستا**) الذي يلخص الزرادشتية استوحى الفيلسوف الألماني «**نيتشه**» فكرة السوبرمان التي لخصها في كتابه المسمى (**هكذا تكلم زرادشت**) هذه الفكرة ألهبت روح الألمان بمشاعر التفوّق العرقي على جميع الأجناس البشرية وسمحت لهتلر النازي أن يبيح لنفسه قتل الملايين من البشر على اعتبارهم حشرات أو كائنات دونية. إنها نفس الأفكار ونفس المنهل والأصول بذات المنهج العنصري المتوحش الدموي، لكن التساؤل الأهم في كل ما ذكرناه هل هنالك من يدير بشاعة ما يدور على مسرح الواقع البشري ويستثمر كل ذلك سياسياً بهدف الهيمنة الإمبريالية؟

نعم هي أخطاء السياسة الأمريكية القاتلة التي سوف تؤدي إلى ظهور أجيال مقاومة أيا كانت أيديولوجيتها لكن أشد ضراوة وتعقيداً، تتجاوز كل حدود القدرة على مواجهتها، ولا غرابة في صمت البيت الأبيض على ما يقترفه نتنياهو من جرائم ضد الشعب الفلسطيني، ربما سنسمع تصريحاً أمريكياً خجولاً وبارداً لا يتسق مع حرارة الحدث، بينما كانت ومازالت التصريحات بل التبريرات تتوالى من الأنظمة الفاشية لدعم حكومة نتنياهو. ولكي يتم تبرير ما يقترفه نتنياهو من إرهاب ضد الشعب الفلسطيني فلابد من أكذوبة يتغلف فيها أو يختبئ خلف تجسيدها على أرض الواقع. هكذا

تنطلي علينا الأوهام وتبلغ قلوبنا الحناجر ونحن نعايش أحداثاً تتحكم في أذهاننا ومشاعرنا, رغم أن الجدار الفاصل بين حقائقها وبين عقولنا أكثر صلابة من الإسمنت. ما نحتاجه ليس صدمة تعيد لنا الوعي, فقد توالت علينا الصدمات ولم نصحو من مرقدنا.

من المؤكد أن هذا الدمار الشامل الذي يحدث الآن في غزة سيمر مرور الكرام على حساب الشعب الفلسطيني, وإذا أضيف لهذه الحرب حوادث أخرى سابقة في فلسطين, فإن موقف الأمم المتحدة ومجلس الأمن وكل المنظمات الدولية والإقليمية, بات على المحك وهم مطالبون أن يثبتوا قدراتهم على قيادة حازمة توقف العصابة التي تحكم في تل أبيب أن تلتزم حدودها. بينما سيبقى نتنياهو بحاجة ماسة لحقنة تنشيط حيويّة للشعارات الطنانة التي استهلكها وهو يشق طريقه في قتل وإبادة الفلسطينيين, فلم تعد هنالك مدينة أو قرية تقطنها طائفة أو قومية بعينها في غزة إلا وتم تدميرها بالكامل وتهجير أهلها أو تحويل بيوتها الى مقابر تعمر بجثث ساكنيها, باقي التفاصيل معروفة لكل متابع في هذا الشأن.

وبهذا الصدد من حقنا أن نتساءل:

١. هل الذي جرى بمجمل تفاصيله المأساوية المرعبة كان نتيجة أخطاء السياسة الأمريكية؟

٢. أم أن كل ذلك يندرج ضمن إستراتيجية مشروع أمريكي شامل لمنطقة الشرق الأوسط؟

في حالة اعتبار ما جرى تراكم أخطاء سنكون أمام هول من العبث والجهل وفقدان توازن ضمن دوائر صنع القرار الأمريكي. وهذا الاعتبار تنبني عليه نتائج وخيمة تتحمل مسؤوليتها الولايات المتحدة الأمريكية قانونياً وتاريخياً وأخلاقياً. أمّا في حالة اعتبار ما جرى ويجري حالياً بأنه مخطط يندرج ضمن استراتيجية مدروسة بهدف تحقيق أهداف بعيدة المدى في إطار مشروع كبير وشامل, فهذا يجرنا إلى ويلات قادمة قد تكون أدهى مما أصابنا وحاق بمنطقتنا.

"من المؤكد أن هذا الدمار الشامل الذي يحدث الآن في غزة سيمر مرور الكرام على حساب الشعب الفلسطيني، وإذا أضيف لهذه الحرب حوادث أخرى سابقة في فلسطين، فإن موقف الأمم المتحدة ومجلس الأمن وكل المنظمات الدولية والإقليمية، بات على المحك وهم مطالبون أن يثبتوا قدراتهم على قيادة حازمة توقف العصابة التي تحكم في تل أبيب أن تلتزم حدودها"

في السياق ذاته, عندما وصف وعد بلفور عام ١٩١٧ الأغلبية الساحقة من العرب في فلسطين بأنها السكان غير اليهود, كان هذا الوصف المبهم يعني في ذهن صاحب الوعد وفي الزمن الذي صدر فيه, يعدّ السكان البدائيين أحطّ من أن يُنظر فيهم, أو أن تكون لهم حقوق السادة, وهو بذلك يشجع الإرهاب الصهيونيّ الاستعماريّ على أن يتمادى ضد أولئك البدائيين. وعندما قدّم «وايزمان» إلى المجلس الأعلى لمؤتمر السلام المنعقد في باريس عام ١٩١٩ خطته التي تضمنت الحد الأدنى لدولة اليهود المقبلة, وأدخل فيها كل فلسطين وجنوب لبنان وجنوبي سوريا حتى دمشق وخليج العقبة, والحجاز حتى معان, ومنابع مياه الأردن في سفوح جبل الشيخ, كان ذلك فعلاً من أفعال العنف السياسي.

دور السريان في تاريخ الرقة

علي سويحة

مقدمة :

إنّ حالة التعددية في المجتمع عامل مهم في تشكيل اللوحة الفسيفسائية الجميلة التي تضفي جمالاً وزينة للمجتمع بكلّ أطيافه وثروة هامة لا تنضب لأبنائه في المستقبل ممّا ينتج عنه توافقا اجتماعيا يشكل عيناً عذبة لتأسيس نظام مجتمعي فاضل ومتاح في بقعة صغيرة جميلة من الأرض، طيبة الثرى، تصغر عن المدن، وتكبر عن القرى؛ هذا التشبيه الموجز والمعبر قيل عن مدينة الرقة البيضاء أو (تالينيقوس) التي تعرف اليوم بـ(المشلب) وهي متصلة بالرافقة شرق باب بغداد.

ما نتناوله في بحثنا هذا من تاريخ وإضاءات حضارية وثقافية ولاهوتية يستند معظمه إلى مصادر سريانية دوّنها المؤرخ: البطريرك دينسيوس التلمحري الرقي، وأيضاً من مدونات سيرجي ايوانيس الرصافي، الذي أضاف التلمحري ستة قرون من تاريخه إلى كتابه (تاريخ الأزمان) وكذلك كتاب ثيودوسيوس التلمحري شقيق البطريرك التلمحري أسقف الرقة، وكتاب البطريرك الموسوم بـ(تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير) جله من المؤرخين السريان القالون يقين، وهو يتحدث عن التاريخ الديني والدينوي لمنطقة الجزيرة الفراتية، وجانب كبير منه عن أحداث دينية ودنيوية لقالينقوس إضافة لذكر أحداث الدولة الأموية والعباسية .

أسماء الرقة القديمة:

من أسمائها: كلنه (ك.ل.ن.ه) كما ورد في التوراة حسب قول الرحالة بينامين التطيلي، كما أضاف لأن عزرا الكاتب بنى كنيساً بها حين مروره بها أثناء رحلته من بابل إلى البيت المقدس .

كما أنّ هناك علاقة ما بين (كلنه) اسمها الوارد في التوراة كما أسلفنا وما بين كالينكوس، التي يحب السريان الإشارة إليها بهذا الاسم فيقولون: قالينقوس، وأعتقد أن الاسم كالينه، ثم أضيفت إشارة الاسم اليوناني وأصبحت كالينكوس .

ويذكر ابن العبري: أم باني الرقة وقرقيسيا معاً هو بطليموس المحسن في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، كما ورد أنّ للرقة أسماء أخرى عديدة منها نيقفوريوم (اليوناني)، كالينكيوم (السلوقي) مما يؤكد رواية التطيلي الرحالة أن الاسم من جذر (كلنه) كالينكون ولينتوبولس (روماني وبيزنطي) قالنيقوس (كالينكوس) ورقوقو إشارة لرقرقة مياهها وتعدد أنهارها .

الرقة البيضاء: اسمها في العصر الراشدي والعصر الأموي، البياض،دورها أو تمييزاً عن رقة أخرى عند مصب البليخ بالفرات واسمها (الرقة السوداء) والسواد عند العرب إشارة لكثرة الخضرة ولا زال اسمها (الرقة السمراء).

وفي عام ١٥٥ه/٧٧١م بنى الخليفة العباسي مدينة أسماها الرافقة إلى جانب الرقة البيضاء من الغرب.

ويقول ابن الأثير الجزري: بعد خراب الرقة البيضاء (قالنيقوس) السريانية، أخذت الرافقة اسمها حيث يقول ابن الجزري في ذلك (التي تسمى اليوم الرقة) كانت بالأمس تسم الرافقة أما اليوم (قرية المشلب المتصلة بالرقة كانت قبلها تدعى الرقة البيضاء، وقبل ذلك كانت قالنيقوس السريانية) ورأيت جزءاً من سورها .

لا شك أن لقالنيقوس أو (تالينيقوس) السريانية تاريخاً مشرفاً كما كان الرقة البيضاء، وفيما بعد فقد كانت تالينيقوس منارة للعلم والثقافة فالمدارس منتشرة فيها والمساجد تعمر بالمصلين، وفيها دير العمود الشهير، وكاتدرائية الرقة، ودير زكا شمالها .فكل هذه الرموز الحضارية الإسلامية كانت أو سريانية تآلفت وتعايشت أتباعها بتوافق وانسجام رائع .

وهناك دير مار يوحنا في دامان (السحلبية)، ودير الأكواخ، والكوخ جمعه أكواخ، وهو البيت ذو السقف المسنّم، واسمه دام في السريانية – كما اعتقد وجمع جمعاً سريانياً فكلمة دام تجمع على دامان فكان اسم هذه المدينة وربما تصغير دام، يقول الدكتور قتيبة الشهابي : الدام مصطلح محلي يعني البيت المقام على الزل والطين وجمعها دامات (معجم المواقع الأثرية في سوريا).

روايات البطريرك مار دينسيوس التلمحري التاريخية :

تميز البطريرك مار دينسيوس التلمحري بدقة روايته التاريخية ومصداقيته حيث يقول الباحث البريطاني (ج.ب.سيجال) معجباً بمصداقية البطريرك مار دينسيوس التلمحري ودقة روايته وأسلوبه المتميز (نحن مدينون بهذا الحكاية وتفاصيلها الفنية إلى دينسيوس التلمحري الذي كان أحد أفراد عائلة

تلمحرايا، التي لها (قربى بال روسبايا) كما ورد في كتاب الرها المدينة المباركة ص٢٥٠ .

وعن انتخابه بطريركاً يقول دينسيوس التلمحري : رسموني شماساً يوم الجمعة في دير العمود، وكاهناً يوم السبت في دير مارزكا، ويوم الأحد الفاتح من آب ٨١٨م ورقوني إلى درجة رئاسة الكهنوت في كنيسة الرقة الكبرى، ونادوا بي وارثاً للكرسي، أنا الذي لا أستحق أن أحل سيور الأحذية، مستشهداً الله، بأني لم أبتل بمحبة الزعامة حتى تخطر على بالي قط مثل هذه الرغبة التي تراود الكثيرين (تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير ج٣ ص٣) والنص أه مار ميخائيل من تاريخ التلمحري من بداية الكتاب. **في هذا النص ذكر ثلاثة مواقع وهي**

(ديرزكا، دير العمود، كنيسة الرقة الكبرى) ومن المعتقد أنها هي كاتدرائية الرقة الكبرى .

وأما روايته عن دحر العرب للروم، فيقول عن انتصار العرب وتراجع هرقل بعد هزيمته نحو الشمال ما يلي :

(ولم يسمح هرقل لأحد من الارثوذكس/السريان بزيارته، لاستعادة كنائسهم المغتصبة) ولم يقبل شكواهم بصدد اغتصاب كنائسهم، وإن الله إله النقمة الذي وحده له السلطان على كل شيء، وهو الذي يغير كل شيء، وهو الذي يغير كما يشاء ويعطي لمن يشاء ويقيم عليه الضعفاء، إذ رأى خيانة الروم الذين كانوا ينهبون كنائسنا وأديرتنا ويقاضوننا بلا رحمة، وجاء بأبناء اسماعيل من الجنوب، لكي يكون لنا الخلاص من أيدي الروم، بواسطتهم، أما الكنائس التي كنا فقدناها باغتصاب الخلقيدونيين، إياها فبقيت بيدهم، لأن العرب لدى دخولهم المدينة (الرها) أبقوا لكل طائفة ما بحوزتها من الكنائس، وقد فقدنا في هذه الفترة كنيسة الرها الكبرى وكنيسة حران، غير أنّ فائدتنا لم تكن يسيرة حيث أننا تحرّرنا من خبث الروم ومن شرهم وبطشهم وحقدهم المرير علينا وتمتعنا بالطمأنينة).

" يذكر ابن العبري: أنّ باني الرقة وقرقيسيا معاً هو بطليموس المحسن في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، كما ورد أن للرقة أسماء أخرى عديدة منها نيقفوريوم (اليوناني)، كالينكيوم (السلوقي) مما يؤكد رواية التطيلي الرحالة أن الاسم من جذر (كلنه) كالينكون ولينتوبولس (روماني وبيزنطي) قالنيقوس (كالينكوس) ورقوقو إشارة لرقرقة مياهها وتعدد أنهارها "

(تاريخ مار ميخائيل السرياني (١٩٩٦) مطبعة دار ماردين، حلب، ج٢، ص ٣٠٢)

قصة دير مار يوحنا ودير الأكواخ :

أما دير مار يوحنا في مدينة دامان التي ولدت فيها ثيودوا الدامانية، وكانت ترافق والدها الراهب إلى دير الأكواخ، حيث تربت على الفضيلة، وبعد زواجها من جوستنيان ابن الأخ هدمت دير الأكواخ أو رممته ثم جعل اسمه دير مار يوحنا .

اللغة السريانية:

تعتبر اللغة السريانية من اللغات العريقة والمهمّة وتعدّ مصدراً مهمّاً، إن لم نقل أماً للغة العربية، وهناك مشتركات كثيرة ومفردات كبيرة بينها وبين اللغة الكلدانية واللغات السامية الأخرى، ولها علاقات مهمة مع لغة القرآن، وارتباطات كثيرة لا يمكن حصرها، كما أن لهجة أهل مدينة الرقة تأثر تبعاً لمفردات السريانية الكثيرة وهذا طبيعي

لأن اللغة هي كائن حي يقرض ويقترض .

مؤرخو قالينوس من السريان:

هناك العديد من المؤرخين الرقيين السريان ومنهم :

دينيسيوس التلمحري، وأخوه ثودوسيوس التلمحري، وسيرجي إيوانيس (الرصافي)

- ترجمة الإنجيل للعربية :

من المفيد الذكر أنّ الإنجيل تُرجم إلى العربية بناء على طلب أمير الرقة عمير بن سعد الأنصاري – عامل الخليفة عمر بن الخطاب على الرقة والجزيرة، وكان مركزه بالرقة البيضاء ومنها يدير الجزيرة والرقة معاً، وقد قام بعملية الترجمة عرب من قبائل عقيل وطي وتنوخ وقضاعة وتغلب.

تراجمة قالينوس السريان:

ظهر في سريان قالينوس العديد من التراجمة منهم:

عيسى الرقي طبيب سيف الدولة الحمداني، أفتيموس الرقي واسمه عبنسة بن اسحاق، البطريرك بطرس الرقي، يوحنا التلي الرقي، بولس أسقف الرقة .

تأثير الموسيقى السريانية في المجتمع الرقي والفراتي:

تأثر المجتمع الرقي والجزيري بالموسيقى والألحان السريانية نتيجة حالة التعايش الاختلاط الجمعي والتآخي والتآلف والانسجام الذي ساد المجتمع لهذا ظهرت العديد من الألحان المستمدة من الموسيقى السريانية ومنها:

لحن الميمر:

والميمر، هو شعر ديني من ميموتو السريانية بمعنى قول عيظة شعر ديني وقد اشتهر يعقوب السروجي أسقف بتان في مقاطعة سروج الفراتية المتوفي عام/٥٢١م/ بميامره ومنظوماته الشعرية الدينية السريانية، فحوله أهل الرقة والجزيرة إلى لحن غنائي جميل (قدود) أي انهم ألغوا شعرا وجعلوا لحنه على لحن الميمر الديني وقافيته الراء، كقول الشاعر الشعبي المعروف محمود الذخيرة:

يا أم الخديد الزروتين الخطرة

ما شفتهم من يوم ذبح الخطرة

قالت هوانا يا حلو بيه خطرة

بالك تجينا بغير طوب وعسكر

لحن الطواح:

لحن سرياني حزين خاص بالنساء لرقته ويغنى حين وداع العروس أو حين تزف إلى بيت الزوجية وطاح بالسريانية بعد نأى/ارتمى (اللآلئ السريانية ٧٣٨ص).

وطاح الشيء من يده ارتمى/سقط.

قال الأخطل وهو سرياني من قبيلة تغلب المعروفة:

تطايخ الطل عن أعطافها صعداً

كما تطايح عن ماموسة الشرر

ومن أمثال شعر الطواح السرياني:

- فلانة لا تبجين قبلج بجينا
- وهذي كتبة الله وإش طالع بأيدينا.

كما أن الطواح معروف في العراق ومن أمثلته:

- غربي قلعة حمرين رحنا وبجينا
- من فرقة الحلوين وإش طالع بايدينا

وجبل حمرين في العراق كما هو معروف على الحدود الإيرانية العراقية. البطاركة السريان من

قالنيقوس(الرقة).

البطريرك لفظة يونانية وتعني رئيس الآباء وهو رئيس رؤساء الأساقفة بينما البطريق باللاتينية فتعني: قائد الجيش (اللؤلؤ المنثور ص٤٩٨) وقد تولى هذا المنصب الخطير أكثر من أربع شخصيات دينية كبيرة من أهل قالينقوس) السريان في الرقة البيضاء، وهم:

البطريرك ماردينسيوس التلمحري، ولد في تلمحرة على البليخ وتوفي عام ٨٤٥م ودفن في دير قنسرين (اللؤلؤ المنثور ص٣٣٨ وما بعده).

البطريرك يوحنا الرقي المتوفي عام ٨٧٤م. (تاريخ مار ميخائيل السرياني ج٣ص ٤١٩).

البطريرك قرياقس الرقي المتوفي عام ٨١٧م ودفن في الموصل.

البطريرك مار بطرس بن بولس القالونيقي الثالث ونسبته إلى قالنيقوس توفي سنة ٥٩١ ودفن في دير الجب الخارجي (تاريخ مار ميخائيل السرياني ج ٣ص ٤١٠ وما بعد).

ومن الشخصيات القالونيقية المرموقة: يوحنا قورسيوس الرقي النبيل: من أسرة ثرية نبيلة، تولى أسقفية تلا، وهو شخصية مرموقة ومؤثرة توفي سنة ٥٨٣ م (اللؤلؤ المنثور ص ٢٣٦-٢٣٧) و(تاريخ الرقة للدكتور صالح حباب ص٤٠١).

قالينقوس مركز كرسي البطاركة الرقيين: كان مركز البطريركية السريانية قبل البطريرك دينسيوس التلمحري بين: انطاكيا والرها وحران، وفي عهد البطريرك دينسيوس التلمحري أصبحت الرقة كرسياً للبطريرك وفيما بعد أضيفت حلب كمركز لكرسي البطريركية.

وفي قالينقوس سمي فيها أساقفة ومطارنة وقساوسة أكثر من مائة شخصية دينية، وخاصة في عهد دينسيوس التلمحري.

"تعتبر اللغة السريانية من اللغات العريقة والمهمة وتعدّ مصدراً مهماً، إن لم نقل أماً للغة العربية، وهناك مشتركات كثيرة ومفردات كبيرة بينها وبين اللغة الكلدانية واللغات السامية الأخرى، ولها علاقات مهمة مع لغة القرآن، وارتباطات كثيرة لا يمكن حصرها، كما أن لهجة أهل مدينة الرقة تأثر تبعاً لمفردات السريانية الكثيرة وهذا طبيعي لأن اللغة هي كائن حي يقرض ويقترض"

الأسر السريانية النبيلة: عرف في الرقة العديد من الأسر السريانية النبيلة وكان مركزها في الرها، وهي: أسرة رصافيا/وسابيان وأصلحها من الرصافة / وأفاقت في الرها.

أسرة تلمحرايا: وأصلها من تل محرة على البليخ شمال الرقة، واسمها الآخر/ تل المناجير أو تل المناخير وهذه الأسر ذات قربي وبينها مصاهرة، وهي من الأسر الثرية.

ومن أسرة رصافيا كان المؤرخ سيرجي إيوانيس

ومن أسرة تلمحرايا: كان ماردينيسيوس البطريرك والمؤرخ، كما نبغ من أسرة تلمحرايا ثيودوسيوس التلمحري، وكان أسقف الرقة، وحين تولى أخوة سدة البطركة أقام في الرها وتولى اسقفيتها. (الرها: المدينة المباركة -تأليف سيجال ص ١٧٨-١٥٣)

أديرة قالينقوس(الرقة):ومن أشهرها: دير الرصافة وفيها خمس كنائس كبيرة وعدة أديرة. كاتدرائية

الرقة الكبرى.

الكنيسة الكبرى في قالينقوس (الرقة البيضاء) /ديرزكا:

ويعتبر من أرقى الجامعات اللاهوتية والعلمية ويتموضع خارج قالنيقوس/دير الباعوث - دير العذارى - دير بيت ريثير على البليخ - دير لبنى للتغالبة على الفرات.

(وصل رهبان دير قيدار(قدر) إلى كنيسة قرب قالينقوس ذات أعمدة وكانت الملكة ثيودورا الدامانية قد أقامتها فوسعوا المكان وسكنوه وسمي دير العمود.

قصة دير الأكواخ:

كانت ثيودورامن مدينة وامان القريبة من قالينقوس وهي ابنة كاهن، وكان والدها يصطحبها منذ الصغر إلى دير عرف باسم (**دير الاكواخ**) لنيل بركة المتوحدين، فنشأت على الإيمان القويم ملتزمة بالعضة والطهر والإيمان وحدث أن أرسل الملك جو ستنيان العم ابن أخيه جو ستنيان القائد إلى المنطقة أي منطقة بليحا وجابورا في دامان سمع عن ثيودورا ويعني اسمها في اليونانية (هبة الله) وطلب يدها من والدها فشق الأمر عليها لاختلاف في المذهب فوافقا لأنهما لم يستطيعا أن يعصيا أمر الملك وكان هذا بتدبير وإرادة إلهية لكي يخفف من جرائمه ضد الأرثوذوكس حيث صارت لهم عونا وعزاء منذ تنصيبها ملكة حتى وفاتها والجدير بالذكر أن الامبراطورة ثيودورا الدامانية هي التي شيدت دير العمود في فترة كانت الرقة مدينة سريانية شهيرة وكانت تتصل بالمدن السريانية الأخرى مثل تل موزل والرها وعينتاب وحلب وغيرها .

وذكر المؤرخون أن البيزنطيين عندما بنوا كنائس مسيحية في منطقة الرها ناطقة باليونانية اعترف السريان أنهم لم يفهموا اللغة، لأن الناس في الأرياف كانوا ناطقين بالسريانية فقط، لهذا قامت الامبراطورة البيزنطية (وهي سريانية الأصل من مدينة منبج) ببناء كنائس للناطقين بالسريانية وأخرى للناطقين باليونانية، ويذكر البطريرك الباحث مار أفرام الأول برصوم أنّ الإمبراطورة ثيودورا/ القرن السادس تبرعت بمالها لبناء دير العمود السرياني الواقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات السوري، وظل الدير قائماً حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ونذكر أيضاً من الأديرة السريانية في الرقة دير مارزكا الشهير الذي تخرج منه عشرات الأساقفة والرهبان ومنهم يوحنا للتلي وهو من مدينة تل موزل القريبة من مدينة رأس العين وقد زاره يوماً الخليفة العباسي هارون الرشيد وأعجب به وبرهبانه .

ويذكر أنّ الكنيسة السريانية عقدت في الرقة في عهد البطريرك السرياني الشهير التلمحري ثلاثة مجامع كنسية مما يدل على مكانة وموقع وأهمية الرقة السريانية بالنسبة للكنيسة وظلت الرقة ومحيطها بأغلبية سريانية مسيحية إلى أن غزاها السلاجقة المغول والعثمانيين ويعتقد أن السريان المسيحين انقطعوا عن الرقة نهائياً بعد غزوات تيمورلنك الشرسة، ثم عادوا إليها مجدداً في بداية القرن العشرين بعد تحرر سوريا من الاحتلال العثماني .(لغة حلب السريانية، اللؤلؤ المنثور،٢٠١٧م).

وأنت في سلامك الأبدي.. سلام عليك

أحمد كايا حين تعضُّ البلاد أصابع أبنائها ويعلو الصراخ فوق راية الوطن

نوزاد جعدان

هناك في فرنسا حيث تسدل القواميس ستارها على آخر مفرداتها وحين ينتهي تصريف أفعال الحياة، ألقى الفنان والشاعر الكردي التركي أحمد كايا وشاحه على مقبرة بير لاشيز حيث يَرقدُ صيّادو المفردات الشقية والشاقية، يرتلون الزمن في المسافة ما بين اللحظة ولقطة الختام في البعد الوجودي.

«كايا» الفنان متعدد المواهب، شريكنا في رحلات الإياب حين يخيم الحزن وتحبل الثانية بآلاف الذكريات، لنحزم معها كل عدة الفرح، تراهُ يغرف من بحر الحياة وعاء من الكلمات، ويعرف جيداً أنّه سيعزف من خلالها لحنَ كلّ بيت مظلم في مدينة مضيئة، ويحيي كلّ غصن مكسور في الغابة..

أرقٌّ لا يعرف الرقاد، مع ذلك تجده أرقّ من ورقة بيضاء ومن ريق البلابل.. لكنّه يبقى ذلك الطفل المشاغب، صيّاد المفردة الشقية، يُؤرق حراس الكلمات، يُعبّر عن روح الشارع، وينقل كلمات أترابه ممّن عانوا الظلم وخيبة الوطن ويرفع نخبهم بنجابة النخب وصخب الترب..

سننتظر طويلاً حتى نجد صوتاً كصوته، وذوقاً فنّيّاً كذوقه، وتصرّفاً كتصرفاته، لا يعرف الاعتدال في شيء، لأنه واسع الخيال وحاد الحس وسليم القلب، يهيم في أودية الإبداع، ويجيد كل ما يغنيه في الدور والتوشيح والطقطوقة والمونولوج والموال والقصيدة وإعطاء كل كلمة المعنى الذي يترجمها ترجمة صادقة فالتوفيق يأبى إلا أن يلازمه في جميع ما يغني.

هو موجود لا يجد للوجود معنى إلا في صخبه وتوتراته فهو يعزف على الكمان والطنبور والبغلما، ومجيد في علم النغم، وأيضا ببحور الشعر وقوافيه، يمتاز بتكوين سليم لا عيب فيه، يضبط نسب مقاماته ضبطاً محكماً، ويتبين في الجو مسارح أنسه الأولى ومعاهد هواه القديم.

اختطفه القدر في ريق نضارته تخليصا له من كل السفاكين الذين اغتالوا شبابه، غنى من خلال هذا العمر القصير ما يزيد عن مائتي أغنية كما لحن ما يزيد عن مائة وتسعين أغنية إضافة إلى كتابته كلمات ما يزيد عن خمسين أغنية، وهذه إحصاءات تقريبية بعد جهد مضنٍ في البحث.

ما يشبه السيرة الذاتية:

وُلد أحمد كايا في الثامن والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٥٧ في ولاية ملطية في تركيا، وكان أحمد هو الطفل الأصغر لعائلة مُكوّنة من خمسة أشقّاء إلى جانب الوالدين، تلقّى علومه الابتدائية والمتوسّطة في ملطية حتّى عام ١٩٧٢، عندما كان في السادسة من عمره لم يكن يجد سوى صندوق صغير من الصفيح (التنك) ليروي شغفه بالموسيقا حيث كان يستعمله كطبلة ولما كان في الثامنة من عمره اشترى له والده طنبوراً، عندما انتقلَ مع عائلته إلى مدينة اسطنبول على إثر تقاعد والده من عمله، وعندها لم يستطع إكمال تعليمه الدراسي بشكل طبيعي في المدارس فقرّر التخرّج من المدرسة الثانوية الخارجية والالتحاق بمعهد تعليم الموسيقا وتحديدًا في قسم الكمان.

غنّى أحمد كايا لأول مرّة على المنصّة أو المسرح وهو في عمر التاسعة، من خلال إحدى الحفلات التي نظّمها عمال المصنع الذي كان والده يعمل به في مدينة ملطية.

بدأ كايا العمل في محل لبيع الكاسيت، وفي ذلك الوقت كان معظم رواد المحل، وزبائنه من طلاب الجامعة في الوقت الذي كان فيه الذوق الجماهيري العام ميالاً لنوعين من الموسيقا والمتمثلين في تيارين اثنين تيار أورهان غينجباي، وهو فنان تركي يغني للعاطفة والمعاناة وتيار روحي سو وكان فناناً مغنياً للقومية والوطن سوى أنّ معظم الطلبة الجامعيين كانوا ميالين لسماع روحي أكثر من غيره وذلك ما شدّ أحمد كايا الى سؤال مهم ما الذي يجذب كل هؤلاء الطلبة لفن روحي سو، وللحصول على جواب لسؤاله قرّر أن يسمع سو ويفهم منه ثم أحبه كايا ليبدأ بممارسة الموسيقا.

عندما كان أحمد كايا في عمر السادسة عشر سُجِنَ بسبب طباعته وتوزيعه لملصقات سياسية ممنوعة، وعندما خرج من السجن التحقَ مع أصدقائه باتحاد الوحدات الشعبية في ذلك الزمن ومارس معهم العديد من الأنشطة السياسية.

تزوج لأول مرة عام ١٩٧٩ من السيدة أمينة التي أنجبت له ابنته تشيدم واستقر في أسطنبول وبعد الأحداث السياسية والانقلابات في مطلع الثمانينات واعتقال ومقتل الكثير من أقرانه انفصل عن زوجته عام ١٩٨١.

في أوائل الثمانينات وقبل أن يبدأ أحمد كايا مسيرته الفنية، عمل كسائق لسيارة أجرة في مدينة

إسطنبول، وكعازف في فرقة المطرب فيردي طيفور، وأثناء تعليمه الموسيقى لأحد أبناء المطلوبين لدى الحكومة التركية تمّ القبض عليه وسجنه لمدة ثلاثة أشهر، بعدها أقام حفلات موسيقية مع الموسيقار حسين ديميريل، ولكن سرعان ما افترقا.

في عام ١٩٨٥ تزوّج أحمد كايا من السيّدة غولتين خيال أوغلو والتي تعرف عليها من خلال المطربة سيلدا بهاجان، وهي شقيقة الشاعر يوسف خيال أوغلو، ورزق منها بابنته الثانية ميليس.

وبعد تحسن وضعه المالي بفضل نجاح ألبومه الرابع الذي صدر عام ١٩٨٦، انتقل هو وزوجته إلى حي بيوغلو في منزل قريب من مدرسة غلطة سراي الثانوية. وبسبب الجانب السياسي اليساري والكردي في أغانيه، فقد لفت انتباه الحكومة التركية. واعتقل لعدة مرات ثم صادرت الحكومة في عام ١٩٩٢ سيارته، فأجابها بأنه يمكنه ركوب حمار أيضًا.

في الحادي عشر من عام ٢٠٠٠ تُوفيَ أحمد كايا إثر نوبة قلبية تعرّضَ لها في مدينة باريس في فرنسا، ليُدفَن مُباشرةً في مقبرة بيرلاشيز بجوار رفيق دربه المخرج يلماز غوناي في باريس بعد جنازة كبيرة تأثّر فيها جمهور كايا الواسِع.

استمرَت مسيرة أحمد كايا الفنية خمسة عشر عامًا أصدر خلالها سبعة عشر ألبوماً موسيقياً، عاش من خلالها حياة كبيرة على الرغم من قصرها.

يعد كايا إضافة إلى كونه مغنياً وملحناً وشاعراً ذوّاقاً في اختيار كلمات الشعراء، فاختار خلال مسيرة أغانيه التي بلغت ما يزيد عن مِئتي أغنية، خمس عشرة قصيدة للشاعر إتيلا إلهان وثلاث عشر أغنية للشاعر حسن حسين كوركمازجيل، واثنتين وثلاثين قصيدة ليوسف خيال أوغلو وثماني قصائد لعلي تشنار، ومثلها لنوزاد جيليك إضافة إلى أربع قصائد لصباح الدين علي، ومثلها لأحمد عارف، وخمس لأنور غوكتشه واثنتين لناظم حكمت وأربع لأولكو تامر واثنتان لرضا توفيق، ومثلها لنهاد بهرام إضافة إلى قصائد لكلّ من الشعراء أورهان والي، وعارف دمر، ومحمد عاكف أرصوي وغيرهم.

النتاج الفني:

بدأ أحمد كايا مسيرتَه الفنّيّة في منتصف الثمانينيّات من القرن العشرين، وسُرعان ما استطاع الوصول إلى قلوب العديد من الجماهير التركية من خلال كلماته وألحانه إلى جانب صوته الجميل.

"ولد أحمد كايا في الثامن والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٥٧ في ولاية ملطية في تركيا، وكان أحمد هو الطفل الأصغر لعائلة مكونة من خمسة أشقاء إلى جانب الوالدين، تلقى علومه الابتدائية والمتوسطة في ملطية حتى عام ١٩٧٢، عندما كان في السادسة من عمره لم يكن يجد سوى صندوق صغير من الصفيح (التنك) ليروي شغفه بالموسيقا حيث كان يستعمله كطبلة"

في نيسان من عام ١٩٨٥ أصدرَ كايا ألبومه الأول والذي كان يحمل عنوان (Ağlama Bebeğim لا تبكِ يا طفلي) وغنّى فيه حوالي أربع عشرة أغنية، لحّنَ ثلاث عشرة أغنية منه، وكتبَ كلمات ثلاث أغاني منها عنوان الألبوم، إضافة إلى ثلاث قصائد غناها للشاعر صباح الدين علي (١٩٠٧-١٩٤٨) وقصيدتان لأحمد عارف (١٩٢٧-١٩٩١) وقصيدة لناظم حكمت (١٩٠٢-١٩٦٣) وأخرى لمحمد عاكف آرصوي (١٨٧٣-١٩٣٦) وواحدة لعارف دمر ١٩٢٥-٢٠١٠.

يقال: إنّ الشريط الأول لأحمد كايا كان مهداة الى أمه، وكان يعتقد أنه سيسجن فور انتشار هذا الشريط في الأسواق، ولم يكن ذلك ليزعجه، بل على العكس تماماً، كان يتمنّى لو أنّه سُجن بسبب شريطه الغنائي حتى يعيش في سجنه بسلام بعيداً عن ضغوط الحياة الاقتصادية، لذلك

جاء شريطه بنبرة سياسية، لكنّ كايا الذي كان يعي جيداً أنّ مثل هذا الشريط، ربما يودعه في السجن مدى حياته، فإنّه ونظراً لتخوّفه فقد لحّن لأحد الشعراء القوميين محمد عاكف أرصوي وذلك كمناورة منه حتى لا يظل في السجن طويلاً خاصةً أنّ آرصوي هو نفسه كاتب النشيد التركي. وبعد نزول شريطه الى الأسواق وبلغت مبيعات أول شريط غنائي له خمسمائة ألف نسخة، اعتكف كايا في البيت ينتظر البوليس للقبض عليه لكن أحدًا لم يأتِ ذلك المساء، و في صباح اليوم التالي التقى بصديقه في الشارع، حيث بارك له الأخير وعبر له عن إعجابه الشديد بأغانيه الرائعة. أحمد كايا الذي بقي واقفاً كالمسوع لم يصدّق ما سمعه، وأكّد لصديقه بأنه سيدخل السجن، لكنّ صديق كايا أكّد بأنّ أغانيه الوطنية والإنسانية أشعرتهم بإنسانيتهم، وأنّه أصبح شهيراً ومحبوباً من الجميع.

صادرت الرقابة أوّل ألبوم لأحمد كايا بسبب توجهّاته، وأفكاره السياسية، ومن ثمّ رُفِعت الرقابة عنه وأُصدِرَ للعلن.

وفي كانون الأول من العام ذاته، أطلَقَ ألبومه الثاني بعنوان «Acılara Tutunmak» «التشبث بالألم» وضمّ عشر أغاني لحّنها جميعاً، كما كتب كلمات ثلاث منها إضافة إلى ست قصائد للشاعر حسن حسين كوركمازغيل (١٩٢٧-١٩٨٤) إحداها عنوان الألبوم، وقصيدة لكل من الشعراء أورهان والي (١٩١٤-١٩٥٠) وأخرى لأتاوول بهرام أوغلو (١٩٤٢) وأنور غوكتشه (١٩٢٠- ١٩٨١) .

في عام ١٩٨٦ كانت انطلاقته الفعلية نحو الجمهور التركي مع ألبوم أغنية الفجر Şafak Türküsü الذي ضمّ إحدى عشرة أغنية لحّنها جميعها، وكتبَ كلمات ثلاث منها، إضافة إلى تلحينه إلى خمس قصائد للشاعر نوزاد جيليك (١٩٦٠) من إحداها عنوان الألبوم، وقصيدة واحدة للشاعر أنور غوكتشه وأخرى لحسن حسين كوركمازجيل وثالثة لإبراهيم بُرا أيان أوغلو (١٩٤٦).

ولعلّ ما ميَّزَ هذا الألبوم منذ إصداره أغنية الألبوم وعنوانها وأكثر أغانيهِ شُهرةً، كونها قصيدة من قصائد الشاعر نوزاد جيليك التي كانت ممنوعة في تلك الفترة بسبب الرقابة، وفي هذا العام تحديدًا حُكِمَ على شاعر هذه القصيدة بالإعدام، والجدير بالذكر أنّ هذا الحكم لم يُنفَّذ وأُطلِقَ سراحه في ديسمبر من العام التالي.

في نهاية العام ذاته أصدر أحمد كايا ألبوم اللحظة آتية An Gelir الذي ضمّ إحدى عشرة أغنية لحّن عشراً منها وكتب كلمات أربع أغاني أما البقية فكانت قصائد للشعراء ناظم حكمت ونوزاد جيليك وحسن حسين كوركمازجيل وأولكو تامر ١٩٣٧-٢٠١٨ وثلاثة قصائد للشاعر اتيلا إلهان (١٩٢٥-٢٠٠٥) أحدها أغنية الألبوم.

في عام ١٩٨٧ أصدر ألبوم الديمقراطية المتعبة «Yorgun Demokrat» واحتوى هذا الألبوم على اثنتي عشرة أغنية، كسابِق ألبومات كايا فقد لحَّن مُعظَم أغانيه وكتبَ بعضها إضافة إلى قصائد لكل من الشعراء يوسف خيال أوغلو (٥٣-٢٠٠٩) وزكي أوزغر أركداش (١٩٤٨-١٩٧٣) وأنور غوكتشه (١٩٢٠-١٩٨١) وأتيلا إلهان، وحليم شفيق غوزالسن (١٩١٣-١٩٩٠).

في العام التالي أصدر كايا ألبوم Başkaldırıyorum أعلن تمرّدي الذي ضمّ عشر أغاني لحّنها جميعها، وشارك بكتابة بعضًا منها، إضافة إلى قصائد للشعراء إرسين أرغن (١٩٥٧) وأتيلا إلهان و أولكو تامر ورضا توفيق بلكباشي (١٨٩٦-١٩٤٩) ونهاد بهرام (١٩٤٧) وجورجي إيفانوف نيكوف (١٩٢٢) وأغنيتان للشاعر يوسف خيال أوغلو منهما عنوان الألبوم .

في عام ١٩٨٩ أصدر كايا أكثر من عشرين أغنية من خلال ألبومين الأول «Resitaller-١» والثاني وردة متفائلة İyimser Bir Gül وبالطبع كانت مُعظَم هذه الأغاني من ألحانه وبعضها من كلماتِه. في الألبوم الأول الذي ضمّ ست عشرة أغنية استعان بقصائد شعراء أمثال صباح الدين علي وقصيدتين ليوسف خيال أوغلو وواحدة لأتيلا إلهان وأخرى لأنور غوكتشه وواحدة لنوزاد جيليك وثلاث قصائد لحسن حسين، أمّا في الألبوم الثاني الذي ضمّ اثنتي عشرة أغنية، فغنى ولحن كايا سبع قصائد للشاعر يوسف خيال أوغلو منها عنوان الألبوم، وواحدة لفتحي بيريلي أوغلو ومزج إحدى

أغانيه بكلمات الشاعر البوليفي بيدرو شيموس (١٩٤٠).

مع مطلع عقد التسعينات أصدر كايا مع أول عام منه ألبومين الأول بعنوان «Resitaller-٢» والثاني «Sevgi Duvarı» جدار الحب، ضمّ الأخير عشر أغاني ثمانٍ منها من ألحانه واثنتين فقط من كلماته.

لحن كايا في الأول معظم أغانيه كما كتب كلمات البعض منه، إضافة إلى قصائد للشعراء وفنانين أمثال إسماعيل أيدن (أشق دمي) واثنتين ليوسف خيال أوغلو، وواحدة لروحي سو (١٩١٢- ١٩٨٥) وفاضل حسين داغ لارجا (١٩١٤-٢٠٠٨) والتي كانت من ألحان تحسين إينغرجي، وأغنية لأبوزير قرقوش (١٩٥٢-١٩٩٣)، وأخرى لأولكو تامر(١٩٣٧-٢٠١٨)، وقصيدة لحسن حسين وأخيرة لأنور غوكتشه.

أمّا الألبوم الآخر الذي صدر في نفس العام ضمّ عشر أغانٍ، وكعادته لحن معظم أغانيه، كما كتب كلمات بعض منها إضافة إلى قصائد لكل من أحمد إرهان (١٩٥٨-٢٠١٣) وجان يوسيل (١٩٢٦-١٩٩٩)، ومنها عنوان الألبوم، وأغنية من كلمات الشاعر حسن حسين والمستوحى لحنها من أغنية للفنان اللبناني مارسيل خليفة، وأخرى للشاعر نهاد بهرام (١٩٤٧) وواحدة للشاعر الأذربيجاني علي آغا وحيد (١٨٩٥-١٩٦٥) والتي لحنها علي بابا محمدوف (١٩٢٩-٢٠٢٢) وأغنيتان للشاعر علي تشنار (١٩٦٥).

في عام ١٩٩١ كان موعد الجمهور مع ألبوم «Başım Belada» أنا في ورطة، الذي ضمّ اثنتي عشرة أغنية، جميعها من ألحانه، وواحدة فقط من كلماته، أمّا البقية كانت من كلمات يوسف خيال أوغلو بسبع أغانٍ واثنتين للشاعر أحمد عارف ومثلها للشاعر أتيلا إلهان.

في تموز من عام ١٩٩٢ طرحَ ألبوم لا تلمسني ستحترق (Dokunma Yanarsın)، والذي ضمّ أيضاً اثنتي عشرة أغنية، لحّن معظمها وكتب كلمات أربع منها، إضافة إلى كلمات الشاعر يوسف خيال أوغلو لأربع أغان وأتيلا إلهان لاثنتين، وواحدة لسهى توغتيبي (١٩٥٦) وأخيرة للناشطة والشاعرة عائشة هوليا أوز زمورت Aysa Hülya Özzümrüt (١٩٦٠).

وفي نيسان من العام التالي أصدر ألبوم Tedirgin غير مستقر الذي ضمّ إحدى عشرة أغنية لحن معظم أغانيه وكتب كلمات أغنيتين إضافة إلى كلمات كل من الشعراء ست لعلي تشنار منها عنوان الألبوم وثلاث لأتيلا إلهان وواحدة لسيدا أكاي.

في أيار من عام ١٩٩٤ أصدر ألبوم أغنيتي إلى الجبال Şarkılarım Dağlara وكان من أكثر الألبومات الغنائية نجاحًا وانتشارًا في تركيا، انطلاقًا من هذا العام وحتّى الأعوام التالية من فترة التسعينات مُحافِظًا على أرقام قياسية من ناحية المبيعات.

وضمّ الإصدار اثنتي عشرة أغنية لحن كايا معظمها وكتب كلمات بعض منها أما البقية فكانت لكل من زينب تالو (١٩٦٧) و أتيلا إلهان وغولتن خيال أوغلو و أورهان كوتان (١٩٤٤-١٩٩٨) ولحن أغنية من أغاني الألبوم الملحن الأرمني أرا دينكيجان.

مع مطلع عام ١٩٩٥ أصدر كايا ألبومه والآن سترضا «Ya Rıza Şimdi» وكسابقاته كانت معظم الأغاني من ألحانه وبعضها من كلماته إضافة إلى كلمات كل من الشعراء نوزاد جيليك واتيلا إلهام ورضا توفيق ويوسف خيال أوغلو.

وفي نهاية العام ذاته، أصدر ألبوم «Beni Bul» جدني الذي ضمّ اثنتي عشرة أغنية لحن معظمها وكتب بعضها إضافة إلى كلمات يوسف خيال أوغلو وصالح غونغور.

وفي عام ١٩٩٦ أعادَ غناء وتسجيل بعض أغانيه السابقة وأدرجَ جميع هذه الإصدارات الجديدة بألبوم حملَ عنوان «Yıldızlar ve Yakamoz». النجوم وضوء القمر.

في عام ١٩٩٨ أصدرَ أحمد كايا الألبوم الأخير قبل وفاتِه، وكان بعنوان Dosta Düşmana Karşı صديق يواجه عدوا وضمّ اثنتي عشرة أغنية لحّن مُعظَمَها وكتبَ كلمات أغنية واحدة فقط إلى جانب الألحان والغناء، وكانت بعنوان «Söyle» حقّقت هذه الأغنية نجاحًا واسع الأمد وتحديدًا بعد وفاته، فباتَ يُردّدها العديد من نجوم الفن التركي إلى جانب جماهيرهم حتّى تركت أثرها في الجيل الحديث الذي لم يشهد نجومية أحمد

كايا الفعلية.
كما استند في الألبوم ذاته على كلمات كل من الشعراء والفنانين أورهان كوتن وحسين قرقوش ومظفر أصلان التي كانت من ألحان عبد الرحمن كيزلاي واثنتان لغولتين خيال أوغلو وخمس ليوسف خيال أوغلو.
في عام ٢٠٠١ وبعدَ وفاة أحمد كايا، صدرَ ألبوم بعنوان «Hoşçakalın Gözüm» وداعا يا عيوني وقد ضمّ هذا الألبوم بعضَ الأغاني التي سُجّلَت بصوته في عام ١٩٩٨ ولم تُنشَر في ألبومه الأسبق، وقد ضمّ هذا الألبوم عشر أغاني، سبع منها من ألحان أحمد كايا و أربع من كلماته واثنتان من كلمات يلماز أوداباشي ومثلها لغولتن كايا وواحدة بالكردية من ألحان وكلمات الفنان الكردي خوشناف تيلو.
في عام ٢٠٠٢ أصدرَت شركة الإنتاج التركية جام برودكشن ألبومًا بعنوان اسمعني يا بلدي الحبيب Dinle Sevgili Ülkem ضمّ العديد من أغاني أحمد كايا بصوت نجوم الموسيقى التركية مثل نيران أونسال « وبانوكيرباغ والموسيقي كيفرجيك علي والمغنية نازان أونجال وغيرهم الكثير.
عام ٢٠٠٣ أيضًا أصدرت الشركة ذاتها ألبوم «Biraz da Sen Ağla»ابكِ قليلا، ضمّ تسجيلات لأغانٍ قديمة للراحل أحمد كايا، منها ثلاث عشرة أغنية وأشرف على تنفيذ الموسيقى السيّدة جولتين كايا زوجة أحمد كايا والفنان إيمره أيدودو.
في عام ٢٠٠٥ وتحديدًا في الذكرى الخامسة لوفاة الفنان أحمد كايا، أُصدِرَ ألبوم جديد باسمه حمل عنوان Kalsın Benim Davam دع قضيتي حية وكان أيضًا من إنتاج زوجته وإيمره أيدودو وقد ضمّ العديد من الأغاني الشعبية لأحمد كايا وغير المنشورة بَعدُ، وفي ديسمبر ٢٠٠٦ أيضًا أصدر ألبوم عيوني عمرها ألف عام «Gözlerim Bin Yaşında» وحملَ اسم أحمد كايا.

الجوائز:

حاز أحمد كايا العديد من الجوائز والتكريمات في حياته الفنية، وحتّى بعد وفاته، آخرها كان في أكتوبر ٢٠١٣ وتحديدًا في يوم ميلاده عندما مُنح أحمد كايا الجائزة الكبرى في الثقافة والفنون عن فئة الموسيقى وهي جائزة رِئاسية تُمنَح سنويًا في تركيا.
جائزة مؤسسة الصحافة التركية ١٩٨٥، جائزة موسيقار العام من تلفزيون شو التركي ١٩٩٩. جائزة الرئاسة الكبرى في الثقافة والفنون في فئة الموسيقى في أكتوبر ٢٠١٣، منح من الجمعية التركية لصحفي المجلات جائزتها الخاصة في يونيو ٢٠١٢.

لماذا رحل إلى فرنسا؟

قامت إذاعة لندن القسم التركي في السادس عشر من أيلول من عام ٢٠١٦ بإجراء مقابلة مع زوجة أحمد كايا السيدة غولتن كايا عن تفاصيل الليلة التي هجم فيها الفنانون الترك عليه، في شباط عام ١٩٩٩ حصل أحمد كايا على جائزة" **أفضل فنان العام**" في تركيا، وذلك في حفل الجوائز المنظم من قبل جمعية "**صحافيو المجلات**"، هذا الحفل كان البداية لتلك الحقبة التي انتهت بترحيله عن تركيا.
أما عن سبب الترحيل، لأنه قرّر تقديم أغنية باللغة الكردية في ألبومه التالي، **تقول غولتن: ((في صالة ممتلئة بالرجال والسيدات المتأنقين على أكمل وجه، كان الحفل يسير بفرح، من الكوكتيل والطعام والأحاديث ومراسم لائقة))**.
عند توزيع الجوائز جاء دور أحمد كايا الذي خرج إلى المسرح وصُفق له، فحمل الجائزة بيد والميكرفون بيدٍ أخرى وبدأ يعلن ...
قال كايا : ((في الألبوم القادم، ولأنني من أصل كردي سأقدم أغنية كردية، وسأصور فيديو كليب لها، وأنا على يقين أن هناك أشخاص سينشرون هذا الفيديو، وإن لم يفعلوا ذلك، فلا أدري كيف سيحاسبون أمام الرأي العام التركي)).
تعلق غولتن: ((وبلحظة واحدة يتحول أولئك الأنيقون والأنيقات إلى بهائم، منهم من أخذ الملاعق والشوك بأيديهم وبدؤوا بالرمي وإطلاق الإهانات، خلال خمس دقائق تغيّر كل شيء، تغير على نحو ٣٦٠ درجة، تخيلوا كل أولئك الرجال والنساء المحترمين قبل دقائق هناك، ذهبوا إلى

أماكنهم وأصبح داخلهم أشخاص مختلفين تماماً، جاهزين لنشر الأذى، كان خوّلاً لا يصدق! في البداية حاولت أن أفهم لماذا ردة الفعل هذه، لكن فوراً فهمت من الصراخ الذي كان يأتي من حولنا، بأنّه ليس هناك ما يسمى كُرد، وأن الشيء غير المقبول هو رغبة أحمد كايا الغناء بالكردية واعترافه بأصله كردي، عندها اتضحت ليَّ الأمور.

كان قد غنى كل أغانيه باللغة التركية وليس بلغته الأم، كونه على مدى أربعين عاماً تلقى تعليمه باللغة التركية الرسمية، وكان يفكر أيضا بالتركية، للأسف لم يكن يعرف لغته الأم بمستوى متقدم.

بالنسبة لي كان الأمر طبيعيّاً جداً، حتى أنني دعمته بأن يكون له أثر بلغته الأم، وكان هو يعمل على ذلك، خاصة فيما يخص اللفظ الصحيح بمساعدة أصدقائه المتمكنين في اللغة الكردية)).

انتهى أحمد كايا من أغنيته على المسرح ونزل يتقدم نحو الطاولة، حيث كانت زوجته غولتن تجلس.

تقول غولتن: ((انتهى، نزل من المسرح، وعندما كان يتقدم نحو المكان الذي يجلس فيه، بدأت الإهانات والمضايقات اللغوية والفعلية، أقصد بالفعل أنّ بعض الأشخاص في الصالة بدؤوا يضايقونه في سيره، وبهذه الحال تقدم نحو الطاولة وجلس، ومن حولنا بالطبع العديد من الصحفيين والمصورين بميكروفوناتهم يسألونه إن كان يريد أن يقول شيئا ما، وبالمقابل داخل الصالة كنا في حالة تعجب واندهاش، لقد صدمت جراء سماعي ورؤيتي لتلك الإهانات، وكذلك كان أحمد، كانوا يرددون؛ انفصالي، ارموه خارجاً، لا يوجد هنا كُرد،... في الحقيقة تم التلفظ بعبارات لا تصدق ...

لكن على الطاولة حيث كان يجلس، قال أحمد بعض الجمل الأخرى، وكان مضمونها كالتالي: «لأنني من أصل كردي أريد أن أغني بالكردية، في هذه الصالة عليكم كلكم تقبل الكُرد، لأن هذا الشعب موجود وثقافته موجودة، ويجب أن تقبلوا ذلك، ولكن إن كان هذا ذنبا فليأخذوني، ماذا عساي أن أفعل؟!..»

زادت ردات الفعل والإهانات، أحمد وغولتن حوصروا في الطاولة المجاورة للجدار، في ذلك الوقت على المسرح كانت تُغنّي أغاني مليئة بالكلمات القومية المتعصبة.

تقول غولتن: ((كانت أغاني تلك الأغنية كالتالي: "في هذا الزمن ليس هناك شاه أو سلطان"، ومن بعدها جاءت كلمات عفوية وليس كلمات الأغنية الأصلية، تلك الكلمات: "على طريق أتاتورك تركيا كلها، هذا الوطن لنا وليس للغرباء"، طبعاً عندما كانوا يقولون ليس للغرباء، بأجسادهم كانوا يشيرون نحو طاولتنا ونحو أحمد، في هذه الأثناء عندما انتهى ذلك المغني من تلك الأغنية بدأ يغني النشيد الوطني ....)).

انتهت الأغنية ونهض الحاضرون للنشيد الوطني ...

تكمل غولتن ((كل من في الصالة نهض وبدأ بترديد النشيد الوطني، بينما كنا لا نزال نجلس في أماكننا، اعتقدنا أن الذهاب أو المغادرة ليس منطقياً في تلك اللحظات، وسط تلك الجموع الحساسة في مثل هذه المواضيع، سيبدو وكأنه قلة احترام للنشيد الوطني، من ناحية أخرى كنا نفكر ما دور النشيد الوطني في مثل هكذا مناسبة؟!!!!، رغم ذلك انتظرنا انتهاء النشيد)).

بعد ذلك وبمرافقة الشرطة ومن أمامهم الصحفيين غادرا القاعة، وافترقا عن بعضهم وسط تلك الفوضى.

تستطرد غولتن: ((أحمد كان في حالة هلع، لم يرني في البداية، كان يصرخ: غولتن غولتن، لقد شاهدت هذا لاحقاً في التسجيلات، بمساعدة بعض الأصدقاء والشرطة المكلفة بحمايتنا هناك، تمكن أحمد من مغادرة البناء وركب إحدى سيارات الأجرة، وأنا ركبت سيارتنا الخاصة وعدنا إلى البيت)).

بعد هذه الليلة، اتهم أحمد بإهانة الوطن، وافتتحت بحقه العديد من الدعاوى، وبعض مؤسسات النشر اتهمته بالانفصال وبدأت بالتحرك ضده.

تختتم غولتن: ((جرى تمزيق صور أحمد كايا وتكسير أشرطته وإرجاع ألبوماته وتوقيفها عن

”قامت إذاعة لندن القسم التركي في السادس عشر من أيلول من عام ٢٠١٦ بإجراء مقابلة مع زوجة أحمد كايا السيدة غولتن كايا عن تفاصيل الليلة التي هجم فيها الفنانون الترك عليه، في شباط عام ١٩٩٩ حصل أحمد كايا على جائزة أفضل فنان العام في تركيا، وذلك في حفل الجوائز المنظم من قبل جمعية صحافيو المجلات هذا الحفل كان البداية لتلك الحقبة التي انتهت بترحيله عن تركيا“

البيع، كانت عملية إخفاء عن الخارطة، كانت تأتينا فاكسات مليئة بالتهديدات بشكل لا يصدق، رسائل ومكاتيب تهديد تركت في علبة البريد الخاصة بنا، كتب في إحدى الرسائل: كيف تريد أن تموت؟ خنقاً بالسلاسل الحديدية أم بطريقة أخرى ...)).

صعبت الحياة على أحمد كايا في تركيا مع مرور الزمن، بينما كان يتحدث هو عن كل لحظة حب عاشها في وطنه، في تقرير لـ بي بي سي أيضا عام ١٩٩٦ كان قد تحدث عن ذلك: **أحمد يقول: ((أنا أحب تركيا كثيراً، لا أتخيل نفسي أن أكون قادراً على صنع الفن أو الإبداع في مكان آخر)).**

كان أحمد كايا وزوجته يثقون بأن هذه المرحلة مؤقتة وستمضي.

في حزيران عام ١٩٩٩ مع حقيبة يد صغيرة غادر تركيا في جولةٍ أوربية، بينما كانت تقول الصحافة التركية أنه هرب.

لم يعد أحمد كايا إلى تركيا أبداً، وفي عام ٢٠٠٠ بمدينة باريس فقد حياته جراء نوبة قلبية.

بعد سنوات عديدة اعتذر فنانو تلك الليلة عما بدر منهم، أما الدولة فبعد ثلاث عشرة سنة من وفاته كرمته بمنحه جائزة رئاسة الجمهورية للفن والثقافة.

سبب الجائزة أن موسيقا وتعليقات وكلمات أحمد كايا استطاعت أن توحد آراء مختلفة للعديد من الناس.

بعض كلمات أغانيه

من الآن فصاعدا لا طريق Bundan Böyle Yol Yok

بقيتُ أحلامنا وراء الجبال العالية مرة أخرى
ثمة موت جديد في هذه المدينة
وتعود إلى الحياة ثانية عتمةٌ على المدينة
وحب مزيف
إذن في القلب حزن جديد..
من الآن فصاعدا، لا يوجد طريق
كان على هاتين الذراعين أن تتعفنا
أبعد من ذلك السواد
أنت لم تفهمني
عيناك حمراوان كأنها بقعتا دم
هناك شقاق في الطرف الآخر
ثمة شيء ما أكبر من الانفصال
من الآن فصاعدا، لا يوجد طريق
مددتُ ذراعي طويلا.. ولم يبادرني أحد
آهٍ!، إنك تمزق قلبي بهاتين العينين الجميلتين
وهما تلوحان للأمل
وأنا في منفاي هذا ...لكن قفصي كسر جناحاي
مع ذلك اشتم عبيرك في كل هبة نسيم ..
أنت لم تفهمني
عيناك حمراوان كأنها بقعتا دم
هناك شيء ما أكبر من الانفصال

اعثري علي يا أمي Beni Bul Anne

كلمات : احمد كايا

البارحة راودني حلم
رأيتك فيه يا أمي.. كم اشتقتك
يداي بين يديكِ.. وعيناك غارقتان بالدمع
مسحتُ الدمع عن عينيكِ
عندها أسقطت الزجاجة على الأرض

وغرقت يداي بالدماء
تعالي يا أماهُ تعالي
اثنان من الدرك يمسكان بي ويداي مكبلتان بالأغلال
البارحة راودني طيفك في المنام
اشتقتك يا أماه
والدمع الذي سقط من عينيكِ على صدركِ
أكان أنا
إذن هل آلمتك يا أماه
أسقطتُ الزجاجة على الأرض
وغرقت يداي بالدماء
اثنان من الدرك يمسكان بي ويدي في الأغلال
تعالي الآن أماه تعالي
اعثري عليّ بين هذا الزحام
جِديني

بقيت بلا نافذة يا أمي!!!

Penceresiz kaldim Anne!!!

كلمات: يوسف خيال أوغلو وأحمد كايا

أين ألعابي
كرياتي الزجاجية.. بلابلي
قميصي الذي مزقته شجرة الكرز
سرقوا طفولتي على غفلة
بلا نافذة بقيتُ يا أمي
على أسلاك شائكة علقت طائرتي الورقية
أين شبابي يا أمي
ما بال هذا البخار يحرق الحلق
كالماء ومثل الخبز
ماذا بجوار كل هذا الحب الذي كبرت ونشأت فيه؟
ما هذا التناقض الفاضح أماه؟
وقعت على مائدة الذئاب
أين شبابي؟
أين تلك الأشياء التي كانت مصدر أفراحي؟
الكناري
حوض الأسماك الذي وضعت فوقه زهرة الصبار
وكتبي التي صادروها دون أن يسألونني
الجدران صامتة يا أمي
صامتة لا تتكلم
لا باب هنا يبقى مواربا
كلّ الأبواب موصدة
والأمطار تكدّست يا أمي
حتّى اشتعل هذا العمر
أين الشباب الذي احترق

مغامرة

شعر: أورهان والي

صغيراً كنتُ، صغيراً جداً
رميتُ صنارتي إلى البحر
احتشدتِ الأسماك،
رأيتُ البحر !..
***
صنعتُ طائرة ورقية بسلك معدني
ذيّلتُها بألوان قوس قزح
رميتُها إلى السماء.
رأيتُ السماء !..
***
كبرتُ
عاطلاً عن العمل، جائعاً كنتُ
كان من الضروري كسب المال
دخلتُ بين الناس
رأيتُ الناس!..
***
لا أستطيع التخلّي
لا عن حبيبتي ولا رأسي
ولا البحر ولا السماء ولكن...
آخر شيء رأيته لا يتركني.
أقول هذا ما رآه الشاعر المسكين
وسيراه....

يمكن إعتبار أن أكثر الساحات التي أصابَها التشوشُ في علمِ الاجتماع، هي ساحةُ العلاقةِ فيما بين السلطةِ والإدارةِ والسياسة. إذ تُستَخدَمُ هذه المصطلحاتُ بالتداخُلِ وكأنها متطابقة، بحيثُ يُحاكُ سقفُ علمِ الاجتماعِ برمتِّه بمنوالٍ خاطئٍ تسلسلياً. وعلمُ الاجتماعِ الذي يَنتهلُ من الأيديولوجيةِ الليبر الية، إنما يَخدمُ تشويشَ العقولِ بلا حدودٍ في هذا المضمار. حيث ولدى إطلاقِ تسميةِ السياسةِ على كافةِ ممارساتِ الأنظمةِ التسلطيةِ على وجهِ الخصوص، فإنه يتمّ التغاضي عن الكسراتِ السياسيةِ الصامدةِ من جهة، والحكمُ على الإدارةِ القَبَليةِ البدائيةِ من الجهةِ الثانيةِ بكونِها نزعةٌ محليةٌ ضيقةٌ قاصرةٌ عن الرؤيةِ بعيداً ، وعن تمثيلِ المنافعِ القوميةِ الأساسيةِ الداخليةِ منها والخارجية. وتشوُّشُ العقولِ والعَربدةُ في هذا السياقِ في أعلى الدرجات. كما ويَجري الحديثُ عشوائياً ودون أيِّ تفكيرٍ عن تحقيقِ تطورٍ كبيرٍ على الصعيدِ السياسيّ، وعن بلوغِ مستوى عصريٍّ ومتحضرٍ في السياسة؛ رغمَ طردِ السياسةِ من المجتمعِ منذ أمَدٍ بعيد، ورغمَ إحلالِ ألغازِ السلطةِ المُطابِقةِ للخيانةِ محلَّها. بَيْدَ أنّ ما يَسري في الميدانِ الاجتماعيِّ الذي تتواجدُ فيه السياسة، هو المصالحُ الحياتيةُ للمجتمع، وسلامتُه ورُقِيُّه بُنيةً ومعنىً بينما المجتمعاتُ التي تَغيبُ أو تضعفُ فيها السياسة، لن تتخلصَ من معاناةِ نيرِ سلطةٍ إباديةٍ واستعماريةٍ من الخارج، أو استغلالِ وقمعِ نخبةٍ سلطويةٍ وطبقةٍ استغلاليةٍ من الداخل.

من هنا، فأعظمُ حَسَنةٍ يُمكنُ القيامُ بها من أجلِ مجتمعٍ ما، هي النهوضُ به إلى مستوى المجتمعِ السياسيّ. والأفضلُ من ذلك هو البلوغُ به إلى ديمقراطيةٍ دائمةٍ وبنيويةٍ تَنشطُ فيها السياسةُ الديمقراطيةُ على مدارِ الساعة.

فصلية فكرية تحليلية حرة تعنى بشؤون الشرق الأوسط

رقم الاعتماد

لدى نقابة الصحفيين العراقيين 148

رقم الإيداع

دار الكتب و الوثائق في بغداد 868 لسنة 2005

لدى وزارة الثقافة المصرية

دار الكتب و الوثائق في القاهرة

رقم 24217